obeikandl.com

الحَيَاةُ الذُّرْوَةُ

د. محمد نعيم طه شريف

الكتاب : الحياة الـذروة (رواية)

المؤلف : محمد نعيم طه شريف

الطبعة الثانية : القاهرة ٢٠١٣

رقم الإيداع : ٢٠١٣/٢٢٤٠

الترقيم الدولي : I.S.B.N: 978 - 977 - 493 - 121- 5

الناشر

شمس للنشر والإعلام

٨٠٥٣ ش ٤٤ الهضبة الوسطى- المقطم- القاهرة

ت/فاكس: ٠٢٢٧٢٧٠٠٠٤(٢+) / ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥(٢+)

www.shams-group.net

حقوق الطبع والنشر محفوظة

لا يسمح بطبع أو نسخ أو تصوير أو تسجيل

أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة كانت

إلا بعد الحصول على موافقة كتابية من الناشر

obeikandi.com

شمس
للنشر والإعلام

روايـــة

الحَيَاةُ الذُّرْوَةُ

في الوطنية والحب والفن

الطبعة الثانية

الدكتور محمد نعيم طه شريف

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا

إهــداء

إلى كل مصري شريف متسامٍ، وإلى كل معذب فِي الأرض وراء الحقيقة والمثالية والعدل.

أهدي هذا العمل.

د. محمد شريف

obeikandl.com

لكي يتخلص من عذاب اللا شعور وغموض الحقائق

وقسوة الحياة سعى يبحث عن اليقين والمثال

وحياة الفن والاستمتاع

obeikandi.com

obeikandl.com

المرحلة الأولى

القاهرة في سنة ١٩٤١م

(١)

يسرِع كمال إلى أمه في شوقٍ وفرحٍ ويرتمي في أحضانها، وكأن الساعات القليلة التي غابها عنها في المدرسة كانت أيامًا. وبعد لحظة صمت يسألها باهتمام:

- متى يأتي بابا؟

- الأسبوع القادم.

ويتغير صوته إلى رنة شكوى وحنين وهو يعبِّر:

- لقد أوحشني.. أنا أحبه كثيرًا يا أماه.

فتتأثر متألمة، وتربت على رأسه في حنو قائلة:

- سيأتي وسيبقى معنا دائمًا، لن يغيب ثانية.

وتشرد نظراته يتفهم ما ذكرته، ثم يبتسم في سعادة. فيحز بنفس أمه

obeikandl.com

تلهف ابنها إلى أبيه، الذي انفصل عنها زهاء العام، بسبب خلافات نشبت بينهما لم يكن لتلافيها من حيلة، إلى أن تمَّ الصلح أخيرًا.

كان كمال أحمد عبد الرحمن مقبلاً على السادسة من عمره، نحيفًا، أطول من المقدر لأترابه، حلو الأسارير، تشع عيناه ببريق الذكاء، وتشي نظراته البريئة بنفس حالمة متأملة، ينسدل شعره الناعم الأسود على غرّته وأذنيه.

وتبتدره أمه:

- كيف حال المدرسة؟

- سئمتها.. لا أريد أن أذهب إليها ثانيةً يا أماه.. ذهبت أسبوعًا بأكمله.. ألا يكفي؟!

- ألا تريد أن تتعلم يا كمال؟! الأولاد الطيبون لا يملّون المدرسة أبدًا، بل المدرسة ستجعل منك رجلاً متعلمًا عظيمًا.. ألا تحب أن تصبح محاميًا مثل بابا؟

وتبتسم له وهي تصفِّف بأناملها خصلات شعره المنسدلة على وجهه. ويجيبها:

- لا أريد أن أصبح محاميًا، بل عسكريًا يحمل بندقية، فأحارب الإنجليز، وأقبض على المجرمين، ولن يجرؤ أحد على مضايقتي.

- ولكن يا كمال العلم أحسن شيء في الدنيا، وربنا يحب المتعلمين.

- ما شكل ربنا يا أماه؟

- هو قوة عظيمة، لا شيء يشبهه.

- هل هو كبير.. طويل هكذا.. حتى السقف؟!

- قلت لك يا كمال من قبل لا نعرف، فلم يره أحد.

ولكنه لا يقتنع، ويقطب مفكرًا في صياغة سؤال جديد يبدِّد حيرته، ثم يسألها:

- إذن لماذا.. كيف إذن عرفتموه؟!

- عن طريق سيدنا محمد صلي الله عليه وسلم، أرسل له الملاك «جبريل» الذي عرَّفه بدين الإسلام.

ولا يلبث أن يتركها ويجري منطلقًا في أرجاء البيت الكبير المتعدد الحجرات، بيت جده والعائلة، الكائن بشارع « المبتديان». ولا يلبث أن يعود إلى والدته بعد قليل وقد بدا له سؤال:

- ماذا يوجد في آخِرِ الدنيا؟

- كمال، أين لِعَبك والطائرة التي أهداها لك بابا؟

فيذهب ويأتي بها بادئًا باللِّعِب أمامها على السجادة. ثم يعود من جديد يسألها خلال انهماكها في شغل «التريكو»:

- من خلق الله؟

- لم يخلقه أحد، هو موجود من قديم الزمان.

- ماذا كان هنالك قبل أن تُخلق الدنيا كلها؟؟

فتحدق بأمه الحيرة تبحث عن إجابة. ويسمعان صوت مربيته تناديه من الداخل ليتناول غداءه، فتطلب منه والدته الذهاب إليها، فينطلق إلى الداخل، وعندما يصل إليها تحتويه بين ذراعيها وتقبله بحنان، وتجلسه إلى جوارها ليأكل. كانت مربيته «شفيقة» في الخامسة والأربعين من العمر، نوبية قسيمة الوجه، سوداء البشرة، تكفلت بتربيته منذ ولادته، غاية في الحدب عليه، والاهتمام بشئونه، يفيض قلبها بالحنان، وكأنها أمٌّ ثانية له. مطلقة ولها ابن في الثانية عشرة

obeikandi.com

يقيم مع والده. وخلال تناوله الطعام يداعبه الخدم ويضاحكونه.

وعند الغروب بدأ أهل الدار يتوافدون، فحضر أولاً خاله عبدالحميد الطالب بكلية الآداب، فيصيح يناديه، فيسرع إليه فرحًا، وكان يحبه كثيرًا. فيحمله بين يديه يقذف به عاليًا، ثم يُخرِج من جيبه لفافة شيكولاتة يعطيها إياه. ثم يحضر خاله الأكبر «فؤاد» مدرس اللغة العربية بمدرسة ثانوية، في السادسة والعشرين من عمره، فيداعبه لفترة. ثم يصل جده، ثم خالته «هدى» وزوجها، فيداعبونه بدورهم، فهو موضع شغف وتدليل من العائلة باعتباره أول طفلٍ لها، وطالما أتحفوه بالهدايا في كل مناسبةٍ.

ويجلس أفراد العائلة جميعًا على مائدة العشاء. ثم بعدها تمتد السهرة في سمرٍ وضحك، وهو يتنقل بينهم مستمتعًا بصحبة الجميع، وبالمحيط الاجتماعي المرح المتآلف، حيث تتفاعل الأسارير، وتختلج الحنايا، وتتحرك الأيدي مع الألسنة، وتتلوَّن النبرات مع التعبيرات المتباينة، فيحس بالعواطف تارة رقيقة حانية، وتارة شاكية حامية، وهو بينهم سائح متابع، في لجة من الخيالات والمشاعر، تقرع سمعه كلمات يجد لها معنى، تبعث في خلده خبرات ورؤى سبق أن أدركها، وكلمات أخرى يتركها دون مشقة تفهمها، وحتى إذا غمض حوارهم عن كل معنى، فما فتئ له وقع في نفسه جميل النغمة.

ويجيء موعد نومه فتحضر مربيته لتأخذه، فيسوؤها ما يتناوله من حلوى في غير موعده، مما قد يفسد معدته، فتند عنها احتجاجات

وزمجرات، وبعد ذهابه بقليل يحضر لزيارة العائلة بعض الأقرباء ويطلبون رؤيته، فتذهب والدته لتأخذه ليُحيّي الضيوف، فتغمغم مربيته رافضة لأنه تأهب للنعاس، وليس ببعيد أن تصيبه عينُ حسدٍ مؤذية، فتعِدها الأم بعودته مسرعة. وفعلاً بعد قليل ترجع به إليها.

(٢)

دقَّ ناقوس المدرسة، فتنطلق صيحات الفرح من الأطفال ويقفزون من قماطرهم إلى الطرقة، ينزلون للفناء، متناكبين متدافعين، وكان كمال أولهم يصفِّر ويولول، وينادي بعض زملائه ليتبعوه، وبمجرد وصوله إلى الفناء يسلم ساقيه للريح، مقدرًا قيمة الدقائق القليلة المتاحة له خارج قيد الفصل، وقد بدأ يألف المدرسة واجدًا فيها منطلَقًا لمختلف وسائل النشاط واللهو، فضلاً عن علاقات لا تخلو من طرافة وجِدَّة. وبعد أن ينهي لفة حول الحوش، ينظر حواليه باحثًا عن زملائه، فيجد سليمًا يجري وراءه، وبجانبه طارق، فيطلب منهما أن يلعبوا لعبة الفارس والحصان، هو الفارس وهما الحصانان، فيمسك من الخلف بمريلة كل منهما بيد، ثم ينطلقون يركضون، يصفِّرون ويصيحون، ثم يقترح أن يذهبوا للبحث عن بعض الزملاء ليشاركوهم الركض، فتقع عيناه على ثلاثةٍ منهم، فيسألهم أن ينضموا إليهم ليكوِّنوا جيشًا، فيوافقوا، ثم يطلب منهم البحث عن آخرين، يريد له أن يكون جيشًا كبيرًا قويًا. ويشير أحدهم إلى بعض الزملاء على مقربة، ثلاثة غلمان

وصبيتين، فيتجهون إليهم يطلبون انضمامهم، فيقبلوا، وتهمّ الصبيتان بالانضمام، فيتصدى لهما كمال قائلاً إن البنات يمتنعن. وظلوا يجرون في الفناء الواسع، وينضم إليهم كل فترة آخرون، ويزدهيه كبر جيشه، يقوده ويوجِّهه أينما يشاء، فيضطرم حماسه ويريد أن ينمو بالفكرة قدمًا، وفجأة يتذكر ما رآه في الشارع منذ أيام: هذا الجمع الغفير من الرجال المطربشين، يصيحون صيحات منفعلة غاضبة لم يفهمها، ويلوِّحون بأيديهم، ثم يبدر إلى ذهنه جملة تذَّكرهم يرددونها، فيجدها مناسبة، فيطلب من أقرانه أنه كلما هتف بكلمة: "زعيم الأمة"، يرددون وراءه كلمة: "النحاس". وبدأ يهتف وهم يرددون وراءه الهتاف، حتى يجيء مدحت يعترضه مُنكِرًا النداء، ويطلب الهتاف للملك، ثم يقف أمامه متحديًا، فينظر إليه هنيهة. يعرفه بتعنته وشراسته، أطول منه وأبسط جسمًا، وسبق أن حدثت بينهما اشتباكات خفيفة من قبل. ورغم أن نداء الملك يروق له، لكنه لا يريد أن يرضيه وينزل على رغبته، فيهز كتفيه استهانة ويعرض عنه، ويخطر له نداء أعظم، فيصيح بالتلاميذ: تحيا مصر.. فيردِّدون وراءه النداء، فيدفعه مدحت بيده في كتفه دفعة قوية، فيترنح إلى الخلف، لكنه يتدارك الوقوع، ويهجم عليه يدفعه بشدة فيكتفه، ويشتبكان في دفعٍ وجذب، كلٌّ يسعى للإيقاع بالآخر، ويتابع الجميع المعركة. ويتمكن مدحت من دفعه بقوة، فيقع على الأرض، فيهلل البعض لمدحت، فيغتاظ أيما غيظ، ويعميه غضبٌ جارف، فينهض على الفور ويقفز فوقه قفزة عالية تهوي به للأرض، وهو فوقه مُمسِكًا برقبته، والتلاميذ حولهما يهللون له

obeikandl.com

ويشجعونه، حتى تجيء المشرفة فتحول بينهما مُعَنِّفة.

وينتهي يومه الدراسي وهو في انفعالات مضطرمة، من غضب وثورة، وزهو وعزة، كانت المعركة تمثِّل عنده خبرة ذات جدة، تبعث في خلده هواجس شتى. وفي طريقه إلى البيت في حافلة المدرسة أنشأ يترنم بنشيد المدرسة:

مليـــك البــــــــــلاد	عمـــاد الـــــــــــوطن
أحييك يا أسعد المالـــــكين	ونهتف باسمك طول الزمن
تعيـــش تعيـــش تعيـــش	تعيش ويحيـــا الوطـــــن

(٣)

وتصحبه والدته في ظُهر أحد أيام الخريف المشمسة، لزيارة أسرة عثمان باشا في قصرهم المنيف بحي «العجوزة»، فينتفض من الفرحة والحبور. وتستقبلهما السيدة "شويكار"، فتقبِّله هاشة باشة، فيعلَق بذهنه مرأى أسنانها الناصعة المنتظمة، ويتغلغل خياشيمه عطرها القوى العجيب. ومع كل خطوة يخطوها داخل القصر الرحيب، يخطف نظره قطعة من قطع الأثاث الجميل، أو لوحة بديعة على الجدار. ويُقدَّم لهما عصير الفاكهة والحلوى، فيتناولها وهو هادئ صامت إلى جوار والدته، فتضاحكه المضيفة، وتفصح عن تعجبها لهدوئه. فتجيبها والدته:

- لا تتعجبي، فسرعان ما يتحول إلى مخلوق آخر عفريت.

- أحقًّا؟! لا أظن.. ستأتي "مُنَى" حالاً ويلعبان معًا.

وسرعان ما تدخل عليهم صبية، يراها ذات أسارير رقيقة هادئة، تنظر إليه في خجلٍ باسمة. وتطلب منه والدته أن يصافحها، فيفعل، وتطلب منهما حرم عثمان باشا أن يذهبا للعب في الحديقة. فتصحبه الصبية إلى الخارج ممسكة براحته. هي أطول منه قليلاً، وفي مثل نحافته، قدر أنها تكبره سِنًا. فيسألها عن عمرها فتجيبه بأنه ست سنوات. فينظر إلى جسمها متعجبًا ويقول:

- ظننتُكِ أكبر! أنا سأبلغ السادسة بعد شهور قليلة.

- كم ظننتَ عمري؟

- ثمانية.

فتضحك مزهوة بأن تبدو أكبر سِنًا. وطفقا يثرثران عن خبراتهما في البيت والمدرسة خلال سيرهما في البستان، وبين آنٍ وآخر يستوقف نظره تشكيلة بديعة من الزهور، فيميل يقطف واحدة، يتنَّسمها، ثم يقدمها لها. ولا يلبث أن يفصح آسفًا:

- ليت كان عندنا بستان كهذا!

- أليس عندكم؟

- نعم.

- وأين تلعب؟

- في البيت، أو في طرقة العمارة.

ويأنس كل منهما إلى صحبة الآخر، فتسأله هل يريد أن يرى لِعَبَها، فيُومئ برأسه على الفور يتحمس. فيصعدان إلى غرفتها، وهناك يلفي خليطًا هائلاً من اللِّعَب فيتناول كلاً منها في شوق يتفحصها.

obeikandl.com

تنقّل الحديث بين السيدتين في أمور شتى، وآذن انصراف السيدة فاطمة، فتنادي كمالاً عدة مرات، وعندما لا يجيب تقوم السيدتان للبحث عنه. وتدخلان غرفة "منى" فإذا بهما تشاهدان شيئًا أذهلهما، منى عارية من ملابسها وكمال يتفَّحصها، فتفغران فاهما في وجومٍ وحرج، ثم تنطلق حرم عثمان باشا في الضحك، يهتز كل جسمها اللحيم، بينما يشحب وجه والدته ويعتريها الخجل الشديد، وتبادر بسؤاله معاتبة عما يفعل. فيجيبها في هدوء:

- أردتُ أن أرى كيف تختلف البنات عن الصبيان!

(٤)

يترك كمال المدرسة عائدًا إلى بيته بصحبة مربيته. حدثان هامان وقعا بحياته، أولهما انتقال الأسرة إلى شقة بحي «جاردن سيتي»، أصغر لكن ذات موقع أجمل، تحوطها حدائق وأشجار، وتعرَّف على بعض جيرانه، أبناء السيد عبد المقصود في الدور الرابع الذي يعلوه، أسرة كبيرة بها ثلاثة صبيان وصبيّة. أما الحدث الثاني والأسعد، فهو مجيء والده للسكنى معهم بعد طول غيبة، فلن يفتقده بعد هذا أبدًا. ومع ذلك فالشيء الوحيد الذي يأسف له هو تركه المعيشة مع جَدّيه وأخواله. على كل حال هم قريبون ويمكنه أن يزورهم كثيرًا.

وخلال سيرهما في طرقات جاردن سيتي المتعرجة، يقع نظره

opeikandi.com

بين آنٍ وآن على جندي بريطاني، أغلبهم سود البشرة، سوادًا فاحمًا كمربيته، ولكن بقدر ما يحبها بقدر ما يرهبهم، ذكر له زميله عبدالله بالمدرسة أنهم من بلاد «نيام نيام»، آكلي لحوم البشر، ولهم ذيول يخبئونها في سراويلهم، ولهذا فكلما مرَّ بأحدهم ينظر إلى مؤخرته ليستوثق من وجود الذيل. ويسأل مربيته أين توجد بلاد «نيام نيام»، فتبدي جهلها. ثم يتذكر أنه سمع أنها في أفريقيا، فيعود يسألها:

- هل أفريقيا في نهاية الأرض؟

- لا علم لي يا كمال!

- ماذا بعد نهاية الأرض؟ هل يقع الإنسان في الهواء!؟

- لا تسألني يا كمال عن هذه الأشياء، فلا أعرفها، اسأل أباك.

ويتأمل: آه فعلاً، إن وجود أبيه بينهم الآن سيساعده على فهم كثير من الأشياء، التي تحيره على الدوام، مثل صفات الله وآخر الأرض ونهاية الزمان.

وبوصوله إلى البيت يُبادر إلى أمه يحتضنها ويقبّلها في اشتياق. ثم لا يلبث أن ينطلق إلى شقة السيد/عبد المقصود سعيدًا للعب مع الصبيان. ويجدهم كالعادة يطوفون بأرجاء الشقة يلهون ويعبثون، يقفزون فوق الآرائك، ويصيحون ويتشاجرون. أكبرهم باسل، في الثامنة من عمره، يليه ناجٍ، في السادسة، ثم ناهد في الخامسة، ثم عاكف في الرابعة. لكل منهم طرافته وأسلوبه في اللهو والمعاملة. شقتهم ذات فرش متواضع ظهر عليه البلى والتهالك. لا يرى أباهم إلا نادرًا، فهو صاحب صيدلية يعمل فيها طوال يومه، والأم خارج

بيتها دومًا، تاركة أولادها في رعاية خادمة عجوز وأخرى عوان. وأحيانا ينضم لهم «وائل» الذي يسكن في الشقة المواجهة لشقة عبدالمقصود، والذي يكبره بعام. أما ناهد فشعوره حيالها مزيج من الفضول والإهمال. وعندما تلومه أمه على غيابه الساعات الطوال عند أسرة عبدالمقصود، يتذمر يقول: ولماذا لم تأتيني بإخوة كثيرين مثل أولاد عبدالمقصود لألعب معهم؟ أحس أني "زهقان" وحدي!

ويومًا بينما يلعبون حول العمارة يمر بهم جنديان بريطانيان أسودان، فيجفل ناجٍ ويستحثهم على الهرب ويجري داخلاً العمارة، فيتبعه الآخرون فارين في ذعر، حتى يصلوا إلى الشقة، فيقول لهم ناجٍ وهو يلتقط أنفاسه:

- أرأيتم كيف تنير أسنانهم؟! بهذه الأسنان يأكلون الناس.

فيسأله كمال في اهتمام:

- هل حقًا لهم ذيول؟؟

- نعم، لقد تأكد لي ذلك.

ويذهبون للشرفة بغرفة نومهم. فيرى باسل الجنديين قادمين تحتهم، فيلفت نظرهم، بينما يتجه ناجٍ للداخل، فيسأله كمال أين يذهب، فيقول إنه سيبول، فتبرق بذهن باسل فكرة، فيبادرهم بتحمس:

- هيا نتبول عليهما، هما سيمرّان الآن تحتنا.

فيوافقونه، ويبدأون في التبول من الشرفة. ويهم كمال أن يفعل مثلهم، لكنه يلاحظ على وجه ناهد سمات الكدر والتذمر، فيسألها عما بها، فتئن شاكية:

- وددت أن أفعل مثلكم.

ويفاجئه الأمر، لقد علم أن البنات يختلف جسمهن عن الصبيان، وتأكد له ذلك عند رؤيته لمنى عارية منذ أيام، فيأسف لها في حيرة، وكان يحرص دائمًا أن يجد لكل شيء حلاً، وسبق أن تعجب لمَّا رأى ناهد تتبول جالسة، وتساءل لماذا لا تفعل مثلهم واقفة رغم الاختلاف؟! فيستحثها:

- يمكنك أن تفعلي مثلنا.. جرِّبي.

فتهز كتفيها بالرفض غاضبة. فتتخطر له فكرة، فيبشِّرها:

- أتعرفين.. لقد ظهرت لي فكرة هائلة يا ناهد، يمكنكِ شراء واحد من الصيدلية.. أنا أفكِّر في شراء واحد كبير، مثل الذي عند أبي، هو لا شك اشتراه من الصيدلية.

(٥)

بدأ الأهل والأصدقاء يتوافدون إلى الشقة، فالليلة الاحتفال بعيد ميلاده السادس، وكل واحد يبادره بمعسول التهنئة، منهم من يشغف به حُبًّا، ومنهم من لم يعرفه قبلاً، الجو بهيج رائع، وكل شيء مبرقش لامع، فشرائط زاهية عبر الحجرات، وبالونات ملونة مدلاة من الثريات، والأثاث جميل متألق، والأنوار تفيض على الوجوه فتشرق، وتنتشر الكلمات اللطيفة والضحكات الرنانة. هو يحب الناس ويأنس إلى صحبتهم. وما يفرحه، وصول هدايا من كل لون وشكل، تخطف النظر وتسعد القلب، وقد أهداه والده اللعبة المسماة

openkandil.com

«ميكانو»، فيصنع بقطعها سياراتٍ وقطاراتٍ وسُفنًا، وأشياء عدة.

حضر من يحبه كل الحب: خالاه عبد الحميد وفؤاد، وخالته هدى وزوجها، وأعمامه الثلاثة: محسن الطبيب، وسيف الضابط، ونجيب الطالب، وحضر الطبيب منير جرجس، صديق والده وعمه محسن، كما حضر بعض الأطفال، يشاركونه اللعب. أما والدته السيدة فاطمة فتظهر في غبطة ميمونة، كالعروس في ثوبها الأبيض المزدان بورد أحمر، في قامة رشيقة، ووجه ذو حسن ملائكي. أما والده ففي حلة أنيقة، ذو جسم طويل، ووجه وسيم، ينم عن كرم وسماحة، يعمل محاميًا في أحد المصارف الوطنية.

وبينما كمال يدور بين المدعوين يسأله الدكتور منير جرجس عن اسمه مداعبًا، فيجيبه: "كمال" أو "لولو"، وساعات "كوكو" أو "كمّوله"، هذا يتوقف على الأحوال والمُنادي. فيضحك لقوله ويسأله كيف هذا؟ فيجيب:

- ماما مثلاً تقول لي: "لولو"، وبابا "كمال"، وخالي عبد الحميد "كوكو"، وخالتي "كموله".. الأحسن أن يكون للواحد أكثر من اسم لأنه ليس دائمًا هو هو..

ويضحك الدكتور منير ويظل يحاوره مستطرفًا ذكاءه ومنطقه. وسمع حوارهما عمه محسن فينصت مبتسمًا. وبعد انصراف كمال يصرِّح له الدكتور منير:

- إنه طفل فذ، ذو ذكاء وخيال.. وأعتقد أن مستقبله سيكون غالبًا ذا شأن.. ومع هذا فشخصيته تحتمل النقيضين، إما ملاكًا كريمًا، وإما

obeikandi.com

شيطانًا رجيمًا، ولكن في كلتا الحالتين سيعاني في حياته كثيرًا.

- ولكن كيف تعرف هذا عن حياة ما زالت في علم الغيب، وفي لحظات قصيرة؟!

فيهز الدكتور منير رأسه، وعلى وجهه ابتسامة الواثق لِما يقول:

- هذا ليس رجمًا بالغيب يا دكتور محسن، بل دلائل قائمة على حقائق علمية، إن علم النفس قطع شوطًا كبيرًا في الكشف عن أسرار النفس البشرية، فهناك بداخل كل نفس قوة هائلة مهيمنة تسمى «اللاشعور» أو العقل الباطن، تتشكل معالمها في السنين الأولى من حياة الطفل، فيصبح لكل إنسان تكوين نفسي معين، يكون محور حياته، قد يكون عقدةً أو نقصًا أو حرمانًا، يظل مقيدًا أو حافزًا.. ومعظم الناس يجهلون تكوينهم النفسي، ويحاولون كبته والهرب منه.. وإذا لم يشبعه، فقد ينفجر هذا الانفعال المكبوت في صورة مرض نفسي أو جسمي، هين أو خطير، حسب درجة الحرمان أو النقص، ولا برء منه إلا بعلاج النفس.

- هذا شبيه بما قاله «فرويد» عن اللا شعور المكبوت، وأثر سني الطفولة الأولى.

- نعم، لكني اكتشفت أشياء لم يكتشفها فرويد.. فبحكم عملي في الطب الشرعي، ثبت لي أن كثيرًا من الأمراض الجسمية أسبابها نفسية. فتجد ناسا ليس بأجسامهم داءٌ معين، في حين أن آخرين أجسامهم مليئة بالأمراض ولم يُعرف عنهم الشكوى.

- رويدك، رويدك يا دكتور منير، أتريد أن تنكر عالم الأوبئة والجراثيم؟! والتي ليس لها علاقة بالمرض النفسي؟!

obeikandi.com

- دعني أشرح لك: تجد ثلاثة مرضى بداءٍ واحد يدخلون المستشفى، فيبرأ واحد، ويموت الثاني، ويظل الثالث راقدًا، رغم أنهم يخضعون لنفس العلاج ونفس الدواء، فلماذا؟ السبب هو أن الأول أدركه الأمل فقاوم المرض، أما الثاني ففقد كل أمل، والثالث ما زال بين اليأس والأمل.

ويهم الدكتور محسن بالاعتراض، فيشير له بالتريث ويستأنف:

- قل لي يا دكتور: إذا كانت الصدمات النفسية قادرة على قتل الإنسان، فهل تعجز أن تمرضه ؟! ألم يكتشفوا أن كثيرًا من الأمراض سببها نفسي، وهي المسماة «سيكوسوماتك» أو «النفس جسمية»، مثل السكر والربو، وضغط الدم، والقرحة، والشلل، وما زالت الدائرة تتسع..

وينتبهان لصوت السيدة فاطمة تدعو الجميع لمائدة الطعام. فينهضان، بينما يقول الدكتور محسن:

- دعنا نحتكم لمنطق التجارب العلمية يا دكتور منير، هي الوحيدة المُقنعة.

- بالطبع، وستثبت التجارب قريبًا صحة ما أقول.

ويجتمع المدعوون حول السماط، الذي يبدو لكمال لوحة زخرت بالمأكولات جميلة الألوان، تتوسطها كعكة الميلاد، بها ست شمعات، وتُطفأ الأنوار، فينفخ مطفئًا الشمعات، فيبادره الواقفون بالتهنئة والتصفيق.

وخلال الطعام يسأل الدكتور منير أحمد بك والد كمال عن حال

المحاماة، فيجيبه:

- في الحقيقة محامو الثروات هم محامو المحاكم المختلطة، هذه المحاكم عنوان الظلم الصارخ ببلدنا. فلا يُحاكم أجنبي إلا أمامها، حتى لو الطرف الآخر مصري.

ويعقِّب الدكتور جرجس:

- هذه المحاكم سُبَّة في جبين الأمة، وتحط من العدل والكرامة، وحسب معاهدة «مونتريه»، ما زال أمامنا تسع سنوات من الفترة الانتقالية حتى تزول.

ويغمغم نجيب طالب الحقوق عم كمال، بصوت يتأجج غضبًا:

- يجب أن تزول هذه المحاكم المختلطة والحكم الفاسد بأكمله.

ويتذمر فؤاد خال كمال:

- لعنة الله على الإنجليز هم سبب كل المصائب.

ويضيف الدكتور محسن بأسف:

- هم يسيطرون على المَلِك والوزارة، والكل عاجز أمامهم.

ويردف نجيب:

- بينما الشعب يعاني من الأعداء الثلاثة:الجهل والفقر والمرض.

ويلتفت أحمد لأخيه سيف الضابط الذي يأكل صامتًا، ويقول له:

- أملنا معقود على جيل ضباطنا الجديد.

فيتمتم سيف بابتسامة هادئة:

- ربنا يفعل ما فيه الخير.

وفجأة يصخ أسماعهم عويل صفارة الإنذار يملأ أجواء المدينة، يُنْبئ بغارة آزفة. فتتوقف الضحكات وتتلجم الألسنة، ثم ترتفع

obeikandi.com

زمجرات الاحتجاج والسخط. ويُعبِّر أحمد بك بتأفف:

- لم يكن ينقصنا إلا هذا ليعكر علينا صفونا!

وتصيح هدى خالة كمال متذمرة:

- اللعنة على الإنجليز وعلى أيامهم.

وتُطفأ الأنوار، ثم يدعوهم أحمد بك للنزول إلى المخبأ، فيخرجون للسلم يتحسسون مواقع أقدامهم على ضوء الشموع المتراقص. ويجد كمال نفسه محمولاً على صدر مربيته هابطيْن السلم، بصحبة والديه والمدعوين. لم يعد بالحدث الذي يخيفه، فلطالما أيقظته مربيته بأنصاف الليالي، يهرولون على السلم صوب المخبأ. وكان الأمر مدعاة للتسلية أحيانًا، بما يبعثه من هرج ومرج وإثارة، بين قصفات المدافع وأضواء الكشافات، التي يحب أن يتأمل أذرعتها الطويلة، تتلاقى وتفترق بأرجاء السماء، بحثا عن الطائرات.

ويسمع صوت خاله فؤاد يقول شاكيًا:

- ما كان أغنانا عن هذه الربكة ونبقى في الشقة، والعمر واحد والرب واحد.

وهنا تُدوّي طلقات صاخة تزلزل العمارة، فتصيح به أخته:

- كنت تريدنا أن نموت في الشقة وتقول العمر واحد!

ويجلس كمال بجانب مربيته ووالديه بأحد أركان المخبأ. وتدوي طلقات أخرى هائلة، فترتفع همهمات التكبير والدعاء من الجالسين.

ويقول أحمد بك لأخيه نجيب:

- ما لنا والإنجليز والحرب، ولا مطمع لنا في هذا أو ذاك!

- لا أدري متى يرحلون، يقحموننا في ويلات حرب، لا ناقة لنا فيها ولا جمل!

ويعلق عبد الحميد خال كمال:

- لو انتصرت دول المحور سنتخلص من الإنجليز.

فيرد الدكتور محسن:

- أخشى أن نتخلص من الإنجليز لنقع في أيدي الألمان.

وتدوي قصفات قوية تهتز لها الأرض، ويسمعون أحد الأفراد يقول:

- إن معسكرات الإنجليز ومكاتبهم في كل مكان بالقاهرة، مما يجعلها مستهدفة للقذف وقتل السكان.

ويردد آخر:

- لولا لطف الله لكنا من المرحومين.

ويرد أحد الشبان هازلاً:

- هل سمعتم هذه الحكاية: وجد أهل حي السيدة شقة الحاج مصطفى منوّرة في أثناء الغارة، فنادوه، فلما أطلَّ عليهم قالوا له: أنت منوّر يا حاج مصطفى، فأجابهم: أشكركم، هذا نوركم. فتسري ضحكات مترددة خافتة لا تلبث أن تعلو وتنتشر بين الجالسين. ثم تصدر زمجرات من المَدَافع يعقبها زئير ممتد قبيح، فصوت ارتطام شديد، ترتج له جدران المخبأ والأرض من فوقهم، فتهلع القلوب ويعمُّ الوجوم، ثم تُسمع زمجرات بعيدة متلاحقة، وفجأة يدوي انفجار مزلزل قريب، يتبعه صفير حاد كالفحيح. فيصدر صوت من أحد المختبئين يحتد بغضب:

- أما لهذا من نهاية؟

ويقول آخر:

- هذا الانفجار يبدو في المنيرة أو قصر العيني.

ثم تمتد فترة سكون يرتاح لها الجميع وإن ظلوا متوجسين. ويقطع أحدهم حبل الصمت يقول:

- سيدوِّخهم هتلر وليس لهزيمته من سبيل.

ويقول آخر:

- سمعت أن الإنجليز سيحاربون لآخر عسكري إفريقي وهندي.

فيعلق آخر في سخرية:

- أخشى أن يحاربوا أيضًا لآخر عسكري مصري.

وتنطلق صفارة الأمان، فيتنفس الجميع الصعداء، ويخرجون ينطلقون في الكلام.

وعند العمارة يستأذن الأهل والأصدقاء من أحمد بك وزوجته في الانصراف مع شكرهم وتمنياتهم الطيبة، ويبقي الدكتور محسن وزوجته والسيدة هدى وزوجها لاستكمال أنس السهرة، ويريد كمال أن يشاركهم السمر لكن مربيته تأبى في حزم، وتشجعه والدته على الذهاب للنوم، وعندما لا يجد مفرًا يلتفت لمربيته مشترطًا:

- على شرط أن تحكي لي قصة الشاطر حسن.

فتومئ موافقة. ويذهب يسلم جسمه للفراش، يداعب جفنيه متعة اللعب بالهدايا العديدة في الصباح.

obeikandi.com

(٦)

يأخذ كمال براحة ناهد ينزل بها إلى شقته ظهر يوم الجمعة. لم يجد في بيت عبد المقصود سواها هي ووالدتها، أما الصبيان فخرجوا مع أبيهم، فاستاء، فقد كان يُمنِّي النفس بيوم ممتع بينهم، فلم يجد مفرًا من الاكتفاء بناهد، ليست صحبتها بالطبع، كأي من إخوتها، لكن أفضل من وحدته. ويأخذها إلى غرفته فيريها لعبه الخلابة. ثم تخطر له فكرة يتحمس لها، فيطلب منها أن يلعبا لعبة العروسة والعريس، فتومئ برأسها موافقة، فيخبرها أنه أولاً سيبني بيتًا، فيحضر بطَّانية الفراش، فيضعها فوق منضدة وكرسي بجانب الحائط، ليبدو المكان تحت المنضدة كعش صغير، ثم يدعوها للجلوس تحته، ويسألها أليس جميلاً، فتومئ موافقة، فيستمهلها ليحضر بعض الطعام، ويذهب ثم يعود يحمل صحنًا عليه رغيف خبز وتفاحة وسكين، ويبدأ في تخريط التفاحة إلى قطع صغيرة، فيناولها قطعة ومن الخبز قطعة، ويتناول مثلها. ولا يلبث أن يسألها:

- هل تعرفين شكل ربنا؟

- لا أنا لم أره.. هل رأيته أنت؟

- قال لي بابا لا يمكن لأحد أن يراه.

- هو ضروري كبير جدًا.

- طبعًا.. هل تعرفين ماذا هنالك عند نهاية الأرض؟ أخاف أن يقع الواحد عندما يصل لحافة الأرض!

فتفغر فاها في خوف، ثم تسأله مهتمة بعينين متسعتين:

obeikandi.com

- كيف؟!
- سيقع في الهواء.. أتعرفين، أنا أتمنى أن أركب طائرة وأظل أطلع وأطلع حتى أرى نهاية السماء.
- ألا تخاف؟
- أنا أخاف! لا، الرجال لا يخافون.. سأصل للنجوم وأمسكها بيدي.
- من يصل إلى النجوم يقع.
- لا.. لن أقع.. أريد أن أرى كل شيء وأعرف كل شيء.
وتمر لحظات صامتة فيهنأ للسكون والدعة، ويتفرس في أساريرها فتعجبه عيناها الصافيتان اللامعتان، وشعرها الناعم المنسدل على أذنيها، فيمد راحته يمسح بها على شعرها ويهمس: شعرك جميل. فتبتسم، فيجس وجنتها المتوردة بأطراف أصابعه، ويحس برغبة تدفعه إلى لثمها، فيمس شفتيها بشفتيه بهدوء، فلا تحرك ساكنًا، ويرى إنسان عينيها يتغلغله في صمت وسكينة، فيهمس لها: أنتِ حلوة. فتبتسم مسرورة، فيعاود لثمها، فيحس بمتعة لم يعرفها من قبل. ويدرك لأول مرة معنى رفقة بنت واللعب معها، فيها شيء يختلف عن الصبيان. ثم يسمع نداء مربيته ليتناول طعامه، فيذهبان إليها، ولا تلبث ناهد أن تنصرف لشقتها.

obeikandi.com

(٧)

بعد خمسة أعوام

انقضى خمسة أعوام انتقل كمال خلالها إلى السنة الرابعة الابتدائية. لم يرسب أي عام، لكن الشكوى منه زادت في المدرسة لعدم استذكاره دروسه وشرود ذهنه في الفصل، وتشاجره مع التلاميذ. ويصل الأسرة خطاب بذلك من المدرسة. فتواجهه والدته بما جاء في الخطاب معنفة. فيدافع متذمرًا:

- هم يبالغون.. الأولاد الآخرون هم المشاغبون.

- لا شأن لك بهم، لماذا تتشاجر، هل ربَّينا ولدًا متشردًا.. ولماذا تهمل دروسك ولا تعمل الواجبات المدرسية؟؟

- لا أنا أعملها.

- قل الحقيقة، لا تكذب، المسلم لا يكذب، ولو تقطع رقبته.

- لا أعمل بعضها فقط، فهي كثيرة جدا.. كما أني الأول على الفصل في الرسم.

- نعم، لكن هذا لا يكفي.. يجب أن تتفوق في كل المواد.

- ومتفوق في اللغة العربية.

- هاتان مادتان فقط، لماذا لا تصير الأول على الفصل؟ في أي شيء يفضلك الأول، هل أنت أقل منه في شيء؟! عقابًا لك لن تذهب معنا لبيت جدك اليوم.

وكانت وعدته بذلك. فيضرب الأرض بقدمه اعتراضًا على جبروت العقاب، ويصيح في لوعة:

- لا، لن تمنعيني من الذهاب لبيت جدي.

- بل سأمنعك.

- لا، سأذهب غصبًا عنكِ.

- اِخرس.

وتهوي على خده بصفعة أليمة، فيمتقع وجهه، ولكنه يتمالك جأشه، فلا تند عنه كلمة أو أنَّة، بل يقف متحجرًا ينظر أمامه بذهول وأسى. وتدرك أمه هول العقاب واللطمة، وتود لو تصالحه، ولكنها تمسك ليتعلم درسًا. وينصرف لغرفته ويغلق الباب خلفه، ثم يدفن رأسه في الفراش ويخترط في البكاء.

بدأ الليل يرخي سدوله وما فتئ في الأفق شذرات سحب أرجوانية متناثرة فوق العمائر والمآذن، فيسرح بنظره يتأمل من النافذة أديم السماء، وما برح أثر الصفعة والعقاب يحز في نفسه، وقد فقد الاستمتاع بصحبة أهله. ثم يتساءل: لا أعرف لِمَ أشعر أحيانًا وقت الغروب، بالحزن وانقباض الصدر! أهو لمجيء الظلام، أم لرحيل اليوم؟ مربيته رحلت من الدنيا منذ سنتين بعد مرض عضال. شد ما أفتقدها وأحنُّ إليها. ثم يتناول كراسة الرسم، وبيد متثاقلة يستغرق في رسم حافلة المدرسة، يطل من نوافذها التلاميذ، ثم صورة أخرى لوادٍ هادئ تتوسطه بحيرة وتحوطه أشجار.

وبعد فترة يجد الغرفة قد أظلمت، فيمل وحدته، فيذهب إلى

المطبخ لعله يجد تسرية، حيث الطاهية المسنة، والخادمة الشابة فتحية، والفتى النوبي مسعود. فطفق يضاحكهم فيداعبونه، ويشاكسهم فيزجرونه. يروق له أحيانًا معاكسة فتحية اللعوب المعجبة بنفسها، تنفق الزمن الطويل في زينتها ودهان شعرها، وتكثر من الضحك والتنابذ مع مسعود. فيخطر له أن يعاكسها، فيبادر بشد شعرها، فتصرخ فيه ناهية، فيعود لفعلته، فتمد يدها لتمنعه ناهرة، فيفلت إلى البهو، فتتجه للمرآة تقول غاضبة: هكذا نكشت شعري يا ولد. فتجرحه كلمة «ولد» فيرد في غضب: لا تقولي ولد، أنا سيد ". وينسحب لغرفته مقطبًا.

ويسكن من جديد إلى نفسه يحوطه الصمت. فيبدأ خياله ينشط وعقله يستبطن.. ماذا بي؟! ما كنه شعوري هذه الأيام؟ هل أعتبر نفسي سعيدًا؟ وما مستقبل حياتي عندما أكبر؟! ماذا سأصبح؟ ولكن لماذا لا أسعد؟ ووالداي طيبان، ورغم تعنيف أمي بعض الأحيان، لكنها تحبني كثيرًا، وأبي كذلك، ويأتيانني بكل ما أريد، إذن يجب أن أكون سعيدًا.. لكن تمنيت لو كان لي إخوة، فلا أشعر بالوحشة!! لكن ما معنى السعادة؟! أن يكون الواحد غنيًا، عنده كل ما يريد ويتمنى.. أحباب وأصحاب كثيرون، وقصر جميل، وسيارة، وبستان، مثل ما عند عثمان باشا! ولكن لا أظن هذا كافيًا للسعادة! إن كثيرًا من الأشياء يضايقني عدم معرفتها، وتلح عليَّ لفهمها.. وفجأة يخطر بذهنه الحب. هو يبدو مهمًا في حياة الناس، وقد يكون من الأسباب المهمة للسعادة، كما قرأت في القصص وشاهدت على

الشاشة، لا ريب أني سأحب عندما أكبر. وطفق يتأمل في معنى الحب وأثره.. أعتقد أن السعادة تحدث، كما بالقصص، من المغامرة وحياة الإثارة، ثم الفوز بالحبيبة في النهاية.

ما فتئ شعور غامض خناس يضايقني، وأحاول عبثًا أن أعرفه. وبغتة يبرز له شبح الموت، فتسري في أوصاله قشعريرة مرعبة. ماذا لو مات والداي، أو أحدهما، فأفقده إلى الأبد. فتخنقه غصة، ويعتصره انقباض قاتم ووحشة، ويجاهد في عسر ليخرج من هوة يأسه. أرجو على الأقل بعد زمن طويل، طويل جدًا، ومع هذا لا أحتمل فكرة الفقدان.. المؤلم أن لكل شيء نهاية، وإلا فكيف يكون بقاء الشيء بلا نهاية؟ وماذا بعد النهاية؟! أشياء يصعب التفكير فيها.. وإذا بقِي الشيء بلا نهاية، ألا يبعث على السأم والملالة؟! نعم، أكبر مشكلة تواجهني هي ما نهاية الدنيا، ونهاية الزمان؟ وما بعد النهاية؟؟ عقلي يلف ويضطرب، ويصيبني دوار.. أي عذاب! لكن ماذا ساقني للتفكير في كل هذا؟ آه.. إنه البحث عن السعادة.. لا أشعر بالرضا عن نفسي، فلم أكن مطيعًا لأبوي، وكثيرًا ما عصيت وعبثت، وقابلت معاملتهما الكريمة بالجحود والعند.. وأهملت دروسي.. كذلك لا أصلي.. كل هذه الأشياء ربما تجعلني أروح النار.. وتتعارض أيضا مع السعادة؟ إذن يجب أن أصلي، وألا أُغضب ربنا، وأن أفعل كل ما يرضي أبويَّ، فأستذكر وأتفوق، ولا أسبب مشاكل بالمدرسة، فأجعل أبوي مبسوطين قبل أن يموتا.

القاهرة في أكتوبر ١٩٥١

(١)

يخرج أحمد عبد الرحمن المحامي والد كمال من قاعة الجلسة بمحكمة مصر، راضيًا عن مرافعته في الدعوى، ويدخل في حجرة المحامين، فيجد صديقيه عادل وعبد الرءوف، جالسين أمام المائدة، فيجلس بجوارهما محييًا. ثم يقول عادل:

- يبدو أن إلغاء معاهدة سنة ست وثلاثين لن يمر بسلام.. أرأيت كيف وضعت القوات الإنجليزية يدها على المرافق في القناة، من مواصلات، وكهرباء، ومياه، وبدأوا يعتدون على القوات المصرية؟

فيهز أحمد رأسه في أسف ويقول:

- لم يكن من إلغاء المعاهدة بُد، بعد عنادهم وجمودهم في المفاوضات، التي مرَّ عليها الآن قرابة العام.

ويدخل عليهم نجيب المحامي أخو أحمد، فيحييهم باقتضاب ويزفر بضيق قائلاً:

- أرأيتم جبروت الإنجليز؟ يعتدون على السلطات المصرية، ويقبضون على القضاة ويمنعون عنهم الطعام.

فيضيف أحد المحامين:

- واعتدوا على العمال الذين امتنعوا عن خدمتهم، واغتصبوا محلات التجار الذين رفضوا التعامل معهم.

obeikandi.com

فيغمغم نجيب بغضب:

- لم يعد مفر من الكفاح المسلح، ولو تحول الشعب كله إلى فدائيين، هذه هي اللغة الوحيدة التي يفهمها المستعمر.. والمَلِك لا يعبأ، بل منغمس في لهوه.

فيحذره أخوه:

- حاذر من كلامك يا نجيب، هذا قذف علني في الذات الملكية.

فيعقب أحد المحامين:

- كثر سب الملك علنًا هذه الأيام، والجرائد تعرض به تعريضًا.. الحمد لله، ما زالت في البلد حرية.

وفي تلك الخلال يدخل الحجرة عدد من المحامين. فيقول أحدهم:

- إن روح البسالة بين شباب الفدائيين تبشر بخير.

ويضيف آخر:

- لقد أظهر الإخوان المسلمون بطولات في القناة والتل الكبير.

ويضيف آخر:

- نعم، إنهم يسببون الذعر لقوات الإنجليز.. { إنْ ينْصُرْكُم اللهُ فلا غالِبَ لكُم }.

ويصدق الباقون على أقوالهما.

(٢)

في الصباح يسير كمال أحمد عبد الرحمن صوب مدرسته الإبراهيمية الثانوية. كان ذا وجه وسـيم، مرهف الأسارير، يتميز

obeikandl.com

بعينين سوداوين عميقتين، تلمعان في صفاء، تنمَّان عن شفافية وهيمان، تحوطهما أهداب طوال وحاجبان كثان، والشعر أسود متموج، والبشرة بيضاء.

وبدخوله المدرسة يلفي الطلبة متزاحمين في الفناء، ينصتون لخطيب واقف على الدرجات الرخامية لأحد أبنيتها، فيتمتم: هذا حسن عبد الكريم، من الإخوان المسلمين، وسيم سمْح الوجه، ذو أسارير جليلة نافذة، ربع القامة عريض المنكبين. ويسمعه يقول:

- إخواني الطلاب:{هلْ أدلّكُم عَلَى تِجَارةٍ تُنجِّيكُم مِنْ عَذابٍ أَلِيم، تُؤْمِنون باللهِ ورَسُولِه وتَجاهِدون في سبِيلِ اللهِ بأموالِكُم وأنْفُسِكُم}.. أجل، لم يعد أمامنا سوى الجهاد، آن لنا أن ننهض ونحرر الوطن، مهما غلا الثمن، ستُعبّأ الأمة كلها، وتصير صفًا واحدًا كالبنيان المرصوص، لنذود عن وطننا..

وهنا يصيح طالب واقف إلى جواره بحماس: الجلاء بالدماء. فيردد الطلبة وراءه النداء. ثم يهتف: الجلاء التام أو الموت الزؤام. وتتكرر الهتافات.

يفرح للإضراب لسببين: أولهما لإعفائه من قيد الحصص الطويلة، وثانيًا للحماس والعاطفة الوطنية الجياشة. ويجد عدد الطلبة في تزايد، والفصول قد خلت، والناظر وبعض المدرسين يقفون أمام شرفة حجرته يراقبون ما يقع. ويسمع خطيبًا آخر يقول:

- عناصر الأمة كلها يجب أن تتحد، فأمامنا عدو واحد، امتص دماءنا سبعين عامًا.. يخدعنا بالأكاذيب والمماطلة والتسويف.

ويتأمل الخطيب الأسمر ذا الأنف الحاد الطويل، والعينين المتقدتين، والجسم الطويل القوي، يُدعى «فارس»، من الإخوان المسلمين البارزين، رزين السلوك، يقف بجانب حسن عبد الكريم، ويسمع أحد القادة يصيح: إلى الجامعة. فينفجر الطلاب بصياح التأييد والحماس. لفظ الجامعة يثير في خلده أسمى القيم، ويهزه بفرحة الأمل، يوم يصبح من طلابها ويشارك في نشاطها.

ويتقدم موكب الطلاب من بوابة المدرسة إلى الشارع، وفي مقدمته رُفعت راية المدرسة الخضراء، عليها اسمها، وإلي جانبها حسن عبد الكريم مرفوعًا على كتفي طالبين، يهتف في الطلاب، ويخرجون لشارع قصر العيني، فيعترضون سير المركبات والترام. وينثني موكبهم إلى اليمين متهاديًا في صمود وثبات. ثم يرى فصائل طلاب قادمة من شارع «المبتديان» تتخذ طريقها خلفهم، ترتفع كالهدير هتافاتهم. ثم يصدم نظره عند شارع «إسماعيل سري» مرأى عساكر الشرطة في زيهم الأسود وعصيهم وخوذاتهم، رابضين فوق شاحناتهم، فيغمغم[1] بغضب: أدوات القمع الغاشمة، سلاح السلطة القاصرة، ما برح بالذاكرة حوادث أليمة لاشتباكات راح ضحيتها الطلبة، في وزارة سابقة، عندما حاصرتهم الشرطة، وفتحت عليهم الجسر في منتصفه، ليسقط الكثيرون بالنيل صرعى.

وتزحف جموع الطلبة تعبر قنطرة المنيل صوب كلية الطب،

---

(١) يصوَّت بحدة ، أو بكلام لا يبين.

فيقفون يستطلعون خبر طلابها، فيعلمون بسبقهم إلى الجامعة، فينقذفون سائرين بشارع المنيل، الذي يضيق بهم، يحملون لواءات المدارس والمعاهد، ووراءهم شاحنات الشرطة كئيبة المنظر، حتى يصلوا إلى جسر عباس بالروضة، وما فتئ الخطباء يتبدلون فوق الأكتاف، بعد زمن مديد من الهتاف، المضني للحناجر.

ويبلغون ميدان الجيزة الفسيح، وما فتئت تنضم إليهم خلال زحفهم المدارس والمعاهد، ويتوغلون فى شارع الجامعة، مارين بكلياتها المختلفة. وبدنوهم من الساحة أمام الجامعة، يرى حشودًا وهوشات عارمة، تحمل راياتٍ وأعلامًا وبيارق، وكأنها كتائب تتحفز لخوض المعارك. ويشتعل حماس المتظاهرين حوله، تسري بين ظهرانيهم موجة جياشة من الانفعال الرعدي، وتندفع أوائلهم، فتلحق بهم أواخرهم، كموج جارف متلاطم، هدير هتافاتهم يتصاعد للسماء، حتى يصلوا إلى ميدان الجامعة، الذي لم يبقَ فيه موضع لقدم، وتتجلى قبة الجامعة الهائلة مهيبة شامخة، وعلى جانبيها البناءان العريقان لكليتي الحقوق والآداب. وتتعالى النداءات: الجلاء بالدماء.. يسقط الإنجليز.. تحيا مصر.. الشعب الشعب.. الجهاد الجهاد.. الله أكبر ولله الحمد.. وكان أقوى النداءات وأرهبها.

وبعد زمن ممتد، تصمت الحشود، لينطلق صوت رعدي صروخ، يقذف بجمرات الكلمات، تشعل روح الوطنية في الحشود، إنه "حسن دوح"، الخطيب المفوَّه للإخوان، يدعو للتآزر والترابط والصمود، استعدادًا للجهاد، ويذكرهم بالآيات: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ

obeikandi.com

يقَاتِلُونَ في سبَيلِهِ صفاًّ كأَنَّهمُ بنُيانٌ مرَّصُوصٌ }.. { وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ }.

وينقضي الزمن وهو يتابع الخطيب، منبهرًا بصدق إيمانه النافذ في القلوب. وعندما ينفض التظاهر يولي إلى بيته، فيركن إلى غرفته، ثم إلى مقعده، ملتمسًا هدوء سورته[١]، ثم يتأمل في مصير وطنه، وسبل رفعته، ثم طريقه هو المأمول ومستقبله.

(٣)

في الصباح التالي ييمم المدرسة، وعندما يصل يجد الهدوء يخيم، وعلى غير المألوف تنتظم الدراسة، فيشعر بفتور، ويتردد هل ينتظم؟ جدول الحصص بقسم «أدبي فلسفة» يبدأ بحصة الأدب العربي والبلاغة، ثم اللغة الإنجليزية ورواية «ذات الرداء الأبيض»، مرتع الخيال الخصب، ثم التاريخ مع الثورة الفرنسية وأحداثها المثيرة، ثم تجيء الفسحة، وبعدها حصة الفلسفة، بما تحوي من تأملات مشوقة، وعندها يكون نصف الطلبة قد ولَّى زوغانًا، ثم تجيء حصة اللغة الفرنسية اللطيفة، فيكون المتبقي من الطلبة قد وصل إلى الربع، وأخيرًا حصة الجغرافيا وسياحتها البديعة في ربوع المعمورة، وعندها يكاد يخلو الفصل..

---

(١) احتداده ، هياجه ، سطوة انفعاله.

ما أحلى نسمات الصباح الباردة، التي يتميز بها خريف القاهرة، تبعث في بنياني فورة نشاط متوثبة، وفي ذهني استثارة للمعرفة، فتنازعني الرغبة بين الانتظام في الدراسة الشيقة، وبين الانطلاق في طرقات جاردن سيتي الهادئة، ونسماتها المنعشة، ثم بعدها أركن للمكتبة، أغوص في دفات كتبها وعوالمها الساحرة!! أعتقد أن الأصوب أن أتخذ طريقًا وسطًا، فأنتظم نصف اليوم في الدراسة، ثم أنطلق للمكتبة استمتع بالقراءة.

وعند الفسحة يتأمل في إعجاب السماء الزرقاء الصافية، تتخللها شذرات قطنية ناصعة، مع شمس قوية دافئة، تنتشر في الفناء الرملي وفوق الأبنية، ثم ينتهز فرصة غفلة من البواب ويمرق من بوابة المدرسة، فيصل إلى شارع قصر العيني، فيعبره ثم ينثني في شارع «إسماعيل سري» الصغير، على جانبه الأيسر أحوية كلية تجارة جامعة إبراهيم، وخلفها كلية التربية، موازيتان لشارع قصر العيني، كانتا منذ عهد قريب معقلاً من معاقل الإنجليز، محاطًا بأسلاك شائكة، كشأن مكاتبهم المنتشرة بشارع قصر العيني. ويصعد درجات بناء المكتبة العتيق، ويدخل في شقة صغيرة متواضعة من بضع حجرات، يجلس في بهوها أمين المكتبة، فينثني لليمين يدخل حجرة الفلسفة وعلم النفس والتاريخ، وكانت خالية من الزائرين، تتوسطها مائدة كبيرة، والمكان معبّق بجو هادئ وادع، والأرفف تزخر بكنوز الفكر الساحر، منحدرا عبر الأحقاب والأجيال، يسرد أخبار التاريخ وصراع الإنسان، خَطَّتها قرائح

عانت في التأمل والتفسير والاكتشاف، بعض الكتب تمادى به البلى واصفر لونه..كلها بين يديَّ وحولي، تتحدى قدرتي ووقتي، إذن لن أضيِّع زمنًا، بل سأنهل منها قصارى جهدي. هذا كتاب للفارابي «أهل المدينة الفاضلة» وذا للغزالي «تهافت الفلاسفة»، وذاك لابن رشد «تهافت التهافت» وهذا كتاب فلسفة أرسطو، ثم ها هو قسم علم النفس، وفيه: «اعرف نفسك»، و«تربية الطفل»، و«التحليل النفسي»، فماذا أقرأ؟ سأبدأ بالتحليل النفسي وتربية الطفل.

وبعد فترة تنبه لخاطر: أكان من الحكمة تركي دراسة العلوم والرياضة بعد التحاقي بها بداية السنة، تمهيدًا لكلية الهندسة؟ ولكن كيف ووجدت بعد الأسبوع الأول أن الفصل قد قطع شوطًا في قوانين الحركة لـ«نيوتن»، والرياضيات والكيمياء، وأنا ما برحت أتأمل وأستكنه كيفية هذه الحركة! واحتمالاتها المختلفة، وأستغرق في القراءات الأدبية والفلسفية، فتعذر عليَّ متابعة هذه المعادلات الصماء، والتحصيل المتواثب، فأسرعت إلى أقصى الطرف الآخر، أدبي فلسفة، أليسا هما حبي الأكبر؟ فلِمَ أتردد! أما عن العلوم فيمكنني معرفة زبدة ما وصلت إليه من نتائج، لأسعى في نهج الحكمة وأسرار الكون والخلائق، وهل العلم والفلسفة إلا بناء واحد متكامل، وما كل هذه التقسيمات إلا ظواهر، بينما الجوهر واحد.

أمامي الآن مشكلة تخصص المستقبل! وهل سوى الحقوق، دراسة أبي والأصدقاء والزعماء، ولكن أليست الآداب والفلسفة وعلم النفس هوايتي؟ أجل، ولكن يمكن تحصيلها بقراءاتي... آه،

الساعة قربت من الثانية، موعد الغداء، وهذه أمسية الخميس، حيث النزهة واللهو مع الصحبة. فيهش وييمم البيت.

(٤)

وفي الساعة الخامسة والنصف يصعد إلى شقة عبد المقصود، موطن الذكريات، والاستمتاع باللهو والمسرات. ويفتح له ناج فيصافحه ويدعوه للداخل، تنتشر في وجهه السمْح ذي السمات الرقيقة ابتسامة هادئة، ثم يستأذنه ليستبدل ثيابه. فيجلس في البهو نصف المظلم يتأمل قطع الأثاث المديدة العمر، التي تتسم بمسحة من أصالة وعراقة، رغم سقوط جوف الأريكة، وظهور شقوق في الكراسي، أما الجدار فمكسو بورق مزركش التهاويل[١]، والأرضية مغطاة بسجادة حمراء بنية. كلها شاهدة على تاريخ طفولته. كما يصدر عن الشقة آثار رائحة رطوبة وتوابل عجيبة، حتى ليعتبرها من سمات شقتهم. وها هو صوت عاكف الضاحك، يصدر من الداخل يعابث ناهد، فتشكو بصوت رقيق متضايق.

ويعود ناج ويسأله عما اعتزم في أمسيته، فيجيبه بأن لا قرار معين بعد، غير التسكع في وسط القاهرة، وربما يذهبان للخيالة، فيومئ برأسه يوافق، وتبزغ ناهد من الداخل باحثة عن شيء لها، فتفاجأ برؤيته، فتبتسم بالتحية ينير وجهها بهالة سنية، ترتدي ثوبًا

(١) زينة التصاوير والنقوش والوشي ، الألوان المختلفة ، ما يهولك.

جميلاً أزرق، يضيق عند خاصرتها فيبرز قوامها الريان بفتنة، كما يشرق وجهها بابتسامة حلوة، وشعرها الحريري استرسل على كتفيها وخديها في خصلات منطلقة. وكأني أراها لأول مرة! نمت ونضجت كزهرة تتفتح مكتملة. لا يوجد صلات بيننا حتى الآونة، هي أصغر مني بسنة، لا ريب أنها بدأت تدرك الحياة وفلسفاتها. ثم يراها تعود للداخل.

ويبرز عاكف بوجهه المشرق الضاحك، فيحييه ويبتدرهما في حماس بأنه ذاهب مع صديق لمشاهدة رواية «علامة زورو»، من أعجب الأفلام الأمريكية. وهنا يظهر باسل أخو ناج الأكبر، بقامته الممشوقة في زيه العسكري المتأنق، فيشد على يده، بالسنة النهائية بالكلية الحربية، هيئته تنم عن مضاء العسكرية، ونبل الفروسية، هذا يوم خروجه في عطلته الأسبوعية. ما ألطفها من أمسية، فكل فرد على موعد وتدبير لقضاء سهرة ترفيهية، بين الخلان في منتديات اللهو والتسلية، تاركين لفترة متاعب الدراسة والسياسة المضنية. ويخرج باسل، ثم تحضر ناهد للخروج لزيارة صديقة لها، فينهض عاكف ليصحبها، يداعبها بملاحظاته على فرط زينتها، فتزجره، تتعثر في حيائها.

وينطلق كمال وناج في شارع قصر العيني حتى يصلا إلى ميدان الإسماعيلية، فيمران بمقهى « أسترا» وبعده دار أخبار اليوم، ثم يسيران في شارع « سليمان باشا»، وقد بدأ الظلام يهبط وتنتشر الأنوار بالشوارع والحوانيت والأبنية، فتكتمل في القاهرة لوحة

المساء المبهجة. وتهف نسمات منعشة تدغدغ وجهه وجسمه، فيشعر بالنشاط والحيوية. أمسية الخميس لها سحرها، يليها استمتاع بالنوم حتى الضحى. ويخطر بباله ما كان يشغله من تخصص المستقبل، فيسأل ناجيًا أي كلية ينوي أن يلتحق، فيجيبه بأنها معهد الموسيقى، فيفاجأ برده الجاهز، ويغبطه لاختياره العاجل، يعرف ميله للموسيقى ولكن لم يدر بباله أنه سيحترفها، فيسأله عما سيعمل بعد التخرج. فيجيب حالمًا:

- سأعمل مدرس موسيقى بمدرسة. وأملي أن ألتحق في المستقبل بالفرقة السيمفونية الملكية، وأضحى عازف كمان مشهورًا.

فيتأمل: بدأ تعرفه حديثًا على الموسيقى الراقية، ففتن بعوالمها الزاخرة، فبهرته «شهرزاد»، وألحان «تشايكوفسكي»، وغيرها من الأعمال الآسرة. ويسأل ناجيًا عن رأيه في دراسة الفلسفة وعلم النفس، فيجيب:

- لا صبر عندي للأفكار الفلسفية والتجريدية، ولكني أحب الأدب.

وينتهي بهما السري لدار خيالة «مترو» التي تعرض الرواية الأمريكية:"جيلدا"، تمثيل "ريتا هيوارث" و"جلن فورد"، فيقرران مشاهدتها. ويخطوان في بهوها الفاخر وثير الرياش، فيستقبلهما سدنتها بزيهم الجميل الأحمر. لطالما فتنته عوالم الخيالة التي تنقله لأجواء عجيبة ساحرة، عَبْر الأماكن والأزمنة.

وبعد العرض يخرجان لأضواء الطريق من جديد يسريان. وعند منعطف شارع سليمان باشا وفؤاد الأول يفاجأ كمال بصديقيه سمير

وعبد العظيم، في مواجهتهما. فيهتف عبد العظيم بالترحيب:
- يا محاسن الظروف، السيد/ كمال الفيلسوف!
ويهوي بكفه على كفه، ثم يصافحه سمير. ويقدمهما كمال لناج فيصافحانه. ويسألهما عن وجهتهما، فيجيبه عبد العظيم:
- وجهة الأطايب.. حيثما وجدت متعة العين أو لذة الفم.
فينضم إليهما ومعه ناج، يستأنفون السير بشارع سليمان باشا. يتميز عبد العظيم بجسم طويل متين، ووجه بشوش وسيم. أما سمير فأقصر منه بقليل، عريض المنكبين، يميل إلى البدانة، ويتسم بالخجل واللين، تجمعه بكمال صلة الجوار، فيقطن إحدى شقتي الطابق الأسفل، وعن طريقه تعرف إلى عبد العظيم، وكلاهما بجامعة فؤاد الأول بالسنة الثالثة بكلية الحقوق.

وبينما يسيرون يتوقف عبد العظيم ويهتف يحيّي صديقًا:
- أهلاً مولانا فتحي عطية، أشرقت الأنوار البهية.
ويشد على راحته بحرارة ويتلاثمان على الوجنتين، ويتحادثان هنيهة، ثم لا يلبثان أن ينفصلا. فيستطردون في السري حتى يصلوا إلى محل «أتوماتيك» الحلواني، بجوار دار خيالة «مترو»، فيتلبث عبدالعظيم ويومئ برأسه إلى المحل، فيضحك سمير مدركًا مقصده. ويبين عبد العظيم:
- لولا نصيب شيئًا من الزاد.. من منكم يا أسياد يحظى بلقب الجَوّاد؟
فيضحك سمير يومئ تجاه كمال، الذي يحصي بذهنه ما معه من نقود، ثم يعتذر بضيق يده. فيلتفت عبد العظيم إلى سمير بعينين

مستميلتين، ويربت على كتفه يستحثه:

- ها هو سمير أَكرِم به من معين، سيخرج ما هو خزين.

فيقهقه سمير ثم يخرج ما بجيبه من نقود يحصيها. فيهلل عبد العظيم ويقول: بشراك يا نفس. ثم يساهم كل بما معه، فيتمكنون من شراء كوب «جيلاتي» لكل منهم بثلاثة قروش، ينهالون عليه يستمرئون. ثم يستأنفون السري فينعطفون بشارع عدلي صوب شارع شريف، فيصادف عبد العظيم صديقين مسرعين فيهتف لهما بالتحية. ثم لا يلبث أن يسأل كمالاً:

- كيف حال الفلسفة، وما أخبار الأستاذ «أرسطو طاليس» العظيم؟

- لم نتعدّ بعد أفلاطون.. درسنا جمهوريته ومثله.

فيعلق سمير:

- هي تقوم على مثالية الدولة، وتنشأة الأطفال على أفضل الأخلاق والقيم.. أليس كذلك يا «إكسلانس»؟

فيضيف عبد العظيم:

- وليس يؤهل للحكم ومناصب الدولة إلا النابغون من الفلاسفة.

وهنا تمر بجانبه كاعب ميساء، تخطر في خيلاء، فيقرِّظها إعجابًا:

- يا للحسن الآسر.. أرأيت يا سمير هذا الرنا[١] النادر، يُعذر معه الناظر!

فيبادره كمال يداعب:

- اِحذر من عقوبة معاكسة النساء بالطريق العام.

---

(١) ما يُرنى إليه لحسنه.

- الغزل جناح، أما النظر فسماح.

ويسأل سمير كمالا بأسلوبه الخاص المميز:

- هل عقدت العزم على خوض غمار القانون بإذن الله؟

فيصادف السؤال هوى في نفسه، وقد وجد من يأنس لرأيه، فيجيبه:

- هو السائد حتى الآن، لكن الرغبة ما فتئت تراودني بشأن الآداب.

- يا «إكسلانس» الدراسات الأدبية خلابة إذا أردت أن تمتهن التدريس، ومن علمني حرفًا صرتُ له عبدًا. ولكن القانون سلاح الطامحين لرفيع المناصب.

ويرفع عبد العظيم عقيرته يبين في خيلاء:

- القانون دراسة كل لبيب بصير، فهو أساس كل تنظيم وتدبير، ويحميك من النصب والتغرير، ويحوي من الفلسفة الجم الغفير.

فيستريح يهش لقوله. ثم يراه يتلبث أمام محل عصير فواكه ويقول:

- فلنستعن بالعصير، لتنشط قريحتنا للتعبير، فمن منكم الكريم القدير؟

فيتراجع كمال، ويضحك ناج. فيوجه القول لسمير:

- إذن ليتقدم ابن القاضي، ذو الحيثية المالي.

ويساهم كل منهم بما يستطيع، ويرتشفون العصير مستمرئين. ثم يستأنفون السري، فيسأل عبد العظيم ناجيًا عما ينويه بشأن التخصص الدراسي، فيجيبه أنه الموسيقى. فيندهش ويلتفت إلى سمير يربت على كتفه ويبتسم يقول:

- أرأيت يا هذا؟ أليس أمتع من منازعات المحاكم، وإجراءات التخاصم، فتحلّق في دنيا الطرب والتناغم.

ويضيف كمال:

- وكما قال أفلاطون، إذا التزم الموسيقيون قواعد خاصة في التأليف، فسيثيرون بألحانهم جذوة الوطنية ويرتقون بالنفوس.

- صدقت يا سيد كمال الفيلسوف، أراك تأثرت بأفلاطون.

ثم يلفت نظره كاعبٌ تتهادى، فيقرِّظها:

- وهذه ألحان حية متحركة، ليس يقدرها إلا ذو بصيرة مدركة.

ويضحك بخنخنة خاصة منغمة تثير ضحكهم. ثم يتبين أحد أصدقائه قادمًا، فيرفع عقيرته بالتحية:

- أهلاً مولانا «منير البرقوقي» النابغة الحقوقي!

ويهوي على كفه بقوة، ويتلاثمان. ويراه كمال طويلاً متأنق الهندام. ويبتدر منير عبد العظيم ضاحكًا:

- رأيت نظراتك للمرأة.

فينفجر عبد العظيم ضحكًا، يرنح رأسه طربًا، ويرجع ضحكاته ترجيعًا، ثم يجيبه:

- أي مولانا منير البرقوقي لا تؤاخذنا بالهفوات، ونعلم أن لك صولات وجولات.

فيضحك منير ويهوي بكفه على كفه ويقول:

- أوحشتنا واشتقنا لنكاتك يا بكَّاش.

ويلتفت عبد العظيم إلى رفاقه ويقدمه لهم فيتصافحون، ثم يسأله عن وجهته، فيجيبه:

- إلى ثلة الأنس «بالأميريكين».

- وجيه وأسامة وشاكر بمقهى «الأمير- يكين»؟

فيومئ بالإيجاب يبتسم لتقسيمه اسم «الأميريكين»، ويسألهم عبد العظيم هل يحبون الذهاب، فيبدي كمال وناج إرادتهما في الانصراف، فيحيط بيده كتف كمال يقول:

- هذه ثلة الأنس فلا تفوتك.

فيوافق هو وناج، ويسيرون جميعًا صوب شارع «فؤاد الأول»، ومنير يداعب عبد العظيم ويذكِّره بمأثوراته ويقهقهان عاليًا.

ويدخلون مقهى الأميريكين بشارع عماد الدين، فيصعدون إلى الدور العلوي، وعندما يلمحهما الأصدقاء يهللون ويهشون، وينهضون يصافحونهم. عددهم خمسة، من زملاء عبد العظيم بكلية الحقوق. ويضمون مائدة ثانية لمائدتهم. ويقضون زمنًا في الفكاهات والمداعبات إلى أن يجيء مجموعة من الشبان يبلغون الستة ينضمون إلى شابين جالسين إلى مائدة على مقربة. ويرون عبد العظيم ورفاقه فيبادرونهم بالتحية، ولا يلبث أحدهم أن يتناول منير وعبد العظيم بالتندر والمداعبة، ساخرًا من طلبة كلية الحقوق، وينضم إليه زملاؤه طلبة كلية التجارة. ويتحدى أحدهم عبد العظيم لينازله في «قافية الأفلام»، فيوافق. فيبادره:

- القاضي يسأل المحامي منكم عن أدلته لبراءة المتهم، فيرد:

فيجيبه عبد العظيم بالرد المعتاد:

- اشمعنى!

- أنا « قلبي دليلى».

فتضج الجماعتان بالضحك.

obeikandl.com

ويجيء دور عبد العظيم، فيبادره:

- من فرط حبكم للمال يمسك الواحد منكم الجنيه يتغزل فيه ويقول:

- اشمعنى!

- أنت «الحب الأول ».

ويضحكون عاليًا خاصة مجموعة عبد العظيم.

ويبادره شخص آخر:

- الواحد منكم يتخرج فلا يجد العمل، فيقول:

- اشمعنى!

- «هذا جناه أبي».

فيبادره عبد العظيم:

- الواحد منكم يتخرج في كلية التجارة فلا يأكل غير:

- اشمعنى!

- «العيش والملح».

ويستمر السجال لفترة، يموجون فيها بالضحك والبهجة، حتى ينهض عبد العظيم وصحبه للانصراف مصافحين الجماعة الأخرى، علامة التصافي بانتهاء السجال.

(٥)

يمل كمال الاستذكار ويشتاق لسمير ومرفّه، فيصعد لأسرة عبد المقصود، فتفتح له ناهد، ولاستيائه يعلم أن لا أحد من أخوتها في البيت، ويهم بالانصراف، ولكنها تتنحّى وتدعوه للدخول مرحبة،

obeikandl.com

بابتسامة آسرة، فيحدق به الارتباك ويتردد. ويسمع صوت الأم من الداخل تسأل عمن حضر، فتجيبها ناهد بأنه كمال، فيسمع صوت الأم ترحب به وتدعوه إليها، فيزول بعض ارتباكه ويتقدم للداخل، تقوده ناهد حتى نهاية الطرقة حيث الحجرة، فيلفي الأم في مجولها المنزلي جالسة على أريكة لصق النافذة، جسمها لحيم ذو أعطاف ثقيلة. وعندما تراه ينفرج وجهها السمين، بالابتسام والترحيب، وتدعوه للجلوس تقول:

- ناج وعاكف راحا لمباراة كرة مع ابن عمهما، هؤلاء الأولاد لا همَّ لهم غير الكرة واللعب، خصوصًا عاكف هذا.. قلت له دروسك ومستقبلك أهم.. ولا أعرف ما نهاية هذه المظاهرات، ليس وراءها غير الأذية، ودائما أحذِّر ناجيًا وعاكفًا من الاشتراك فيها.. ليت أولادي مثلك عقلاء، لا يشتركون في المظاهرات.

ويضحك بباطنه: آه لو تعلم أني قلما أتخلف عن مظاهرة! وتسترسل في حديثها وكأنها كانت تنتظرني لتفرغ ما في جعبتها من شكوى. ويجد ناهد تنقذه بدعوتها إياه لسماع الأُسطوانة الجديدة التي اشترتها. تقول الأم منتقدة:

- وناهد أيضًا لا تهتم بمذاكرتها، وتريد شراء فستان أو أسطوانة كل يوم، فأقول لها ليس عندي المال..

فتتأفف ناهد بخجل ترجوها أن تكف، ثم تسحب كمالاً من يده، حتى يصلا إلى البهو، فتتركه وتتجه إلى الحاكي بأحد الأركان تقول:

- أحب أن أعرف رأيك في هذه المقطوعة.

وترفع غطاء الحاكي وتضع الأُسطوانة، فتعطيه هذه اللحظات

obeikandi.com

الفرصة ليتأملها، ترتدي ثوبًا وردي اللون، وشعرها الأسود معقوص بعناية للخلف، غزير متموج، يلمع في رونق. وتصدح الموسيقى في الأرجاء فتخلع سحرًا على المكان، وتتجاوب حناياه مع الإيقاع ويعتريه شعور بالبهجة. وتسأله ناهد مشرقة الأسارير بحماس: أليست جميلة، فيؤيدها ويسأل عن اسمها، فتجيب:

- « التانجو الأزرق ».. أتسمعها لأول مرة؟

- بل أعتقد أني سمعتها من قبل.

وبدأت تدور في البهو تتمايل مع النغمات، تنسق خطواتها مع الإيقاعات، بتوازن رشيق فتان، ويختلس النظر إلى ساقيها فيلاحظ جمال الاستدارة، فيشعر بالارتباك للموقف الباعث على الإثارة. المرأة مخلوق ناعم رقيق، يبعث المسرة.. لكنها يجب أن تكون مصدر إلهام، لا محل شهوة. ويتنبه لها تسأله:

- هل تعرف التانجو؟

- لا.

فتقول وهي تؤدي أمامه:

- هكذا: خطوة بطيئة بالقدم اليسرى، ثم خطوتان سريعتان باليمني، ثم خطوة بطيئة باليسرى (ثم تستطرد بعينين حالمتين) آه.. لا أمتع من الموسيقى، لو أمضيت وقتي كله أستمع إليها ما مللت.

عيناها دعجاوان، تحوطهما أهداب طوال، إنسانهما حالك السواد. ويغض النظر، بينما تستطرد:

- سأسمعك الجانب الآخر من الأسطوانة: لحن الغيرة.

تتناول الأسطوانة براحتين وأنامل غضة جميلة، تبدو إلى جانب

opeikandl.com

الأسطوانة السوداء، ناصعة البياض كالقشدة.. المرأة كائن يحوطه الغموض، أحقًا كما زعم «فرويد»، مصابة بعقدة «إلكترا»، وأنا مصاب بعقدة «أوديب»؟! وهل تضعف مثلي أمام رغبات الغريزة أو «الهِيَ»؟ ويسمع أنات توسل وعتاب من الكمان، فيغشاه الهيمان، وتحلّق مشاعره وترق مع اللحن، فيتمنى لهذه المتعة أن تستمر. ثم يتنبه لها تمد يدها له تعرض تعليمه الرقص، فيتوجس مدَّعيًا تعسره، فتستميله تشجعه، فيأبى محرجا، تحتدم دماؤه ويضطرب. أخيرًا تتوقف الألحان، استغرقت دقائق، لكنها عبرت عن عالم زاخر. ويستأذنها ليغادر، ويهبط درجات السلم بشعور حائر.

(٦)

يمم صباحًا المدرسة ولما تبرح ذكرى الأمس مع ناهد عالقة، تثير عالما من الأفكار والهواجس عن مستقبله مع المرأة. سأقرأ كتب التحليل النفسي عنها. وبوصوله إلى المدرسة يلفي إضرابا كالعادة. إذن يخلص لي اليوم بين دفات الكتب في المكتبة. ويرى بين جموع الطلبة في الفناء ناجيًا وعبد الله وعصامًا، فيدنو منهم يحييهم، ويسألهم عن موضوع الإضراب. فيجيبه عبد الله:

- أما سمعت بالمعركة التي وقعت في القناة بين الإنجليز والأهالي؟

- معركة جديدة؟!

- نعم.. عدد كبير من المصريين استشهد.

- اللعنة على الإنجليز.. أرى هذه الأيام الروح الوطنية جياشة.

- لأن حكومة الوفد أحيت الآمال بإلغائها معاهدة سنة ستة وثلاثين.

يعجب بقوة اعتداده ووطنيته، واهتماماته السياسية. نحيف الجسم في صلابة، وجهه أسمر ذو سمات حادة، بارز الوجنتين، طويل الأنف. ويقلب نظره في أحوية المدرسة فيرى ببعض الفصول رءوسًا جالسة، فيمتعض ويقول:

- يبدو أن الإضراب ليس عامًا، ومع هذا لن أنتظم، لا رغبة لي في الدراسة اليوم.

ويتفق معه في الرأي عبد الله وناج، بينما يقول عصام:

- لا يهمني سوى الحصة الثالثة، حصة الأحياء، فهي مهمة.

وتتعالى أصوات الطلبة بالهتاف، ويحتد حماسهم، ويتبادلون الخطابة على المنصة، بين إخوان مسلمين ووفديين وسعديين، وغيرهم. ثم يرى أحد الطلبة المعروف بـ«الشمحطي» يتقدم يزاحم الخطباء على المنصة، بجسمه الطويل المليء، ووجهه الأسمر منتفخ الشدقين، شهواني السمات، يرتدي حلة رصاصية ورباط عنق أحمر، يعلم بميله للوفد، وإن كان هو نفسه حزبًا، برنامجه المتعة والشهوة، ذكر عبد الله أنه غارق في غزواته مع مومسات حيّي السيدة زينب والمنيل، بالسنة التوجيهية قسم «أدبي رياضة»، دائم الرسوب، سنّه لا تقل عن عشرين عامًا، ونادرًا ما يراه إلا وقت المظاهرات. ويسمع عبد الله يقول:

- وهذا سعادة جميل بك يتأهب للانطلاق لملذاته غير مهتم بشيء.

ويلتفتون فيرونه يقف بين جمع من الطلاب بأقصى الفناء، يتحادثون ويتضاحكون. هو معه بقسم «أدبي فلسفة»، بينما عبد الله وعصام

بقسم «علمي» يعرف أنه من أسرة غنية، وجهه وسيم، ذو شارب صغير، وبشرته بيضاء وجسمه ممشوق، يحضر في حلل أنيقة، وسيارة «كاديلاك» فارهة. ويسمع ناجيًا يعلق:

- هو في عالم خاص لا ينتمي لعالمنا.

ولا يلبث كمال أن يفاجأ بجميل يتقدم منهم، ويسأله:

- هل عندنا اليوم حصة فلسفة؟

- نعم عندنا حصة فلسفة.. الثالثة.

- خسارة، ما حضرت اليوم إلا من أجلها..

ثم يلتفت إلى عبد الله ويمد إليه سبابته ويقول مداعبًا في سخرية:

- هذا الوفدي لا يتخلى عن مظاهرة.

- هذا واجبنا جميعًا.

ويلتفت جميل إلى كمال يسأله:

- أتحب أن تأتي معنا إلى جلسة على النيل نناقش فيها مادة الفلسفة؟

ويتردد هنيهة تعجبه الفكرة، لكنه كان قد قرَّر السير في المظاهرة ثم القراءة بالمكتبة، فيعتذر يشكره، لكن لا بأس بفرصة أخرى.

فينصرف يرفع لهم يده بالتحية، مخلفًا آثار عطر ذي جاذبية، يتجه مع أصحابه إلى خارج المدرسة.

وتتجه جموع الطلبة وكمال وزملاؤه، إلى خارج المدرسة، رغم محاولات المشرفين ثنيهم، يحملون راية المدرسة وزعماءهم على أكتافهم، ومن بينهم «الشمحطي»، يهتف وهم وراءه بغضب: يسقط الإنجليز.. الجلاء بالدماء. قبضاتهم تضرب في الهواء، يتقدمون في

شارع قصر العيني صوب مجلس الأمة. ويقلب كمال عينيه في نوافذ العمارات، فيلفيها مُلئِت بالرءوس ونظرات التأييد، ويتمنى ألا تكون والدته بالنافذة فتراه، فيرسل النظر فلا يراها. ويلمح على البعد شاحنات الشرطة تغص بقوات الأمن المدججين بالعصي والدروع، فيحتدم غضبه كشأنه كلما رآهم، عدو يتربص بالطلاب في كل آن، أداة قمع في يد الحكام، وتذكَّر ما سمعه من عزم الحكومة على قمع المظاهرات بشدة، أهكذا يا نحاس، تُخيِّب فيك الرجاء، وأنت بطل إلغاء معاهدة ستة وثلاثين، فتنتهج سياسة القمع! ويلفت نظر عبد الله للعساكر، فيقلب شفتيه كراهية ويغمغم غاضبًا:

- الخنازير.. ما أنسى قتلهم للطلاب فوق جسر عباس.

ويرى كمال فصائل من الطلاب خارجة من جاردن سيتي، فيعلم أنهم طلبة مدرسة «قصر الدوبارة»، ثم يرى فصائل أخرى من شارع «المبتديان»، هم طلبة «الخديوية»، المعروفون بجسارتهم، ثم يرى العساكر يحتشدون لسد شارع «مجلس النواب»، حيث تتجه جموع الطلاب، يشق هتافهم عنان السماء، يتدفقون في موجات، تغشاهم الحمية والانفعال. وهو وعبد الله وناج وعصام يتابعون سيرهم في حماس، فيمتلئ صدره بالرضوان لوطنية أصدقائه. ويخال شارع قصر العيني قد تحول إلى ساحة قضاء، هبت فيها الخلائق ترفع المظالم، وتتوعد المحتل الغاصب.

وتصل مقدماتهم حتى صفوف الشرطة، فيحاول الضباط إقناعهم بالارتداد، لكن الطلبة يهتفون في تحدٍ وإصرار، ويسود جو من

التوتر والتحفز. ولا يعلم كيف نشب أول اشتباك، فرأى عن بعد، دفعًا وتنافرًا بين الطلبة والضباط، ثم ركض بعضهم للدروب الجانبية، ثم بدأت الأحجار تتطاير، تهوي على العساكر كالوابل، فأنشأوا يتقهقرون ويصدون بالمجنات، ثم تندفع زمرة منهم، فتدرك فلول الطلبة، وتنهال عليهم بالعصي بقسوة، فيسقط البعض ويفلت البعض، فينتفض قلبه غضبًا وثورة، يجزع على مصير زملائه، ويقسم لينتقمنّ إذا أسفر البطش عن ضحايا. وأنشأ يقذف بالأحجار مع القاذفين.

ويتفرق الطلبة في كل مكان، ويتحول شارع قصر العيني إلى حومة وغى، في أرجائه تنهال عصي، وتندفع أيدٍ، وتركض أرجل، وتهوي حصي، فتمرق أجسام، وتنزلق أبدان، وتصدر صرخات، وينزل بعض الطلاب صاري الترام بعد خلوه من الركاب، كما هو المعتاد، ثم تندفع هوشة منهم في غمرة هياج، تهز المركبة الثانية بشدة، فتتأرجح حتى تهوي على الأرض في ضجة، تتناثر شظاياها بكل بقعة. وبغتة يرى عبد الله يطوله أحد الشرطة بعصاه فيقع على الأرض، فلا يتوانى عن الاندفاع لنجدته، فيقفز فوق ظهر الشرطي يهوي به على الأرض، فينهض عبد الله من فوره، ويحضه على تركه، وقد أبصر شرذمة من العساكر تركض صوبه، حتى صاروا على مقربة منه وهو ما فتئ يرطمه، وكاد العساكر يبلغونه، لولا أن دفع بعض الطلبة أمامهم بعربة لبيع الخيار، فحالت بينه وبينهم، فهلل الطلبة، وفي الأثناء، يتمكن عبد الله من جذب كمال ويركضان متهدلي الثياب، فيدخلان إحدى العمارات، يستردان الأنفاس. ثم بعد

obeikandi.com

قليل يعم هدوء نسبي، فينسحب كل إلى بيته.

(٧)

في مساء ذلك اليوم يصدر قرار الحكومة بغلق الجامعات وكل دور العلم لأجل غير مسمى، فيتوجس خيفة على مصير الدراسة، أتضيع من عمره سنة، تقود للجامعة! لن أغفر لهم هذا.. لكن لعله إجراء مؤقت. إذن سأنتهز الفرصة لأرتاد عوالم الفكر والفن والفلسفة، أنهل وأستمتع، كما أزاول هواية الرسم وأبدع.

وينقضي الأسبوع الأول وهو عاكف على الرسم الزيتي في البيت، والقراءة في المكتبة. ويتحمس لتصوير مظاهرات ذلك اليوم المشهود، الذي كاد أن يذهب هو وعبد الله ضحيته. ولكن بعد انتهائه من اللوحة يفتر حماسه ويخيب رجاؤه. مهما رسمت فلن أعبر عن ضرام المعركة ذلك اليوم.

ويومًا يستدعيه والده مكفهر الوجه، ويطلعه على خطاب وصله من المدرسة، تتهمه فيه بعدم المواظبة، واشتراكه في كل مظاهرة. فيتململ يبحث عن تبرير لما يفعل. ثم يفصح:

- أحيانًا أذهب للمكتبة للقراءة والثقافة.. ومعظم الطلبة لا يواظبون على الدراسة..

- والمظاهرات؟ كم من شباب راح ضحية المظاهرات، ولم يغيِّروا من الأمر شيئًا.

obeikandi.com

- بل الحكومة تتأثر، وسياستها تتغيَّر.. كما يجب على الشعب أن يعبِّر عن رأيه.

ولا يفقد والده هدوءه وحلمه، كعهده، بل يعبِّر بنبرات رزينة متزنة:

- لا يا كمال، اسمع كلامي، أنا أكثر منك خبرة.. وأرى أن الحكومة مخلصة في إجلاء الإنجليز، هم يرون ما لا يراه الشعب، فأرجوك أن تبتعد عن المظاهرات.

وهنا تدخل والدته وقد سمعت الجملة الأخيرة، فتشهق تعترض بشدة:

- أتشترك في المظاهرات؟ لا، أرجوك.. أتريد أن تُقتل أو أن تُصاب بعاهة؟

ويطرق مكتئبًا في إحباط.. يتمنى لو ينتهيان! أليس من حقي اتخاذ السلوك الذي أراه؟ كيف إذن ُتبنى الأوطان؟

وتُستأنف الدراسة بعد أيام، فتنتظم الأيام الأولى في هدوء، فيحرص ألا يتغيب عن الدراسة حتى لا يصل والديه خطاب آخر. ثم يجيء يوم يجتمع فيه الطلبة في الفناء، يتشاورون لإرسال مندوبيهم لمناقشة مشكلة الاحتلال مع المسئولين. فيقف في الفناء مع ناجٍ وعبد الله وعصام، ويتذكر المعركة الباسلة التي دارت رحاها في أوائل ديسمبر بمدينة السويس، إذ خرج الشعب يتظاهر ضد الاحتلال، فتصدت له القوات البريطانية، فدافع عنهم رجال الشرطة، فسقط من الجانب المصري ثمانية وعشرون شهيدًا وسبعون جريحًا، ومن الجانب البريطاني اثنان وستون قتيلاً

obeikandi.com

وجريحًا. ثم أعقبها معركة أخرى في اليوم التالي، بدأتها القوات البريطانية انتقامًا لقتلاها، كذلك دارت معارك أخرى بالإسماعيلية.

وبعد أن يلقي زعماء الطلبة الخطب، ينفضون وتُلغى الحصص. ويبقى هو وعبد الله وعصام وناج، يجول بخاطره طيف المكتبة العزيزة، وما ستتيحه له من متعة وتحليق. وفجأة يهبط عليهم الشمحطي، فيتفحصه بفضول، وهو يتكلم بلهوجته المعهودة:

- ما رأيكم في هذا؟ خطوة جيدة يحققها الطلبة بإرسال مندوبيهم..

فيسأله عبد الله في سخرية:

- لماذا لم تذهب معهم؟

- ليس هذا مجالي، هناك من هو أقدر مني.. أنا اليوم في شأن آخر..

وينفرج فمه عن ابتسامة واسعة، ويغمز له بعينه، ويقول بصوت متهدج متحمس:

- جئتك بغنيمة يا بني، أنت جاهز؟

فإذا عينا عبد الله تتسع اهتمامًا، وفمه ينفرج ابتهاجًا، وقد فطن لما يقصد، فيسأله:

- الآن؟

- نعم الآن.. سترى يا بني «مهلبية».. «ألمظية».. هيا، لا وقت لإضاعته.

ويفرك يديه في سعادة ويضحك مهرهرًا[١] بفمه الكبير، فيرى كمال

---

(١) ضحك عابثًا أو مستهزئًا.

هوة تنفرج في وجهه المنتفخ، وشفتاه الممتلئتان تسيلان شهوةً وشوقًا، وعيناه جاحظتان تبراقان، وجسمه يفور بحيوية لا تنضب، وسماته دائمة الحركة والتوثب، أين هذا من حماس الوطنية والهتاف المتوقد، وكأنه شخص آخر. ويتنبه لعبد الله يميل عليه ويلكزه بكوعه ويهمس: لتأتِ معنا. فينظر إليه بتوجس. فيردف: إلى مومس. فيختلج قلبه يجفل، يعتريه اضطراب وتوتر. ثم يلتفت عبد الله إلى عصام يدعوه أيضًا، لكنه يرفض، فيستحثه يتبسم:

- هي أيضًا دراسة لعلم الحياة والتشريح.

فيبتسم في ارتباك ويتمتم:

- لست مستعدًا لهذه الدراسة بعد.

- وما السبب؟ (ثم يلتفت إلى ناج) وماذا تقول أنت أيضًا؟

فينفي برأسه. فيقول الشمحطي بتهكم:

- يا للعجب! وكأننا ندعوهم لمكروه.. أأنتم رجال! هيا بنا يا عبدالله.

فيمسك عبد الله بيد كمال، ويميل عليه يصب بأذنه معسول الإغراء:

- هي فرصة.. ثق بي، ستستمتع.. والشمحطي عنده شقة بالمنيل.

وينشط ذهنه سريعًا يزن الموقف: المومس اسم يزدحم بالمعاني المتصارعة: المرأة، الحياة، اللذة، ولكن كذلك: الدنس، الرذيلة، المرض. فيسأله:

- ولكن.. ألا تخشى المرض؟

- لا ، ليست هذه.. الشمحطي يحتاط لهذا، فلا تخف.

وينظر كمال إلى عصام ليعلم ما سيقرره، فيراه يحييهم وينصرف،

يتفادى الإلحاح. فيتفكن[1]: هي تجربتي الأولى مع المرأة لأمتحن رجولتي وأخوض عملية الحياة، أستكنه جوهرها الذاخر بخبيء اللذات.. هي تجربة كل شاب. ثم يتذكر ما كان يتوعده من قراءة بالمكتبة، فيشعر بالأسف لفوات الفرصة، ومع هذا يمكنني تعويضها فيما بعد. فيستجمع جرأته ويقرر الذهاب. بينما ينفصل ناج.

(٨)

ويحثّون السير في دروب جاردن سيتي المتعرجة، حتى يصلوا إلى جسر المنيل فيعبرونه بين زحام رواد مستشفى قصر العيني، وبين آنٍ وآن يصدر من الشمحطي تعليق هازل على امرأة تمر، أو شيء في الطريق غير مألوف، عيناه دائبتا الدوران والملاحظة. أما هو فطفق يشعر بالقلق والتوجس بدنوهم من حي المنيل، بينما يرى عبد الله هادئًا في غبطة الآملين. ويندفع إلى مخيلته متناثر الذكريات عن العشق والجنس، على شاشة الخيالة وفي الروايات، لفتيات ينشرن السحر والإغراء. ليتها كبائعة الهوى التي رأيتها أخيرًا بأحد الأفلام، وليت كان مقصدنا إليها ليلاً في الظلام، حيث تحلو رؤى الخيال والمتعة.. واستحثتني ناهد لمراقصتها فرفضت الفرصة! ففقدت كنوز اللمسات والإحاسيس الروعة.

---

(١) يتعجب ، يتفكر، يتأسف ، أو يتلهف على فوات الشيء.

ويندفعون في شارع المنيل بعمائره القصيرة المتواضعة، المحاطة بالحقول، لها طابع مخالف لمباني جاردن سيتي وقصر العيني، ومعمارها ونقوشها المبدعة. وينثنون بأحد الدروب على اليمين، والشمحطي يزداد فرفرة[1]، ثم يميلون في زقاق قذر، وقلبه يضطرب، حتى يقفوا عند أحد البيوت كالحة المظهر، فيطلب منهما الشمحطي أن ينتظراه، ثم يغيب بداخل المبنى. ويلبثان مكانهما والانفعال يعتمل في كيانه، هي خبرة مزلزلة، فأغوص في قعر الوجود، وأزيل ستر الغموض، تعرفني على باطن المرأة، مكتشفًا خبايا مفاتنها. وينتبه لعبد الله يقول:

- هذا الشمحطي ما يحول بينه وبين شهواته شيء.. ما يمتنع عن امرأة حتى لو في الستين! كم أنا مشوق للمرأة.. وقت طويل مضى منذ آخر مرة.

ويبرز لهما أخيرًا الشمحطي يسحب في يده امرأة في ثوب أزرق فيرتج قلبه لدى رؤيتها بشدة، بوغت لمخالفتها للصورة التي رسمها بمخيلته، فيُصدم ويفقد تحمسه. ويشير لهما الشمحطي ليتبعاه. وجهها لا يفتن، وشعرها أجعد، وقوامها غير متسق في ثوب ضيق. ويهمس لعبد الله بأنها ليست كما توقع، فيستخف ويذكر:

- لا بأس بها.. وماذا تظن؟! ست الحسن والجمال.. على الأقل صغيرة في السن.

---

(١) الإسراع في خطوات قصيرة، طيش العقل.

- ووجهها؟

- لا تنظر إليه، غطّ عينيك.. كلها دقائق معدودة وتخلص.. أنت لن تتزوجها.

- ولماذا نعذب أنفسنا ونغطي أعيننا، ونخلص، ماذا يجبرنا؟

ويتوغلون بالدروب، وهو يفحصها ويحاول تطويع نفسه إليها. لِمَ أتردد وأتوجس؟ لماذا لا أتمثل بهما وأجرب؟ وفي الظلام لا تفرق الشهوة في المنظر.

أخيرًا يصلون إلى عتبة بيت قديم حائل اللون، من أربعة طوابق. فيدخل فيه الشمحطي والمرأة، وهما في أثرهما، فتقابله ردهة قبيحة رطبة. فيصعدون الدرجات الحجرية المتآكلة، خلال سلم ضيق تغلبت عليه عوامل التعرية، وعلقت به رائحة عطنة باردة، فيمرون بعتبة الطابق الأول الذي يحوي شقتين، ثم يستأنفون صعودهم حتى الطابق الرابع، حيث يوجد شقة وحيدة، يقابلها باب على السطح، فيتقدم الشمحطي فيفتح الشقة، فيدخلون لبهو أرضيته من بلاط، تتوسطه مائدة حولها كراسي خيزران، ونافذة تطل على المنور، ثم غرفة وحيدة للنوم متواضعة الأثاث، بها سرير ومكتب وصوان.

لم يسترح للمكان وازداد امتعاضًا. ويأخذهما الشمحطي جانبًا، ويمد لهما يده طالبا أجر المرأة، التي اتفقت معه على التحصيل مقدمًا، فيخرج كل منهما خمسة عشر قرشًا يعطياها إياه، فيعطيها المرأة، ثم يدعوهم للأكل من بلح بصحن على المائدة، فيمتنعون شاكرين، فيتناول بعضًا منه بعجلة، ثم يمسك بيد المرأة يصطحبها

لغرفة النوم يهرهر بقوله:
- تفضّلي إلى غرفة السعادة.
وأتيح لكمال أن يرى جيدًا وجهها. لا بأس به عند الضحك. ويبتدر عبد الله بأسف:
- كنت أعتقد أننا سنحادثها أولاً ونتعارف!
- الشمحطي لا صبر عنده، وهي لا وقت عندها تضيِّعه.
لا يستريح لهذا المنطق، وتبخر كل أثر لشاعرية أو متعة. ويتناهى لسمعه معابثات الشمحطي من الداخل، يتمادى في هرهرته القبيحة.

وبعد فترة بدت له طويلة، تقرب من العشرين دقيقة، يخرج الشمحطي مشعث الشعر أحمر الوجه، يشد الحزام حول بطنه، سماته تنم عن ابتسامة الرضا والراحة. ويسألهما عمن يريد أن يدخل، فينظر إليه عبد الله، فينكمش يتنازل له، فيقول:
- هذا يتنافى وكرم الضيافة.
فلا يجد مناصًا من أن يرمي بنفسه في خضم التجربة، ويتخلص من توجسه، فيزحف للحجرة، ويغلق الباب خلفه. ولا ينقضي إلا خمس دقائق حتى يخرج يمسك ببطنه، يشكو ألمًا بجوفه، فيحملقان فيه يتعجبان لأمره. فيتمتم يداري خجله:
- فاجأني.. فاجأني مغص حاد.. كان عندي هذا الصباح..
فيحدق فيه الشمحطي لا يصدق، يتسع فمه الواسع بالضحك، ويهزأ:
- مغص!! هذا أول شيء أسمعه في هذا الموقف! أهذا وقته؟ أنا لم أعرف المغص في حياتي، وحتى لو كان عندي مئة مغص لما

obeikandi.com

أحجمت عن امرأة..

ثم يعلو صوته بالهرهرة، بينما ينغض عبد الله برأسه يأسف:

- ما له نصيب.

ويقوم للمرأة. أما هو فيجلس يتفكن. بينما الشمحطي منصرف لالتهام البلح على المائدة بسرعة فائقة. ويدعوه ليأكل، ثم يقول يضحك:

- كل.. ربما يزول المغص فترجع للمرأة.

فينكمش في نفور. ثم يسأله هل سينصرفون بعد خروج عبد الله، فيهرهر ويقول:

- لا، أمامي كرة ثانية.. وربما ثالثة.

إذن لينصرف هو. وينهض يحييه، فينغض الشمحطي برأسه يضحك ويتندر. ويهبط السلم المتآكل وهرهرة الشمحطي تلاحقه، وتستقبله النسمات المنعشة في الطريق، فيتنفس في ارتياح يتأسف: أي نزوة شيطانية استحوذت عليهما! يتهافتان على كتلة من اللحم الرخو! أين الجمال، أين السحر ؟! أي ابتذال ودنس؟! وحدقت فيَّ تتعجل وتتعجب، لتباطؤي الهياب المتردد، ثم تأففت تحضني لأفرغ، فسنح عذر المغص لينتشلني من الدنس.

(٩)

ويقابل عبد الله خلال فسحة المدرسة، فيبادره في سخرية:

- يا لك من متبذل.. أتلك امرأة تناومها؟

فيهز كتفيه ويجيب في هدوء:
- وما حيلتي في الشهوة؟
- هناك طرق أخرى لتصريف الشهوة والإعلاء بها.
وينضم إليهما ناج وعصام، فيتساءلان عن جلية الأمر. فيخبرهما كمال. فيعلق ناج ضاحكًا:
- كما يقولون: أطفئ الأنوار تتساوى النساء.
- وكيف نطفئ الأنوار والأمر كان في وضح النهار؟

وتنقضي أيام أخرى هادئة لا تحدث فيها مظاهرات، وتزداد المناهج تشويقًا وإمتاعًا، فيعكف عليها بكليته، ويتساءل في عجب: كيف كانت ستفوتني كل هذه السياحة الفكرية الرائعة لو انتظمت في قسم علوم أو رياضة؟! أما «فرويد» ونظريته فعالم ليتني أحوط بكل غوامضه! فلأحلل موقفي من المومس ذلك اليوم حسب نظريته: لا ريب أن سعيي وراءها كان بتحريض من «الهي»، أو الرغبات الغريزية، أما نفوري منها، فليس فقط بسبب المسحة الجمالية، بل أيضًا خشيتي من «الأنا الأعلى»، أو المعايير الدينية والاجتماعية، أما «الأنا» فهي ذاتي محل الصراع. ويفرح لنجاحه في تحليل الموقف. بقي عليَّ الآن أن أنتهج سبل الإعلاء بالغريزة، وما أكثرها، وأولها مزاولة الرسم الزيتي.

وتعود صورة ناهد لمخيلته معظم وقته، تبعث حرارة في برودة ليالي الشتاء، خلال عكوفه على الاستذكار. حتى يصعد لزيارتهم في ليلة، فتفتح تدعوه بابتسامة حلوة، فيدخل يتورد وجهه بلا مبرر،

ويعلم أن ناجيًا ذهب عند صديق يستذكر، ولا يوجد سوى الوالدة، فيهم لينصرف، فتدعوه بلطف ليلبث، فيجلس وهو يخجل. وتقول:

- بلغني أخبار مظاهراتك الوطنية.

- ليتني بمثل وطنية بعضهم، يجاهدون ضد الإنجليز بالقناة.

- لا..لا نود أن تخاطر بنفسك، بل مظاهرات سلمية فقط (وتضحك) وإلا حبسناك في البيت.

ولا يلبث أن ينتهز الفرصة ليطلب ما هو مشوق إليه: أن تسمعه لحن «الغيرة». فيفتر ثغرها الوردي عن ابتسامة مضيئة، وتنهض متجهة إلى الحاكي تقول:

- طبعًا، هي حلوة.

وتصدح الألحان الرقيقة فتحمله في طياتها، يحلق في أكوان ورؤى نائية. وبانتهائها يفيق ثانية، ثم يسألها هل تحب أغاني «عبد الوهاب»، فتجيب في حماس:

- آه طبعًا، ومن لا يحب عبد الوهاب! إنه مطربي المفضل (ثم تترنم) «بلاش تبوسني في عنيه، دي البوسة في العين تفرّق».. كما يعجبني فريد الأطرش.

- وهل تحبين الموسيقى الرفيعة.. من سيمفونيات وكونشرتوات؟

- لا.. لا صبر عندي على سماعها.

- حاولي الاستماع إليها، فبعضها ساحر حقًا.

فتهز كتفيها دون جواب.

- وهل تحبين القراءة؟

فتومئ بالإيجاب. فيسألها:

obeikandl.com

- عمّ تقرئين؟

- غالبًا المجلات وروايات الجيب..

- ألم تقرئي لطه حسين والمنفلوطي، وتوفيق الحكيم؟

فتنفي برأسها، فيخيب رجاؤه يمتعض لجهلها. فيسألها في أمل أخير:

- هل قرأت شيئًا عن « فرويد» ونظرية التحليل النفسي؟

- من.. فر.. فرويد! من هو؟ لم أسمع عنه!

- هو عالم نفسي كبير.. لا أحد يجهله!

فتتنهد في استخفاف وتقول:

- آه.. ليتني فقط أهتم بدروسي.. خلِّني أسمِّعك بعض الألحان الأسبانية.

فتذهب لوضع الأسطوانة. فيتنهد من أعماقه: هل يكفي الجمال وحده! كيف تحيا دون اطلاع واكتشاف؟ كيف تحتمل حياة الجهل والفراغ. وينتبه لسؤالها أي كلية اختار. فيجيب بأنها الحقوق. فتهتف في إعجاب:

- آه ستصبح إذن وكيل نيابة.. هذه مهنة جميلة، من الآن سنقول لك: حضرة وكيل النائب العام.

فيزدهيه قولها وتتلون كلية الحقوق في نظره بلون جديد. ثم تسري إلى مسامعه ألحان إيقاعية مثيرة تدعو للحركة والوثب، ثم يرى ناهد ترقص مع الإيقاع، فيهزه الموقف، الفرصة سانحة هذه المرة ليرقص، ويتمنى منها الدعوة بتشوق، فلا تفعل، فيسألها عن نوع الرقصة، فتجيب بأنها «رومبا». فيتمتم في خجل:

- أردت أن أتعلم خطوات هذه الرقصة.

- تعال أريك.

وتمد له راحتها الغضة، فينهض وقلبه يخفق، يدنو من الجسم ذي الإغراء المتفجر، وهو متشوق متوتر. وما أن يتماس جسماهما حتى يسري في بنيانه شرارة تكهرب. هذه لحظة لا تقدر، ويده حول خصرها الفتان، يشعر بانحناءة عودها الريان، وهو يتثنَّى مع الألحان، فيبعث في كيانه إحساس لطيف نشوان. ويتنبه لها ترشده:

- خطوتان بالقدم اليسرى وخطوتان بالقدم اليمنى.

ثم ينتهي اللحن، فتضع لحن "تانجو" حالم. فيعاودان المخاصرة. شعرها الناعم يداعبني، وعطرها الرقيق يدغدغني، لكن لا أجرؤ أن أدنو بجسمي، لا يمكنني! ليتني أضمها لصدري، فأروي شوقي لكيان الأنثى المغري! أعندها نوازع «الهي» كما عندي؟ وبحركة حريصة يمس بجسمه جسمها، فلا تعترض، فيطرب أيما طرب، يشعر بالفرح، ثم يمس بخده خدها، فلا تبتعد، فتدور رأسه ويضطرم، وينتشي كيانه ويحتدم، فيضرب بالإحجام عُرض الحائط وينثني على ثغرها يقبلها بتهافت، فتبعد رأسها مجفلة، بأسارير مخضبة، بعينيها نظرة لوم متحرجة، وتتمتم بصوت يتهدَّج:

- لا.. لا يا كمال.. هذا لا يصح.. نحن.. نحن أخَوان (ثم تطرق وتتمتم) ما كان يليق أن تفعل هذا..

وتشيح بوجهها المضرج تتجه للأسطوانات تقلب. ويدهمه الندم على ما فعل، يتمنى أن تبتلعه الأرض مختفيا عن النظر، ويجمد بمكانه مذهول الخاطر، وقد اتضح له جسامة ما فعل. ثم يخرج صوته خافتًا في عسر:

- أنا آسف.. سامحيني.. لم أقصد..

ويظل مبلسًا لا يحرك ساكنًا، ثم لا يجد سوى الرحيل مَخرجًا، فيتمتم في حرج:

- أستأذن الآن.. مع السلامة.

ويفتح باب الشقة، فيلمحها ترفع إليه عينيها بحياء، وتهمس :

- مع السلامة كمال.

ويهبط السلم يزفر، يهاجمه حشد من الانفعالات المتلاطمة: لماذا وكيف فعل ما فعل؟؟ هل أرضى الفضول، هل تمتع؟ لكن هل صان الفضيلة والخلق، هل تمسك بالمبادئ والقيم! يرجو أن تسدل ناهد ستار النسيان على هذه النزوة المخزية..

ثم بعد هواجس نادمة تنزل عليه استكانة مستمرئة، عند تذكره ما استمتع به من أحاسيس مثملة.

(١٠)

لم يمكنه التخلص أمس واليوم من أثر الخبرة المخزية والمثيرة معًا. يا له من اندفاع طائش! أليست أخت صديقه الحميم، وأليس من العار انتهاك حرمة الأصدقاء، بله الجيران؟ لماذا إذن أقدمتُ على الخزي؟ كان خليقًا بي النأي عن مواطن الإغراء، ولَجْم الغريزة الخرقاء، وإلا فما قيمة ما درستُ من علم نفس وسبل الإعلاء؟ ويئن من وطأة الندم، والعجز عن فعل شيء لتدارك ما حدث.

obeikandi.com

وعند المساء تبدأ سورته تهدأ، لكن تعود صورتها لفكره تقتحمه، يتذكر كل كلمة منها ونظرة، ويحس كل ثنية وخلجة، ثم المسُّ الكهربي ذا الرجفة! كيف تحوي كل ذا التأثير الذروة! ما أبعد الفارق بينها وبين خبرة المومس المبتذلة. لكن يجب أن أستبين علاقتي بها، أهي صداقة أم حب؟ إذا تماديت معها فواجبي تزوجها.. ولكن أي زواج هذا الذي يكبلني من الآن، أو حتى بعد التخرج، وأمامي النهج طويل محتاج لتفرغ! الواجب إذن الإحجام.. ولكن أي إرادة أملكها واحتمال، وخاصة والفرصة سانحة سهلة المنال! لكن ولمَ لا أحبها حبًّا عُذريًا يبعث على الرقي والكمال؟ ولكن أهي فتاتي المرموقة معقد الآمال؟ هل يمكنها أن تأسرني على مدى الأيام، أو تلهمني للإرتقاء؟ بل إنَّا من عالمين مختلفين لا يلتقيان.. مَنْ إذن فتاتي المثال؟ أمثل الأميرات، باهرة الجمال والذكاء، تملك ثقافة وبيان، مترفعة ذات كبرياء؟

ويشتاق للموسيقى تلهمه السداد، فيدير المذياع على رفيع الألحان، فسرعان ما تحمله لعالم الجمال. والآن فلأنسق المثل والانجازات على درجات، ما تعلق بالدراسات والقراءات، وما تعلق بالأعمال والرياضات، وما تعلق بالمتع والهوايات، ولأحدِّد مَن هو الصديق ومَن هو الحبيب، ومَن العظماء الخليقون بالاقتداء، الزمن يجري والعمر قصير مهما طال، فيجب التزامي بمنهج، وإرادة صارمة المسلك، إن الحياة رسالة، أولى مبادئها تقويم النفس وتقيينها. وتغشاه الحماسة وتتسارع نبضاته، ويتفتق ذهنه عن

إلماعات براقة، ويشعر بنفسه تتجلى وتتطهر، للرفعة تتشوق، يحس بأنه يملك القدرة ليفعل.

عليَّ الآن التنسيق الهرمي للأهداف. الهدف الأول هو دراسة الفلسفة، لفك رموز الكون وأسرارها، وخفايا الأحداث وأسبابها. الهدف الثاني، دراسة علم النفس لفهم الذات البشرية في أغوارها. الهدف الثالث الإلمام بالأدب والفن الذي يلون الحياة ويرتقي بالنفس.. الرسم رفيق الصبا ومرآة السريرة، والموسيقى تعبير عن لهفات القلب، وخلجات النكيثة.. فأي منهما أُفضّل؟ آه ! تتحامل عليه سياط البرح والحيرة!! أرى أن الحل الأنسب، هو مداومة الرسم مع الإلمام بقواعد الموسيقى.

الشطر الثاني لصحة النفس والجسم، هو الرياضة، والعقل السليم في الجسم السليم. ثم بعض الدراسات الهامة، أخصِّص لها نصيب من وقتي، مثل إتقان اللغة الإنجليزية، ثم الفرنسية. أجل، هذا تنظيم جيد، وربما فيما بعد يُنقَّح، ولتكن سنة اثنتين وخمسين المقبلة سنة يمن وبركة، وبداية تحقيق الأماني المنتظرة.

(١١)

الليلة تنتهي السنة بأفراحها وأتراحها ويقبل عام جديد، العالم كله يحتفل الليلة، ومصر تنتظر الأحداث الجسام، والأعمال الفدائية تزداد بطولة مع الأيام، والشباب يغلي كالمرجل، يصر على طرد

المستعمر، فأرض الكنانة أثيرة كل قلب، تستحق بذل كل ما غلا وعز، حتى يتحقق لها النصر.

فلأنظر الآن لمستقبل عامي، أنا الآن في مفترق الطرق لكل معترك، وأريد أن أحقِّق الحياة العميقة المثيرة، الزاخرة بإنجازات عظيمة، وقد وضعتُ المنهاج، ونسَّقتُ المثل على درجات، ومنذ بداية العام التهمتُ كنوزا من المعلومات، في داخل وخارج المقرر. أما بميدان الحب فلما يتحقق شيء، وأزف الوقت لأخبر دنيا العواطف، أولى التباشير كان الالتحام بناهد، يا ترى ماذا تحمل لي من مشاعر! ما برح الخزي مما فعلت، هل نسيَتْ وصفحتْ! أما في عالم الصداقة، فتنمو حصيلتي من الأذكياء اللماحين، ذوي الثقافة والفكاهة. بعد هذا كيف نسعى لإصلاح الشباب والمجتمع، وننهض بالعزائم والهمم، وكيف نزهق فساد المنتهزين، وخداع الحاكمين، ونفاق التابعين؟ ثم كيف نعلي مبادئ الفضيلة والقيم النبيلة؟

الساعة الآن الثامنة، آن موعد الانطلاق مع الخلان. فينهض ليزور ناجيًا. وبوصوله يجد عنده وائلاً، جاره بالشقة المقابلة، طالب بإعدادي طب قصر العيني. يراه على شيء من التعالي الثقيل، والجمود في التعبير. ويسأله عن دراسته، فيجيب باعتداد، بأنها عميقة، تحتاج لذكاء واجتهاد. وهنا تدخل عليهم ناهد، فيراها في ثوب قرمزي غاية في الجمال والرواء، ينسدل شعرها الناعم على جيدها وكتفيها. وتلتقي عيناهما فتبادره بابتسامة وضَّاءة:
- كل سنة وأنت طيب يا كمال.

فيجيب على الفور بامتنان:

- وأنتِ طيبة، وتنولين كل آمالك في السنة المقبلة.

إذن فهي لا تحمل ضدي من شيء، انزاح عن صدري العبء. ولا يلبث وائل أن يستأذن في الانصراف. ثم يتناهى لسمعه صوت عبد الوهاب صادحًا من الحاكي كالكروان، أدارته ناهد على أغنية: "بلاش تبوسني في عينيه دي البوسه في العين تفرق..". فيزهو ويتندر: ولكني لم أقبّلها في عينيها. ثم تسحره كلمات:

كل الستـــــات جمـلات   وجمالها ساحر فتان
عايشين في الكون أزهار   بنقطف منها ألـوان

ويخرج مع ناج وما فتئت الكلمات تتردد في سمعه، تمتزج بطيفها وطيف كل الجميلات. ويصلان إلى ميدان الإسماعيلية، فيقفان أمام مقهى «أسترا» ينتظران عبد الله وعصامًا، حيث تواعدوا على اللقاء في التاسعة. ويلقي بناظريه إلى الميدان الفسيح، يتلاحق فيه رتل السيارات، ويتطلع حوله يتأمل في إعجاب الأبنية والمحال، وتهف نسمات باردة تنعشه. ويصل عبدالله وعصام في متأنق الثياب، ويسيرون في شارع سليمان باشا حتى دار خيالة «مترو»، فيجدون عرضًا لرواية «الفرسان الثلاثة»، فيدخلونها، يمنون النفس بالشاعرية وخصب الخيال.

ويخرجون بعد العرض يشقون طريقهم بين جموع الفتيان بشارع سليمان. تبدو ليلة عيد حقًا، فالشباب يرفل في برقش الثياب، والوجوه تعلوها مخايل الابتهاج، ينطلقون في الضحك والفكاهة،

وكأنهم ينتهزون فرصة اللهو المتاحة، بعيدًا عن قضايا السياسة المجتاحة، يتطلعون للسنة الجديدة بآمال براقة، وازدهت المحال بالزينات والأوراق الملونة، وهياكل «بابا نويل» بزيه الأحمر ولحيته القطنية. ويمرون بمقهى الأمريكين، فيطلب منهم كمال الدخول ليقابل صديقيه سمير وعبد العظيم، اللذين ذكرا أنهما حاضران. فيشقون طريقهم بين المناضد، حتى يجدهما جالسيْن لصق الجدار، فيهشان له، فيقدم لهما أصدقاءه. فيقدِّم عبد العظيم بدوره صديقًا معهما: الأستاذ «عمرو السخطاوي»، فيتصافح الجميع، ثم يجلسون، فيحييهم عبد العظيم: يا «ميًّا مسا». ويجده كمال في غاية الأناقة والرواء، يرفل في حلة إنجليزية الصوف سوداء، ورباط عنق أزرق بخطوط حمراء، مصفف الشعر، منتفخ الصدر، في كامل انتعاشه وصفائه، ويبتدرهم تفكها:

- يتبين أننا سنمضي ليلة رأس السنة بلا كواعب الهنا (ويربت على كتف عمرو السخطاوي) ما قولك في هذا يا هذا؟

فينطلق عمرو يضحك بتشنج معربًا:

- أنت المسئول يا صاحب المدرسة النظرية، غير فالح ما عدا في الشعر والسجع.

فيقول سمير بابتسامته التهكمية:

- وماذا فعلت أنت يا صاحب المدرسة العملية؟!

فينفجر عبد العظيم يقهقه عاليًا بطريقته الخاصة، فيلفت نظر من حوله. ويضع كفه على منكب سمير، ويقول مشيرًا لعمرو:

- حتى « قيس» هجرته ليلاه في رأس سنته.

فيهز عمرو منكبيه ويعرب:
- هي لا تسهر خارج البيت.
فيسأله سمير مستدرجًا بابتسامته الأريبة المعسولة:
- يا «إكسلانس» ما آخر التطورات.. هل حققت انتصارات؟
- طوعتها وقابلتها.
- وهل تيسرت الخَلوات؟
- أجل، وطابت المغازلات.
- أنعم وأكرم بـ"دون جوان".
ويتأمل كمال عمرًا: وسيم الأسارير حادها، عيناه عسليتان واسعتان، دائمتي التحديق لمحدثيه في تطلع مشدوه، شعره غزير لامع متموج، ذو قامة طويلة ومنكبين عريضين.

ويسمعون الصفير والصياح يزداد في الشارع مع اقتراب الدقائق الأخيرة من العام. فيبين عبد العظيم أسفًا:
- أيُقدَّر لي أن أحتفل بالعام الجديد، وليس معي صحبة من الغيد؟
وإذا بالصفير وصيحات الفتية يتعالى في كل مكان استقبالاً لأولى دقائق العام. ويهنئهم عبد العظيم يمد يده يصافحهم. ويقترح سمير أن يعبر كل عن أمنيته في السنة الجديدة، ثم يردف:
- عن نفسي أتمنى أولاً النجاح، ثانيًا، انتصار القضايا الوطنية (ويبتسم بمكر متخاجل ويتمتم) ثالثًا، لا بأس ببعض الملذات.
فيبتدره عبد العظيم تفكهًا:
- أحقًا يهمك النجاح أولاً أم آخرًا؟

obeikandl.com

- لا تفضحنا إذن يا "إكسلانس"، إن وقتي تستغرقه الثقافة كما تعلم.
فتكون أمنيتهم السائدة انتصار القضايا الوطنية والرفعة لمصر. ثم يقول سمير:
- والآن فلنستمتع بأطايب «الكوشو» نخبًا لهذه الأماني.
فيهلل عبد العظيم امتداحًا:
- ما أكرمك يا سيد سمير، لك منا كل إعزاز وتقدير، لدعوتك لنا بلا تقتير.
- يا عزيزي العين بصيرة واليد قصيرة.
فيهتف عمرو وينتقدهم لائمًا:
- أتحتفلون بالعبِّ من الدهنيات، وكان الأولى الديوك والخرفان؟!
فيومئ عبد العظيم تأييدًا ويبين:
- كلامك حكم يا سيد عمرو، واعتمادنا على ما عندك من جودٍ وبِرٍّ.
وهنا يدخل المقهى بعض الشبان، فيبادرون عبد العظيم بالتحيات، ويداعبه أحدهم:
- أما زلت جالسًا هنا من السنة الماضية؟!
فيضحك عبد العظيم بتنغيم وترجيع حلقي، كعادته عندما يطرب لنكتة، ويجيبهم:
- وهل هناك ما هو أمتع من «الأمير- يكين» تمضي فيه سنتك.

وبعد أن يتناولوا «الكوشو» يقومون للسري في الشوارع. فيستأذن أصدقاء كمال عبد الله وناج وعصام في الرواح. وخلال المشي ينحني عمرو على كمال يسأله عن دراسته، فيذكرها له،

obeikandl.com

فيعلو قسماته ابتسامة باهتة وينغض رأسه ويعرب آسفًا:
- آه، أنت إذن من هواة الأدب والفلسفة.. دراسة عميقة ومشوقة، بيد أن بلدنا تشبعت بدارسيها، لقد أنفقتُ حياتي دارسًا لمعلقات الشعر و«بانت سعاد فقلبي اليوم متبول»، ثم القانون والنظريات الفقهية، ثم ماذا تجني بعد ذلك؟ ملاليم.. فتتقاضى بأي وظيفة ما {لا يُسمِنُ ولا يُغْني مِنْ جوع} وتتردد قبل أن تروح لمكان (ثم يستأنف بحرارة بصوت من الجوف ذي بحة) دخلت القسم الأدبي بعدما سحرتني معلقات زهير بن أبي سلمى، وعمر بن أبي ربيعة، والنابغة الذبياني، وغيرهم، والآن أنا طالب منتسب بكلية الحقوق بالسنة الثانية، وعيت لسوء اختياري بعد فوات الوقت، وكان الأولى الهندسة أو الطب، بلدنا يفتقر لمهندسين وأهل علم، لا قانونيين أو منشدي شعر.. لقد أضعنا عمرنا ننشد الشعر، ونلقي الخطب، ونمجد الماضي ونحلم، وكان ينبغي لنا أن نتعلم كيف نصنع السيارة، والقطار، والطائرة.
ويتململ كمال يتسلل إليه دبيب قلق وتوتر، في حين استأنف عمرو:
- منذ حصولي على التوجيهية أعمل كاتب محكمة، بمرتب، يكفي فقط لمتواضع السكن والمأكل، ونسوا أن المرء بحاجة أيضًا للعلاج والملبس والنزهة، بله تكوين أسرة (ويضع كفه على كتفه معبرًا برنة مخلصة) أقول هذا لتعيد النظر بقرارك، وأنت بالبداية، ولا تسع خلف هذين الحالمين (ويشير لعبد العظيم وسمير) لم ألقَ من ينصحني صغيرًا، فوالدي مزارع لم يتعلم، وأمي توفيت وأنا طفل.
- ولكن يمكنك بشيء من التفوق أن تعمل بالنيابة أو مجلس الدولة.

- ذلك غير سهل، ينبغي لك أن تتفوق، وحتى النيابة ليست كالعمل الحر أو الشركات، فتتجنب على الأقل التنقل بطول البلاد.

ويلفي الشوارع ما فتئت تغص بالفتيان، يتسكعون في أفواج، بعضهم يضع فوق رأسه «طرطورًا» مبرقشًا وينفخ في زمارة ورقية، موجات منهم تتلاحق في شارع سليمان وفؤاد الأول، تتدافع وتترنح، ومركبات الترام تحمل فتية يجلبون ويصفرون. ويسري هو وأصدقاؤه في شارع فؤاد الأول، فيرى الزينات في لقاته معلقة بعرض الشارع بين قصور الأزياء الشامخة، مثل "شيكوريل" و"شملا" و"عمر أفندي"، فيبدو له الشارع كعروس تزينت للزفاف، فيتمتم بإعجاب: ما أجمل مركز القاهرة الخلاب، وتحفة معماره الجذاب، يزهو بزخرف الهندسات. أما إلى الشرق فدنيا مباينة، تحيا في قاهرة المعز وصلاح الدين والمماليك، كل بقعة بالقاهرة تحوي حضارة وتاريخًا. ويسمع سميرًا يقول:

- نفسي تشتهي صحن « مكرونة بشمل».

فيجيبه عبد العظيم:

- يا سلام يا سيد سمير على اقتراحاتك النيّرة، فمن الداعي ذو النفس الخيّرة؟ لكن ما المطعم الفاتح هذه الساعة المتأخرة؟

- ربما مطعم «روي»، أما ذو النفس الخيّرة فهو حضرة الباشكاتب عمرو.

- آه، نسيت أن الموظفين قبضوا اليوم الرواتب، إذن السيد عمرو الباشكاتب، هو ملك الليلة المُلبّي لكل المطالب.

- ماذا تحسبونني؟ أنا محض كاتب فقير.

- العفو.. العفو يا سعادة الباشكاتب، رفعك الله لأعلى المراتب.

دنوتَ تواضعًا وعلوتَ مجدًا فشأنُكَ ارتفاعٌ وانخفاض

فيضحك عمرو مؤكدًا أنه صفر اليدين. فيردف عبدالعظيم:

- افرض أنك خرجت مع أميمة، أما كنت تجود عليها بكل نعمة؟

- أجود عليها بالهوى فقط.. ومع ذلك لا غضاضة، سأدعوكم .

ويصلون إلى مطعم «روي» فيجدونه يتأهب للإغلاق، فيخيب رجاؤهم، ويغرق عمرو في الضحك. ويتابعون سريهم حتى يصلوا إلى ميدان الإسماعيلية، فيفترق عبد العظيم وعمرو متخذيْن طريقهما بشارع «القاصد» تجاه « باب اللوق». بينما يتابع كمال وسمير سريهما بشارع قصر العيني. وفي الطريق يهنئ كمال نفسه على تعرفه بشخصية جديدة لا تخلو من جديد الأفكار، ذاك العمرو. ويتذكر ما قاله بصدق عن الدراسات العلمية، فيعاود تردده، وتتوزع نفسه في تفكن وحيرة، ولكنه سرعان ما يهز كتفيه ويهمس باستهانة: إني بالإصرار والصريمة سأحقق كل ما أريد.. لكن هل ُأُمنَّى في العام الجديد بحب ملهم سعيد؟

(١٢)

عَلِمَ بتفاقم الاشتباكات بين القوات البريطانية وبين الفدائيين والأهالي ورجال الشرطة، فوقعت عدة معارك بالسويس والتل الكبير. وفي الخامس والعشرين من يناير خرجت القوات البريطانية إلى شوارع الإسماعيلية بالدبابات «السنتريون» الثقيلة والمدرعات،

obeikandl.com

وحلَّقت طائراتهم فوق المدينة، ثم ذهب قائدهم إلى مبني المحافظة يطالب منذرًا بتسليم كل الفدائيين المختبئين بالمبنى، وتسليم الشرطة لأسلحتها، فجاء الرد بأنهم لن يسلموا إلا وهم جثث هامدة، فضربت القوات البريطانية مبنى المحافظة بالدبابات والمدرعات، وبدأت معركة بالغة العنف، نجم عنها سقوط ستة وخمسين شهيدًا من الشرطة، والعشرات من الأهالي بين قتيل وجريح. فإذا بالموقف ينفجر في اليوم التالي بالقاهرة، فتنشب المظاهرات العارمة الغاضبة، يشارك فيها رجال الشرطة أنفسهم، فيرى منذ الصباح بوادر الهيجان بشارع قصر العيني، ثم يرى سحب الدخان تتصاعد من وسط البلد، فيصعد إلى سطح عمارتهم ومعه ناج وأخوته، فيشاهدون الدخان يتفاقم وينتشر أديم السماء، يحيل زرقتها إلى سواد، مما ينم عن هول الحريق، فيجثم على صدره همٌّ ثقيل، إن ما خشيه قد وقع، وما هي إلا بداية ثورة لا تبقي ولا تذر.

وفي المساء تُعلَن الأحكام العرفية، وتُعطَل الدراسة في الجامعات ودور العلم، ويتقرر حظر التجول لأجل غير مُسمَّى، من الساعة السادسة مساءً حتى السادسة صباحًا. فيتساءل مستاءً: كيف يصبر الناس سجناء منازلهم كل ليلة؟!

وفي الصباح ييمم قلب القاهرة، فإذا به يُصدم لمرأى الصروح الشامخة التي بهرته منذ أيام برونقها وهندستها، قد تهاوت إلى هياكل كئيبة متفحمة، من فنادق عريقة، وقصور أزياء فاخرة، وغيرها من بديع الأبنية.. وا حسرتاه على جمال القاهرة، تحول إلى

خراب وحطام، أنَّى تنتصب هذه الأطلال ثانية؟!

وتنقضي الأيام الأولى في عسر، لصرف إحساسه بالحبس. ويحضر لزيارتهم عمه الطبيب محسن، فلا يسري حظر التجول على الأطباء، ومعه أخواه نجيب وسيف، فيهش لقدومهم، فمن خلال حوارهم يتكشف له حشد من الأمور الخافية، في السياسة والعالم والمجتمع. ويسمع محسنًا يقول لأخيه سيف متعجبًا:

- ما معنى أن يدعو الملك القادة وكبار الضباط إلى مائدته محتفلاً ليلة حريق القاهرة؟! أهي مكيدة مدبرة؟!

فيهز سيف رأسه في تعجب ولا يجيب. فيتساءل نجيب في احتداد:

- هل يُصدَّق أنه بعد غدر الأسلحة الفاسدة، لا يحرك أحد ساكنًا؟! لا أدري كيف يحتمل الضباط الخدمة تحت قيادة شرذمة من الخونة.

فيجيب سيف:

- إن الجيش بريء من هذا، ويشهد له بطولاته في «الفالوجة» وغيرها.

- ليت الجيش يقوم بانقلاب ويطهر البلد من الملك وأنصاره، إن الشعب كله ثائر، وما حريق القاهرة إلا مقدمة وإنذار.

ويعلق أحمد:

- سمعت أنه بتدبير من الشيوعيين.

ويمتد بهم حديث الأوضاع السياسية، حتى يسألهم كمال:

- وما رأيكم في الإخوان المسلمين؟

فيجيب عمه محسن:

- أرى أنهم طليعة من الشباب المؤمن المتحمس، وقد أظهروا شجاعة وبطولة في هجماتهم الفدائية ضد الإنجليز.

فيتصدى نجيب:

- هم يريدون أن يصلوا إلى الحكم، وأنا لا أؤيد أي حكم يقوم على سلطة دينية.

ويضيف أحمد:

- إذا اقتصر نشاطهم على نشر الدين وإرشاد الشباب، فنعم الرسالة، أما اتخاذ الدين وسيلة للوصول إلى الحكم، فهذا ما أرى خطورته.

فيدافع كمال في حرارة:

- ولكن الدين الإسلامي للحياة كلها، ولا يمكن عزله عن الحكم.

وهنا تحضر السيدة فاطمة من الداخل تدعوهم للعشاء.

(١٣)

عليه أن يجعل خروجه خلال النهار لتعذر التجول بعد السادسة. فينتهز الفرصة ليزور المتاحف والمعارض. ويتساءل كيف غابت عنه هذه الكنوز، معارض اللوحات الزيتية تكشف لي عن سحر عالم الفن لأول مرة، وما يوحي به من انفعالات ومشاعر راقية روعة، كل لوحة عالم بأسره، أقف أمامه أحاول أن أستكنه إيحاءاته، فأحيا في المعرض حياة لم أعهدها، تفصلني تمامًا عن الخارج. ومكتبة الموسيقى بميدان الإسماعيلية، متعة أخرى من النغم الرفيع، يعبر عن كون آخر له سحره الفريد. كم تتبلج لي

الحياة كل يوم عما هو شائق جديد.

وفي إحدى الأمسيات يزور صديقه سمير بالطابق الأسفل، فيرحب به بأسلوبه المعسول. ويجلسان بحجرة الاستقبال ذات الفرش الأوربي العريق. ويسأله سمير:

- كيف تلتذ بوقت فراغك الفسيح يا عزيزي؟

- بين القراءة والرسم، وزيارة المتاحف والمعارض.

- ونعم الفتي المثقف الراقي.. وماذا شاهدت يا «إكسلانس»؟

فيصف له المتاحف وما حوت من روائع. فيدلي سمير بآراء وانطباعات تنم عن سعة معرفة واطلاع. ثم ينتقل لموضوعه المحبب دائمًا:

- وعالم الحوريات الملذ يا عزيزي؟

- لا شيء.

- لا شيء على الإطلاق؟ ومتكرر الزيارات لعائلة عبد المقصود، ألم تؤّدِ إلى شيء؟

فتقطب أساريره وتمتقع، وقد ذكرته بما وقع. بينما يستطرد سمير:

- ناهد كالشهد، تحلتْ بكل أسلحة الإغراء.. أما فزتَ بالنزر اليسير؟

- لا داعي للكلام عنها، فلا أنظر إليها إلا كأخت.

- زارتنا أمس الأول إحدى قريباتي، وتمكنتُ من الاختلاء بها والرقص معها، وفي غمرة حالم الألحان اقتطفتُ قبلة من الثغر الرمان، فتمنعتْ رغم ما في العينين من ميَلان، وندت عنها صدات واحتجاجات.. ولكن يتعين أن تفهم يا عزيزي أن هذا التمنع ما هو

حاشا مرسوم دلال، ومخطط سياسة، سلني أنا في علم الغزل والغرام.. بالمناسبة يا عزيزي "الدوق"، هل تشتهي رؤية لذيذ فرنسي المجلات؟ تعال إلى غرفتي.

ويصطحبه خلال طرقة طويلة، حتى يدخلا غرفة واسعة تحوي سريرًا إلى جانب الحائط، يقابله أريكة كبيرة ومكتب خشبي بني اللون، بعثرت فوقه الكتب والأوراق والأقلام، وفي المواجهة نافذة كبيرة تطل على شارع قصر العيني، ويسود الغرفة طابع الفوضى، فعلى الأريكة والسرير انتثرت قصص ومجلات مصرية وفرنسية وأمريكية، يعجب بسعة أفقه وشمول اطلاعه، قادر على القراءة باللغة الإنجليزية والفرنسية، وعلى إلمام بشئون العالم السياسية والاقتصادية والفنية. وطفق يعرض عليه المجلات وما حوت من صور وأحداث، ويروي له بعض أخبار «هوليود». ثم يتوقف فجأة ويقترب من النافذة يتمتم:

- ها هي قد ظهرت.. يصوَّر لي أنها قدمت لتوها من الخارج.. أحيانًا يفتر ثغرها عن طيف ابتسامة عندما تراني، وأحيانًا تلوذ بجميل التغاضي.. شعرها اليوم في تسريحة مختلفة، كم هي غسَّانية خلابة، مثلها لا ينفع معها حاشا جميل الصبر والهوادة، وتمنية النفس بنظرة أو ابتسامة.. أمتِع بهن من فتيات مُلِذَّات!

- أراك تتابعها بنظراتك منذ شهور، ألم يحدث أي تقدم؟

- الصبر الجميل يا عزيزي الدوق.. بالصبر الجميل تنال كل ما تتوق، اليوم نظرة، وغدًا بسمة، ثم بعد شهر كلمة، ثم بعد شهرين جملة، ثم أخيرًا لقاء ومتعة.

ولا يلبث أن ينصرف من عنده وهو يتعجب من شخصيته الفريدة.

(١٤)

انتهى عمرو السخطاوي من غدائه ثم قيلولته، وصار توَّاقًا للقياها، لم يشاهدها منذ، تفاهما بالإشارات مرات خلل الشباك، بيد أنها أبت اللقاء. لا أدري لِمَ هذا التمنع والتسويف! وراح يقطع الغرفة ذهابًا ورواحًا متأججًا مهتاجًا. بدأ اهتمامه بها منذ انتقل إلى مسكنه هذا منذ نصف عام، شقة متواضعة، من غرفة وبهو، وحمام ومطبخ، بالدور الرابع والأخير، تنهكه طلوعًا، بإيجار ثلاثة جنيهات بالشهر، تطل على درب «السد» بحي السيدة زينب. فرش غرفته بسرير وصوان ملابس، والبهو بمائدة للاستذكار والأكل، وأربعة مقاعد، كلها مستعملة. جارته هذه: «أميمة» تعمل مدرسة ابتدائية، مرحة ضاحكة، متطلعة للحياة وطيبها، يستخف ظلها ويهوى لطفها، جسدها مدملك شهي، اكتمل وطاب للجني، فات شهران في إشارات وابتسامات وتحيات، ويضرب كفًا بكفٍ متضايقًا. فات ثلاثة أشهر وهو يراود، ويخطط ويداور، متعشمًا في نزهة فلمسة فقبلة! حتى لاقاها هذا الشهر ثلاث مرات قصيرة حريصة، على شواطئ النيل ومقاهيه البعيدة. لكن كلها بنات حواء، وأطوارها حيال الرجل تتوارثها عبر الأجيال. وفجأة يشاهدها بالشباك، فيغتبط ويقبل محييًا، فتجيبه ببسمة واسعة، فيدعوها لتنزل بإشارة آمرة، فتبسر مستفسرة، فيطمئنها بقصر المقابلة، فتومئ

obeikandl.com

رافضة، فيلوِّح بحركة متذمرة، فتشير له بالتمهل داخلة، فيعشِّم نفسه بنزهة مسعدة، ثم يسرح في ذكرياته مع فتاته الفائتة، ملَّ صحبتها المضجرة، لم يعدها بشيء، وستلقى غيره بلا شك.

ثم يتنبه لفوات نصف ساعة، فيتجه للشباك مستطلعها، فلا يجدها، فيجلس متأففًا ناظرها، حتى يشاهدها مشيرة له بأن خروجها مستعصٍ، فيلوِّح بيده محتجًا، ويشيح يزفر، فتشير ببنانها المضمومة ليصبر، ستحاول جديدًا عسى الأمر يتيسر، فأبوها على وشك أن يخرج، فيمد يده تسليمًا ويسكت. مدرّسة وفي الخامسة والعشرين وخروجها متعذر! أكل مرة أتجشم هذا اللأي لتخرج!

وتفوت نصف ساعة، فيزفر ضجِرًا، ويرتد يطوف بالغرفة. وفجأة تلوح له بالشباك واعدته باللقاء، فلينتظر إشارة منها. فيزفر الصعداء، مترقبًا صحبة الإسعاد. ثم راح يفكر فيما سيرتدي؟ وهل عنده الجزيل لينتقي! هما بدلتان، واحدة للمحكمة، رمادية بالية، والثانية للنزهة، زرقاء أقل في البِلى، ويزفر متذمرًا لعجزه عن شراء جديدة، للنزهات الأنثوية، أو حتى الذكرية، فيتلافى على الأقل تعليقات عبد العظيم اللاذعة. ويغرق في الضحك حينما يتذكر تعليقه على بدلته:

- أرى بدلتك هذه تتميز بصفتين قدسيتين: الوحدانية والقدم.

أخيرًا تلوِّح له أميمة لينزل، فترقص جوارحه مغتبطة، ويرتدي لتوه السترة، ملقيًا على المرآة نظرة، مرجلاً شعره بعجلة، ثم يهبط السلم متشوقًا، خارجًا للدرب مهرولاً، فيشاهدها سابقته ببضع

خطوات متهادية، فيمشي خلفها متريّثا، حتى تخرج من درب «السد» إلى ميدان السيدة زينب الرّحْب، فيظل متابعها عن كثب، يعاين ثوبها الأصفر وقدها المدملج، أعضاؤها قسيمة تُمتِع، تختال باعتداد وسؤدد، فيهنئ نفسه على ما غنم، ويشاهد شابين يصعدان فيها أعين الإعجاب، مطلقيْن عبارة إطراء، فيغمغم ساخطًا: وبمثل هذه الإطراءات يتعالين مغرورات. وتظل قدامه تتبختر، متجهة لشارع «الدواوين» حيث السكة الحديد، وهو خلفها لا يحيد. وبفواتها فوق القضبان يلحق بها كسابق المرات، ويعرب منفرج العينين باغتباط:

- مساء الخير.. ما كل هذه الحيل للخروج؟!

- تعلم تحكمات أبي.

- وكيف حال المدرسة؟

- متعبة، والأولاد في حاجة لمجهود كبير.

- هل يحبونك؟

- نعم، لأني أحبهم.

- أيتسع قلبك لحب الجميع؟

- من كان قلبه كبيرًا اتسع لحب الجميع.

فيضحك ضحكاته القصيرة ويعرب:

- ومع هذا أشاهده يغلق معي أبوابه بالأقفال!

فتتشاوس(١) إليه بدِلّ(٢) خاص تتميز به، وتقول:

---

(١) نظرت بمؤخر عينها تكبرًا وتغيظًا.

(٢) هيئة الشخص وسلوكه وشكله، الذي يدل عايه

- حتى يعرف أولاً من القادم.

- وهل عرفه؟

- ليس بعد.

ويوافيان شارع «المنيرة» فيعبرانه لشارع قصر العيني. فتسأله:

- والآن ماذا تريد قوله لي؟

فيبتسم يبحث حثيثًا عن جواب، ثم يعرب:

- أنا محتاج لدروس خصوصية.

فتفطن لتعابثه فتسأله متغافلة:

- دروس! في أي مادة؟

- في الحساب.

- أطلبتَ مقابلتي عاجلاً لتقول لي هذا؟!

- هذا شيء هام بالنسبة لي، ولا أجد غيرك يُلبّيه.

- أبعد أن تصل للجامعة تعجز عن الحساب؟!!

- لقد نسيته، وندرس الآن المواريث بالشريعة الإسلامية، وتقتضي حسابًا جزيلاً.

- لا أعطي دروسًا.. والمواريث ليس بها حسابات معقدة!

- أهكذا ترفضين المساعدة! وتقولين قلبك كبير؟

فتهز كتفيها ولا تنبس. فيمد يديه مبسوطتين ويعبر شاكيًا:

- قولي كيف ألقاكِ؟ أمرَّة كل شهر، وبعد لأي!

- دخول البيوت من غير أبوابها صعب.

فيبهت للقول، تلمح بالطلب الأزلي: العقد. ويصمت حينًا ثم يبرز له السؤال المهم: أين يأخذها، وكيف الخَلوة؟ فعنَّ له دار خيالة

«الأهلي»، أعلى «البلكون»، علاوة على رخصها تؤدي الغرض.
ويعرض عليها الفكرة، فتشهق معترضة:
- أتريد أن يرانا أحد من الجيران؟
- الحي كبير، من يعرفك فيه؟
- لا، أرجوك يا عمرو.. قد يتصادف.
ويتفكر: كل ما معه ستة وعشرون قرشًا، وترك عشرين بالدار خشية أن يفلس، ثم لا يجد ما يأكل. وتعرض الرواح لخيالة «مترو». فيتردد فسعرها مكلف، ثم يتذكر دمارها بحريق القاهرة، فيستريح مذكّرها بذلك. فتقترح الجلوس بأي مقهى مكاثب. فيتفكر: أقربها بفندق سميراميس، وهو أيضًا حُرق، لأول مرة يجد لحريق القاهرة فائدة له. ويتذكر مقهى «سان سوسي» بالجيزة، فيسألها مترجمًا اسمه:
- ما رأيكِ بالجلوس بمقهى «بلا قلق»؟
- أين هذا المقهى؟
- بالجيزة، ولا يوجد غيره قريب تلو حريق القاهرة.
فتوافق. فيفكر في سيارة أجرة، لكن أيبعثر القليل الذي معه؟! فليجلعها بالعودة، ولا غضاضة الحين بمركبة عامة. ويقودها للمحطة، وتأتي الحافلة فيطلع بها للدرجة الأولى مكرمها، فوحده وهو حضرة «الباشكاتب» لايقربها. ويستعيد ذكرى توسلات متقاضية، ترجوه تأجيل الجلسة حتى تُحضر المستند، الأمر الذي لا يملكه، تطلعت إليك متوسلة، بالفقر متعللة، وما دريتْ أني العبد الفقير ربما أفوقها مسغبة، بيد أنه المنصب يخلع المهابة، حيث

أجلس بالمحكمة بجانب القاضي، لكن لدى قبض المرتب الهزيل تنهار المكانة. صبرًا حتى أحصل على الشهادة، وربما أصير وكيل نيابة، وحينها أودع أيام المهانة. يلوح على أميمة شيء من التأفف، ربما لعدم أخذ سيارة أجرة. كان "بودّي"، لكن ليس بوسعي.

ويأتي ميدان الجيزة، فينزلان. ويتمنى أن يحوط خصرها بيده، بيد أنه يتحفظ. ويدخلان المقهى فينتقي منضدة منزوية. المقهى هادئ، ورواده قليلون، ويسلم جسده للمقعد مسترخيًا، يطالعها سعيدًا راضيًا. أخيرًا قدامه كالبدر، تلو أيام طويلة من الضنك، وجودها يضفي بهجة على الجو، كلما اجتمع بها نما تعلقه، وكلما تطلع إليها زاد تشوقه. ويحدِّق فيها مبتسمًا ويعرب:

- أميمة، إن المتاعب تهون حين أستمتع بالجلوس معكِ بجلسة كهذه، فتُنسيني المنغصات والهموم.

وتضحك سعيدة، كاشفة عن لآلئ نضيدة، تضفي عليها ملاحة جديدة. وتعرب:

- ربما تكون جلسة ممتعة، لكن قد يعقبها مشاكل مُنكّدة.

فيجيب بصوتٍ شاكٍ محموم وعينين محدقتين:

- لا أفهم لِمَ هذه التعقيدات المصاحبة لكل لقاء؟! إن الطبيعي أن نخرج وننبسط، والحب عاطفة جميلة نبيلة.. ألا توافقينني؟

- نعم، ولكنّ كثيرين لن يوافقوك.. الشبان يحبون أن يخرجوا مع الفتاة، ولكن بسبب هذا يترفعون عن الزواج بها.

- هذه نتيجة المبادئ المزدوجة التي نحياها، نؤمن بشيء ونتصرف بشيء مخالف.. لا، أنا لست منهم.

فتطلع إليه تستشف حقيقة شعوره، ثم تبتسم متمتمة بصوت عامر بدِلّ جاذب:

- لهذا خرجتُ معك لما توسمته فيك من صدق، يا حضرة المحامي المُحِق.

فيبتسم ويمسك براحتها الغضة المسترخية على المنضدة معربًا:

- وسأكون عند حسن ظنك، فقط أحصل على الشهادة.

ولم يبغ التصريح بتعهد يربطه من الحين، حتى يدري عنها المزيد.

وتلو ما يناهز الساعة والنصف تعرب عن بغيتها في الرواح، وتنهض مصممة، فيقوم بنفس كارهة. ولا يجد مندوحة عن سيارة أجرة هذه المرة، تقِلّها كما تبغي بعجلة. ويراقب العداد طوال الطريق، خاشيًا أن يلتهم كل ما معه، أو حتى يتجاوزه، وحينئذٍ الطامة الكبرى. ويخاطبها بوعي غائب حتى تنحني السيارة من شارع قصر العيني إلى شارع المبتديان، وقد وصل العداد إلى أحد عشر قرشًا. لا داعي للجزع، ما فضل من الطريق لن يتعدى الأربعة عشر قرشًا التي معك. ولدى نهاية الشارع تطلب من السائق التوقف، وينزلان شاعرًا بالراحة، بعد أن دفع اثني عشر قرشًا، وتلو بضع خطوات تتوقف للافتراق. فيتعجب:

- ولكنا لم ننفك بعيديْن عن الدار!

- لا، أرجوك يا عمرو، أخشى أن يرانا أحد من أهل الحي.

- ومتي نتقابل ثانية؟

- سأخبرك من الشباك.

وتمد يدها مصافحته شاكرة له النزهة، وتبتعد بخطوات حثيثة، بينما هو واقف يرمقها بنفس أسيفة.. تدبر وتأخذ معها الغبطة، تاركة الوطر في أزمة، ما أشد ما يبتغيها بلهفة. ويمشي خلفها منجذبًا بقوة. إلى متى يظل هواه لها نظريًا؟ ينبغي له أن يكون عمليًا. الساعة لم تنفك التاسعة، والحي يسهر للصبح، يعج بالرواد، والأغاني والمركبات، لا يعرف النوم، وتقول تأخر الوقت، وقد يراني شخص! من يدري بها أو يهتم! لو فقط اقتنص ضمة وقبلة، تروي المشاعر الظمأى، زادًا يقيم أود الأيام العطشى، فمتى يلقاها مرة أخرى؟ ليته وعدها بالزواج يطمئنها، أليس صادق النية، لا غضاضة بخطبة، تُفَض حين الخيبة، لكن كما تضنيني للقاء سأجشمها قلق الانتظار، ها هي تنحني بشارع «السد». فتبرق له نزوة تحُض ملحة، فيخف وراءها، حتى يصير على بعد مترين منها. الدرب بدأ يهجع، ولا أحد عدا عجوز يزحف، وشبابيك الدور مغلقة، ولا عين متلصصة، ها هي تغيِّبُها البوابة. فيمرق توًا إثرها، فيلقاها على درجات السلم بالردهة خلال الظلمة، فيهمس باسمها، فتلتفت عاجلاً خلفها، فتشهق وعلامات الجزع على وجهها:

- ماذا أتى بك؟!

- لا تخافي.. أبغي قول كلمتين نسيتهما، تعالي..

ويراها مترددة واجلة، فيطلع يمسك بيدها، جاذبها برفق لتنزل، فتهمس متضايقة:

- وإذا رآنا أحد من السكان الآن! ستكون فضيحة.

- لا فضيحة ولا شيء.. لن يرانا أحد.

فتهبط مترددة، فيسحبها تحت السلم لفجوة مظلمة. يدري أن بالشقة الأرضية زوجين مسنين، نادرًا ما يغادرانها، وفي الغالب نائمان الآونة. ويهمس لها بعاطفة:

- أبغي الإعراب لك عن شعوري.. عن إعزازي وحبي..

فتهمس متأففة:

- ألم تستطع أن تؤجل هذا التصريح لوقت آخر؟؟

- لا، لا وقت لإضاعته، وخير البر عاجله، وقد لا أشاهدكِ لمدة طويلة.. أميمة أنا أهواكِ.. وأبتغيكِ..

ويحتويها بين يديه، ضامًا ثمار جسدها الرطيبة، فيثلج صدره وتغمره راحة وسكينة، ترطب أحاسيسه الحميمة، فينهال عليها بقبلة لاظية، تستمر هنية بلا مقاومة، صدرها يعلو ويهبط وأنفاسها لافحة، فيتشجع ويرتوي من ثغرها ناهلاً، فتحاول الارتداد متملصة، فيضطر ليطلقها آسفًا، فتتجه للسلم عاجلاً، فيدعوها مستمهلاً، لكنها تستمر طالعة، فيناديها بنبرة مستعطفة، فتودعه ببسمة مغرية، فيلحق بها ممسكا بقبضة متشبثة، محتويها بضمة ضاغطة، مطبقًا بقبلة عاصرة، حتى تتمكن من الخلاص لاهثة، وتصعد على السلم مسرعة.

(١٥)

يجلس كمال وزميله عبد الله بعد انتهاء الدراسة في حلقة من أُسَر الإخوان المسلمين على رمال الحوش بالمدرسة، بدعوة من زميل

obeikandl.com

لهما، يدنون من اثني عشر طالبًا، يتوسطهم شاب يقود دفة الحديث، هو حسن عبد الكريم الذي استمع إلى خُطَبه بفناء المدرسة، الذي يطلب من الجالسين بأسارير مشرقة أن يقدّم كلٌّ نفسه وفصله، ويجيء دوره فيذكر اسمه وفصله، يتلوه عبد الله. فيقول لهما حسن:

- هي المرة الأولى التي تشرفانا بالحضور يا أخ كمال، وأخ عبدالله، أليس كذلك؟ أهلاً بكما ومرحبًا، يسعدنا حضوركما، إننا نجتمع أيام السبت والاثنين والأربعاء عقب الدراسة، نتباحث في أمور ديننا ودنيانا، فنحن أسرة واحدة متعاونة، وما يمس أحدنا يمس الآخرين.

ثم يلتفت يسأل طالبًا عن تطور العلاقة بينه وبين مدرسه، فيجيب:

- لا أعبأ به، فمثله لا يستحق إلا التجاهل والإهمال.

- لا يا أخ مصطفى، هذه ليست بالسياسة المثلى، هو قبل كل شيء معلمك، ولا بد أن نتصف بالتسامح وسعة الصدر، ولا تنسوا قوله عليه الصلاة والسلام: إن المسلم من سلم الناس من يده ولسانه.

ثم يلتفت لكمال وعبد الله، ويعبر بنظرة متسامحة صافية:

- الأخ مصطفى حامي الطبع قليلاً، لكنه طيب القلب لا يؤذي أحدًا.

وينبري أحد الجالسين يشكو:

- إن مدرسنا أسوأ، فهو شيوعي، ويتعمد التعريض بنا، لمجرد أننا من الإخوان المسلمين الذين لا يحبهم.

فتعلو محيا حسن آيات الأسف، ويعبر برصانة:

- لا بأس، لا نتوقع أن يحبنا كل الناس، وهناك دوافع مختلفة تدفع البعض لكراهيتنا، ولا تنسوا أن السياسة المثلى حيال هذا هي التسامح، سنكسب الناس باللين والحلم، وليس بالمشاجرة والهجوم..

obeikandl.com

والآن فلنشرح السورة الكريمة.
ويتناول المصحف من جانبه، ويعتدل في جلسته المتربعة، ويتخذ محياه سيماء الجد والخشوع، ثم أنشأ يتلو سورة العاديات.

حتى ينتهي من تفسيره للسورة فيطرق ويتمتم بخشوع: صدق الله العظيم، اللهم غفرانك وهدايتك. ثم يرفع رأسه في بطء، وتتطلق أساريره المقطبة، تنير محياه ابتسامة مشرقة، ثم يقول:

- الله كريم رحيم، لا يريد غير نفعنا وسعادتنا، في الدنيا والآخرة. لا يرهقنا بفروض فوق طاقتنا، ويريد لنا أن نكون إخوة متحابين متعاونين، أمناء غيورين، يشد بعضنا أزر بعض، ونعمل لما فيه خيرنا وخير أمتنا.

فيعبِّر أحد الجالسين في غضب:

- الله لن يأخذ بيدنا إلا إذا نهضنا وبدأنا العمل وحققنا الأمانة الملقاة على عاتقنا.

- هذا صحيح، «إنَّ الله لا يُغيِّرُ ما بقوْمٍ حتى يُغيِّروا ما بأنفسِهِم»، فلا ننام ونتراخى ثم ندعو الله أن ينصرنا ويعزنا، بل على كل منا واجب ورسالة، نحو نفسه وأهله ووطنه. فليس المطلوب منا العبادات فقط، بل الخلق وحسن المعاملة.

ويتصدى أحد الجالسين في احتداد:

- لو كان عندنا إيمان قوي لما وصل حال أمتنا إلى ما هي عليه!

فيهز حسن رأسه بتأييد، مقطبًا بأسف، ثم يعبر بصوت رصين:

- نعم، لهذا يقع على عاتقنا واجب الاجتهاد والإخلاص في حملة

التوعية والإنهاض، فوطننا مثقل بتبعات جسام، والأعداء يتربصون بنا، ولن ينقذنا سوى العودة لديننا واسترجاع مآثر الإسلام.
انطبعت الكلمات في نفسه، تفجر أسمى المعاني، وينبلج لبصيرته عالم قدسي نوراني، يحوِّل وجوده إلى معنى جديد راق.

ويتأهبون للانصراف، يتبادلون عبارات الود والأخبار، خارجين من المدرسة. ويسير كمال إلى جانب عبد الله يتأمل مطرقًا، ثم يجد حسنًا يسير بنفس الاتجاه، ثم يدنو منهما سائلاً بلطف:
- أين يسكن الأخ كمال؟
فيذكر مشيرًا إلى عمارته القريبة. فيقول حسن بنبرة استحسان:
- هذا جيد، فأنت قريب من المدرسة.. أما أنا فأسكن في «المنيل»، وأين يسكن الأخ عبد الله؟
- في شارع «خيرت».
- هذا أيضًا ليس ببعيد.. سنقوم برحلة إن شاء الله، لمعسكر بالهرم، أمسية الخميس حتى عصر الجمعة، فأرجو أن تسعدانا بحضوركما، ستكون بإذن الله رحلة طيبة مفيدة.
فيبديان موافقتهما، ثم يشد على يديهما ويفترقون.

(١٦)

دُعيَ كمال وناج وإخوته لحضور حفل عيد ميلاد نجوى العيسوي أخت جارهم وائل. وبدخوله شقتهم يلفي الأهل والأصدقاء منتشرين في البهو وحجرة الاستقبال، في غمرة من الحديث والضحك

obeikandl.com

والمجاملات، والبهو ازدان بالأوراق الملونة تلمع تحت الأضواء المنتشرة، فيفيض المكان بالبشر والبهجة. ويلفي أخوة ناج ومعهم ناهد، فيعلق بها نظره هنيهة. لم أرها منذ ليلة رأس السنة، تتألق في ثوب أحمر جميل، يتسع من أسفل ويضيق عند الخاصرة، أما الصدر فناهد على غير ما ألف، والشعر الحرير انسدل على كتفيها، في ريعان تفتحها ورونقها، بل أنضج من أترابها. وتتقابل عيناهما، فيرتبك، ثم يرى منها بسمة ترحيب حلوة، فيقابلها بأوسع منها. وهنا تعبر أمامه نجوى عروس الليلة، فتثني له رأسها مبتسمة، فيبادرها:

- كل سنة وأنتِ طيبة يا نجوى.

- شكرًا، وأنت طيب يا كمال.. كيف حالك؟

- الحمد لله شكرًا.

وتستمر في طريقها، فينطبع في ذهنه خلال لمحة خاطفة، قوام طويل رشيق، في ثوب أزرق جميل، وأسارير دقيقة رقيقة، وشعر بني مصفف في رونق. ما هذا المثال.. أي جمال متعال! أراها للمرة الأولى منذ استوت ونضجت في اكتمال، وكانت منذ قريب في عداد الأطفال! لا تثير الاهتمام، الآن في ربيعها السادس عشر، تقف الآن بين فتاتين ترن ضحكاتها في نغم.

ويجيء وائل فيصافحه وينصرف. ثم يحضر ناج فيقف يحادثه، ثم تمر والدة وائل، بدينة طويلة، مرحة منطلقة، ينم وجهها عن جمال أصيل. فتحييه:

- أهلاً كمال، كيف حالك؟ وكيف حال والدتك؟ أنا مقصرة في

obeikandi.com

زيارتها، ولكن المشاغل كثيرة.. أهلاً بك ومرحبًا.

ثم بعد قليل تدعوهم للمائدة، فيتجهون جميعًا لحجرة الطعام، فيلفي سماطًا طويلاً غصَّ بأطايب الحلوى والفطائر والمملحات. وتقف نجوى على رأسه، كزنبقة تتفتح في رواء. وأنشأ الجميع يرددون أغنية عيد الميلاد، ثم تنثني تنفخ مطفئة شموع الكعكة الست عشرة، فيدوي التصفيق وعبارات التهنئة. بينما ينشغل هو باصطفاء الحلوى، ويتخيل مقدار سعادة وحبور أصدقائه: عبد العظيم، وسمير، وعمرو، إذا رأوا سماطًا كهذا، ساعتئذٍ لا سلام ولا كلام، إنما ازدراد والتهام.

وبعد الأكل يقف بركن يحتسي الشاي، فيطرق مسامعه صوت تغريدات أنثوية على مقربة، فيلتفت فيجدها ناهد تحادث نجوى منهمكة، وتقول لها ضاحكة:

ـ أرجو أن نحتفل قريبًا بخطبتك.

ـ لا، ما زال الوقت مبكرًا، على الأقل ليس قبل انتهائي من دراستي الجامعية.

فتتأوه ناهد وتقول ضاحكة:

ـ يا لها من سنين طويلة، دراسة وامتحانات!

وتحوِّل ناظريها إلى أعلى بأسارير نافدة الصبر، ثم تهمس لها:

ـ أما أنا فأود أن تنقذني الخطبة من دراستي الجامعية.

وتطلق ضحكة صادحة ملقية برأسها إلى الوراء. فأنشأ يترسم الفتاتين بطرف خفي: تبدوان على طرفي نقيض، فبينما نجوى ذات

أسارير ملائكية هادئة، تتسم ناهد بسمات متوثبة ناغشة، وبينما تتميز نجوى بعينين عسليتين، عميقتان متأملتان، تملك ناهد عينين سوداوين، ضاحكتان متألقتان، وأنف نجوى أشم مرتفع، وأنف ناهد مائل منحدر، وشفتا نجوى دقيقتان رقيقتان، وشفتا ناهد نديتان ممتلئتان، السفلى منهما متدلية، للقبل داعية. والعودان أيضًا متضادان، فنجوى تميل للنحافة في رشاقة، أما ناهد فتميل للامتلاءة الفتانة.. ويتحير! أيهما الفتاة المثال؟ ويحس بضيق وقلق غامض، يفيق منه على صوت ناهد، تقول له تداعب:

- أهلاً بحضرة وكيل النيابة.

فيفاجأ، يزدهيه قولها، ويبتسم يجيبها:

- هذا مابرح أمامه طريق طويل.. وأنتِ.. ماذا تأملين من المستقبل؟

فتقلب شفتيها وتقول بدلال:

- وهل يجب أن أستمر في الدراسة وأعمل، وأكون سيدة بيت أيضا؟!

- ولِمَ لا ؟

- هذا صعب.. وهل تجد كثيرًا من الرجال يقبلون ذلك؟

- أنا أرضى.

فتضحك في سعادة وتقول بحماسة:

- إذن في هذه الحالة لا بأس من الدراسة والعمل.

ويفطن بأسف لخطئه، لقد تورط بقوله، الذي ستخاله عرضًا منه، فيحاول إصلاحه:

- أقصد أن الجيل الجديد لا يهمه أن تعمل المرأة.. وهناك دراسات

تليق بالمرأة حتى ولو لم تعمل، مثل الدراسات الأدبية، فهي تنير ذهنها وتؤدبها.

فتنطلق بضحكة رنانة، تنفذ في بنيانه، ثم تبادره:

- تود أن تقول أني غير مؤدبة.. الله يسامحك.

فيضحك. وهنا تقبل نجوى، فتسألهما عما يضحكهما، فتخبرها ناهد. ويحضر في هذه اللحظة باسل، بوجهه المشرق، وجسمه الممشوق، وقد سمع ما ذكرته ناهد، فيعقب معبرًا بكفيه القويتين:

- إن الرجل منا بحاجة لامرأة شاعرية حسناء، تلهمه الشجاعة للقتال والاستبسال.

فتضحك نجوى وتعبر برنة تعظيم وإكبار:

- آه، كفرسان العصور الوسطى.. مثل «سيرانو دي برجراك».

- نعم، ذلك كان عصر الشاعرية والخيال.

ويتنبه كمال لناهد تسأله هل احتفل بعيد ميلاده، فيجيبها أنه احتفل في البيت مع جمع من الأصدقاء، فتحدثه عن حفلة عيد ميلاد صديقة حضرتها منذ أيام، ثم عن أحد الأفلام الذي أعجبها. فيمنحها أذنًا غير مصغية، بينما عيناه على نجوى متابعة. فيراها وباسل ينفجران في الضحك، فتعتريه الغيرة. ولا تلبث نجوى أن تدعوهم لسماع بعض الأغاني الأمريكية من الحاكي بحجرة ملحقة بالبهو، فتتقدمهم، فيتبعها هو وباسل وناهد، فتدير الحاكي على أغنية شاعرية. ويلاحظها سابحة مع الأنغام، تغشاها لمعة تأثر وهيمان. ماذا يا ترى يطويه هذا المحيا الملائكي من أحلام؟ أتمنى أن

أحادثها وأستشف خِملتها[1]. ويسترعي انتباهه أناملها الرقيقة، وهي تضع أسطوانة ثانية، فيتذكر أنامل ناهد في نفس الموقف. أنامل ناهد ريانة وردية، أما أنامل نجوى فنحيلة شمعية، تعبر عن رقة وشفافية، وأنا أميل للرقة والشفافية. ويسألها عن اسم المغني، فتجيب: «نات كنج كول»، فيمتدح صوته، ثم يسألها هل تحب الموسيقى السيمفونية، فتومض عيناها وتهتف في حماس:

ـ آه، نعم بالتأكيد.. هناك مقطوعات رائعة أحبها كثيرًا.

وفي هذه اللحظة تجيء ناهد تقول متحمسة إنها ستطلب من ناجٍ أن يعزف لهم على العود، وتمسك بيد نجوى يتجهان إليه وهو يحادث شابًا، فتتنحى به جانبًا وتدعوه ليعزف لهم بشقتهم، فيوافق. وينضم إليهم باسل ووائل وصديقتان لنجوى.

ويجلسون بغرفة ناج، هو إلى جانب نجوى تليها ناهد ثم وائل، وفي مواجهته ناج والفتاتان وباسل. ويحتضن ناج العود ضابطًا أوتاره، ثم سائلاً عما ينشدون سماعه، فتطلب نجوى أن يعزف ما يجيده، بينما تصيح ناهد في حماس طالبة «أغنية الربيع»، فيهز رأسه موافقا، ثم أنشأ يترنم بصوت خافت، ضاربا الأوتار بانفعال هائم. فتعتري كمال نشوة روحانية ذهنية، كما هي حسية جثمانية، لجلوسه بجوار نجوى وناهد، فيمتزج تحليق الخيال الحالم، بنشوة الإحساس الناغش. وعند الانتهاء تدوي أكفهم بالتصفيق ويطلبون

---

(١) باطنها وسريرتها.

المزيد. فيلتفت ناج إلى نجوى طالبًا منها أن تختار، فتهمس برقة: أحب «همسة حائرة»، هل يمكنك عزفها؟ فيومئ بالإيجاب، ثم يعزف مترنمًا:

يا منية النفس ما نفسي بناجية   وقد عصفت بها نأيا وهجرانا

ويحوط المكان شجو شاعري، يغشى الوجوه والعيون، فيشحذ حواسه لاستقبال كل ما تمنحه اللحظة من متعة، وتمن به العينان الملائكيتان من نشوة. هذه الألحان والكلمات تكشف لي عن سحر جديد، لم أدركه من قبل! ثم يهيم عند سماعه:

هل تذكرين بشط النيل مجلسنا   نشكو هوانا فنفنى في شكاوانا

الآن تتجسم هذه الألحان والمعاني وهو بحضرة الأنوثة والجمال الراقي. إن المرأة تخلع سحرها على الحياة، وأعتقد أن نجوى خليقة بالحب، وسيصبح سعيدًا بحبها القلب.

وتنتهي الأغنية، فيبادرون يصفقون ويمتدحون، ثم يختارون أغنية «عندما يأتي المساء ونجوم الليل تنثر» لعبدالوهاب، فيشترط عليهم ناج مشاركته في الغناء، فيوافقون. فيبدأ ويصاحبونه بالترنم:

هل ترى يا نجم أحظى   منك بالعطف عليّ

سأغنـــي وحبيبـــــي   والمنى بين يـــديّ

ويتأمل: إذا كنت سعيدًا لصرف اجتماعي بنجوى، فما الأمر إذا تعرفت على عناقها والقبلة؟! لا ريْب أني سأبلغ سعادة الذروة!

وتفرغ الأغنية فينصرفون للسمر، ثم تتاح الفرصة ليسألها عن هواياتها، فتجيب بأنها القراءة والموسيقى، والتطريز، فيسألها أي

obeikandl.com

نوع من القراءة تفضِّل، فتفصح:
- الروايات والمسرحيات العالمية، كما أقرأ لتوفيق الحكيم، وطه حسين والمنفلوطي، ومن الأعمال الأجنبية «أندريه جيد» و«جان جاك روسو» وغيرهم.
يعلم أنها طالبة في مدرسة « مير دي ديو» بجاردن سيتي، فيسألها:
- هل قرأتِ هذه الأعمال باللغة الفرنسية؟
- نعم، كما أُقوِّي نفسي في اللغة الإنجليزية بقراءة الروايات.
فينبهر لثقافتها وسعة اطلاعها، ويرنو إليها، يعبر بعينين حالمتين:
- العالم الروائي لا حدود له.. من خلاله ندرك واقعنا، وبواسطته يتلون حاضرنا.
فتتفرس فيه بابتسامة متأملة. وهنا يحضر والدا ناج، فينفض حفلهم.

(١٧)

أسلم جسمه للرقاد، ولكن فكره وخياله الوثاب أبى الاستسلام. إحساس جديد يغشاني، هذه النجوى أطارت النوم من عيني، ما سماتها، ما خِملتها؟ هل هي فتاتي المثلى؟ ألا تتكامل شكلاً وفحوى؟ جسمًا وعقلاً؟ ما أعظم ثقافتها، تجيد لغات ثلاثة، وتهوى الموسيقى الرفيعة.. هل أطلقَتْ من قلبي الشرارة، لتنير حياتي وتمنحني السعادة؟ هي لاريب ملهمة، العينان معبرتان، واللسان طلق فصيح، والمحيا ملائكي كريم، والحركات والإيماءات بقدر ووقار. أما الجسم فرقيق رشيق، وعلى الفور يتراءى له جسم ناهد، فيشعر

بافتتان شديد.. لكن.. لكني أفضل المرأة التي لا تطغى بالإغراء، بل تلهم الروحانية والنقاء، فتكون مصدر إلهام، لا منبع اشتهاء. ويهمس في سورة انتشاء: سأمنح نفسي لمباهج الروح وسبل الارتقاء، ولو على حساب رغبات الجسد والملذات.. ليتني أعلم رأيها في شخصي، هل يقدِّر لها حبي؟ يا ترى ما سمات فتى أحلامها! هل أطمع أن أكونه؟ أم يكون باسل؟ ويلبث نهبًا للأفكار والهواجس، حتى يغشاه أخيرًا النعاس الحالم.

(١٨)

ويجيء يوم الخميس موعد رحلة الإخوان المسلمين إلى هضبة الأهرام، فيذهب مع عبد الله وعصام لمقابلة حسن ورفاقه أمام المدرسة عصرًا في الرابعة، أما ناج فيعتذر لذهابه لحفلة موسيقية، وقد انضم هو أيضًا لأُسَر الإخوان. ويلفون حسنًا واقفًا عند بوابة المدرسة مع زمرة من الشبان، وعندما يراهم يصافحهم مرحبًا. ويقفون آنًا آخر يتقاطر خلاله عدد من الطلاب، ثم يتحركون يمة شارع قصر العيني فيعتلون الترام. وتجري عجلاته تصدر صليلها المعهود، تتنقل من محطة إلى محطة، خلال شارع قصر العيني، ثم شارع عمرو بن العاص، ثم جزيرة الروضة، ثم تعبر جسر عباس لميدان الجيزة فشارع الهرم. فيبدو له متميزًا برحابته وهدوئه، وأناقة مساكنه وقصوره، تحوطه الحقول وأشجار النخيل على

مرمي النظر، وقد مالت الشمس بالأفق مودعة، وتهب نسمات عليلة منعشة، حتى يصلوا أخيرًا لنهاية خط الترام، فينزلوا ويصعدوا هضبة الأهرام على الأقدام، وعلى الفور يقتحم نظره صروح الأهرامات الثلاثة الهائلة، تخترق أديم السماء صوب الذرا شامخة. فيتفرس فيها بنظرة انبهار متعجبة، لا يذكر أن رآها منذ الصبا، يا لهول البنيان، وجبروت البناة! أمجد بها من حضارة، وأفخر به من تراث! آية حضارتنا الخالدة، ومعرفتنا المتفوقة.

ويتنبه لصوت عبد الله يستحثه ليلحقوا بالرفاق، يشير إلى معسكر على مرمى البصر، فيهمس باطنه: وهذه حضارة أخرى مجيدة: الإسلام وتراثه! أنا إذن سليل المجدين، كريم العنصرين. ويسمع حسنًا يعتبر بإكبار وعظة:

- إذا استطاع الإنسان أن يخلق مثل هذه الأهرامات، فما بالكم بالله جل جلاله، خالق من خلقها، { إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ }.

الرمال الصفراء تحت قدمي، والسماء الزرقاء فوق رأسي، ونسيم آتٍ عبر أزمنة غابرة، يحمل عطر ممالك آفلة، ذات حضارات هائلة، هزَّت الدنيا بصولاتها وجولاتها، ثم هجعت تحت الثرى، وباتت ذكرى للورى، { وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ }.

ويتقدم منهم الأخ فارس بقامته الفارعة، وبنيانه الصلب، يهش مرحبا، ويقودهم إلى المعسكر. ويقترب شاب يسألهم هل لأحدهم رغبة في ركوب الخيل، فتلاقي الفكرة ترحيبًا لديه، ويخفق قلبه

حماسة، فيذهب إلى مربط الخيل، ولا يثنيه غلو الأجر، الذي بلغ خمسة وعشرين قرشًا، فيمتطي صهوة جواد مطهم، يتوثب حيوية وقوة، هي المرة الأولى التي يمتطي حصانًا. لم لا يكون فارسًا ومغوارًا؟ ويحض الفرس على الركض، يحرص على موازنة صلبه مع الوثب، فلا ينحرف يمنة أو يسرة أو إلى الخلف. ويتزايد ركض الفرس، فلا يمكنه موازنة جسمه بيسر، ويباطنه الخوف، لكن حبوره وحماسه يستخف، هو الخوف من صنع الفرد، ليته يطير بالصحراء كالسهم! فلأثق بنفسي، فلا شيء يتعذر على الإنسان، إذا تسلح بالإرادة والإصرار.

ويرتل الآيات عن الخيل: { وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً، فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً، فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً، فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً، فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً...} أيتها الصحراء المترامية، والسماء الصافية، وفلول الشفق الشاجية، يا من شهدن ساحات الفخار، وباذخ الحضارات، أيتها الأرض الطيبة، أرض الكنانة الغالية، تحية من قلب امتلأ بعشقك، وشب على فيض كرمك، وتلقَّى عميق علمك، أعاهدك أمام الله أن أظل وفيًا لعهدك، مجاهدًا في سبيل مجدك، عاملاً على سمو شأنك.

ويجتمع الإخوان أمام مخيمهم لصلاة المغرب، على الحصائر المنبسطة على الرمال، فينتظمون صفوفًا متراصة، بين قيامٍ وركوعٍ وسجود، في تبتل وخشوع وقنوت، حركاتهم منتظمة متحاذية، مترابطة متآنية، فيكون للموقف صدىً عميق في نفسه، خلال سكون الصحراء والشفق الوردي بالسماء، فيشعر أن الله

معهم وبينهم، يراقب حركاتهم وسكناتهم، وأن الحواجز قد أزيلت بين الأرض والسماء، ولم يعد سوى ملكوت الرحمن، وحضرته المهيبة، تهيمن على المخلوقات.

وبعد الصلاة يجلسون في حلقات لشرح سور من القرآن والعظات، وبعد الانتهاء يقول عصام لكمال وعبد الله:

- قربت الامتحانات، وعلينا من الآن ألا نضيِّع دقيقة من وقتنا إذا أردنا الالتحاق بكلية الطب.

فيقول عبد الله يهز رأسه هزة الواثق المطمئن:

- إن شاء الله.. ربنا لو شاء لنا كلية الطب فسندخلها.

ويفصح كمال وهو يتفرس بأديم السماء المرصعة بالنجوم في رواء:

- لو توجت آمالنا بخروج الإنجليز.. كلما فكرت في تاريخ مصر شعرت بالأسى العميق، متى نرتقي من جديد؟!

فيردف عبد الله بوثوق:

- عودتنا للرفعة والمجد غدت قريبة بإذن الله.. فقط لو تحالف الإخوان مع الوفد لتحقق للأمة السعد.

- أعتقد أن نجاة مصر ورفعتها ستتحقق بالعودة إلى الإسلام الحق.

- عندك حق، وهل بعد كتاب الله شيء؟! هو الدستور الأعلى.

وهنا يحضر حسن وطه وفارس ونفر من الإخوان، ويحييهم حسن:

- السلام عليكم إخوة الإسلام.. ليلة جميلة، أليس كذلك؟

فيبدون موافقتهم. ويطوف بناظريه في السماء، ثم يفصح والنور يكسو محياه:

- أينما نظرنا في ملكوت الله رأينا آياتٍ مبدعاتٍ معجزات.. انظروا إلى كل هذه النجوم، كم من مسافاتٍ هائلة تفصلنا عنها، مسافاتٍ تصل إلى آلاف السنين.. انتشرت حولها الكواكب، كل يسبح في فلكٍ محكمٍ مرسوم.

ويعقب طه ذو الوجه الوقور، والعينين الساجيتين في طمأنينة:

- هذا الكون الهائل يجعلنا نشعر بضآلة الأرض وقلة شأن الإنسان.

ويقول فارس تلتمع عيناه ببريقهما الثاقب:

- ومع ذلك أبى الإنسان الضعيف إلا أن يحمل الأمانة ويتصدى للأعمال الجسام، لكنه أغفل الأمانة وسعى لاهثًا وراء الثروة والسلطة والجاه.. وقد وصانا عليه الصلاة والسلام أن نعمل لدنيانا كأننا نعيش أبدًا، ونعمل لآخرتنا كأننا نموت غدًا.

ويفصح حسن مؤيدًا وهو يطوف بناظريه بين الجالسين:

- أجل يا أخي، ليس المطلوب منا أن نصلي ونتعبد طوال وقتنا ونترك أمور دنيانا، بل أن نأخذ نصيبنا منها ونستمتع بما أحله الله لنا.. شدَّ ما أتمنى أن يسود هذه الأمة التآخي، والصفاء.. ويتراحم أهلها ويتآصرون.

وتنتهي الليلة في هذا الحوار الهادئ القانت، ثم يذهب كمال وعبد الله وعصام وشاب رابع إلى النوم في خيمة، ويسلم جفنيه للكرى في سلام، يتخيل تباشير الدعوة الإسلامية في مهدها في بيئة صحراوية مماثلة، ثم يتذكر الرسول الكريم كامل الخلق، فيتمنى لو كان حظِي برؤيته وتملّى بنوره.

ويؤذِّن لصلاة الفجر، فيستيقظ كل من في المعسكر ليتوضأ، ثم ينتظم للصلاة، في خشوع وتبتل. ثم بعد الصلاة ينبهر لأروع منظر للفجر شهدته عيناه، إذ تنفس الصبح عن آياتٍ من الصفاء الكوني تكسو السماء، وتهف نسمات فاترة أرق من لمسات الحبيب. ثم يبدو الهرم العملاق يشرف عليهم في جلال الأقوياء، فيتجلى له في رداءٍ مباينٍ لما رآه عليه في المساء.

ويتناولون فطورهم، ثم يجيء وقت التدريبات العسكرية التقليدية فيزاولون السير والوقوف، والالتفاف والدوران، والانبطاح والزحف والإقدام، ثم اجتياز الحواجز والأسوار. ويملؤه الزهو والحماس، ويلاحظ نفس الشعور لدى عبد الله وعصام، فيقبلون على التدريبات بعزمٍ وتفانٍ. ويلتفت إلى عبد الله ويفصح لاهثًا: المؤمنُ القويُّ خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمنِ الضعيف. فيؤيده عبد الله متمتمًا: نعم، القوة واجبة.

وتجيء صلاة الجمعة فيجلسون على الرمال يستمعون لما تيسر من آيات الذكر الحكيم، ثم يبدأ الخطيب، فينصرف إليه الجميع، وهو يلقي بكلماته البليغة المؤثرة، من خلال نبراته القوية الصادحة، بينما الكل في صمت وخشوع، فيبدو لكمال وكأن الصحراء والأهرامات انتبهت تصيخ السمع في إكبار. ويسمعه يقول باحتدام:
-وانتشر بين ظهرانينا أناسٌ طفيليون، ما راعوا حرمة أو قانون، عثوا في الأرض فسادًا، وبثوا الرذائل والمباذل، الصغير منهم والكبير، فانتشرت الرشوة والمحسوبية، والخيانة والتآمر، وها هي

الأسلحة الفاسدة خير شاهد..

فيهمس كمال لعبد الله:

- هذا كلام جريء، ربما قُبِض عليه في الغد!

- كلا، الصحافة والناس في كل مكان تتكلم بجرأة هذه الأيام ولا أحد يتعرض لهم.

وتنتهي الخطبة فيؤذن المؤذن، فينهضون للصلاة. ثم تتماثل الرحلة للانتهاء فيبدأون مسيرة الإياب.

(١٩)

أنشأ كمال يطوف بالحجرة في تململ وبرح. ستبدأ الامتحانات بعد شهر، فماذا أعددت لها من حفظ! من الآن فصاعدًا كل يوم له شأن، بل الساعات والدقائق والثواني، فيجب أن أملأها بلا توان، بدقائق العلوم والمعارف، وأتمرس على سرعة الاسترجاع الكامل، وإلا فسأحاسب نفسي الحساب الصارم. فيجب أن أجاهد لأحقق طموحات المستقبل، ولا عذر في تقصير، فالإنسان بيده المصير.

ويتقدم من شرفة غرفته، فيرى الأضواء قد طفقت تتلألأ مع هبوط المساء بالنوافذ، وكأنها لؤلؤ منثور. ويسمع على البعد أغاني المذياع فيتنبه لبعده لأيام طوال عن المسرات. ما يصبِّر خاصة هو طيفها الباعث على الإلهام. ويصعِّد نظره بطيئًا لشرفتها في الطابق العلوي على اليسار، أحيانًا يمن الحظ بمحياها، فنتبادل ما يتيسر من

obeikandl.com

أقوال، حريصًا أن أتفوه بكل ما هو عميق نادر، ولطيف ضاحك، هل أراها، ربما جالسة للاستذكار الآن، وربما لا تقل عني في الملل والعناء، إذن أحبب به من عناء تشاركني فيه، رأيتها منذ خمسة أيام، قائمة تداعب ثوبها النسمات، شعرها الحريري انسدل على كتفيها، وأول ما رأيته ساقيها. وتضرجت وجنتاه. ليتني أستشف شعورها صوبي، هي تتجاوب معي وتضحك لدعابتي، لكن هذا لا ينم عن شيء.. فلأبحث عن حيلة تطلعني على شعورها.. هل أسألها عن سمات فتى أحلامها، أو الرجل المثالي بخيالها؟ ولكنها آراء وعموميات لا تثبت شيئًا عن ميلها! فضلاً عن أنه تطفل بلا مناسبة.. إذن أسألها هل تؤمن بالحب قبل الزواج، أو بالتعارف والائتلاف؟ لكن، هذا أيضًا لا يدل.. ماذا إذن؟

ويغرق في لُجة من الأفكار والاستدلالات، ثم يومض في ذهنه خاطر صواب: فلأسألها عن سمات الحب وهي تمدني بالخيط: نجوى أريد سؤالك، مؤمنًا بفطنتك: كيف يدرك الشاب إذا كانت الفتاة تحبه؟ لا، ولا هذه، جملة غير لائقة بفيلسوف، إذن لتكن: سألني صديق كيف يعلم إذا كانت صديقته تحبه، فلم أتمكن بثقة من إن أجيبه، فما إجابتك؟ أجل، هذا موضوعي غير مباشر، لا يكشف عما عندي صوبها من مشاعر، لكن من ناحية أخرى أريد أن ُألمِّح بشعوري! لا، الأفضل ألا أفعل، بل أدعه لفرصة أخرى أنسب.

وبينما هو يتأمل، إذا بحفيف حركة يُسمع، فينظر فيراها قد هلَّت، فيرتج قلبه ويتراجع من فوره، لم تره، ويزدرد ريقه يتربج، لقد

فوجئ على غرة، ولما يتأهب، فلأبادر قبيل فوات الفرصة، لا وقت للتردد واللخمة. ويتمالك جأشه، ويخرج للشرفة، فينظر الناحية اليمنى، ثم اليسرى، ثم يصعِّد بصره لشرفتها بتؤدة، فتلتقي عيناهما، فيتبادلان إيماءة تحية وبسمة، وتهمس برقة: كيف حالك يا كمال؟

- الحمد لله، وأنتِ؟

- لا بأس.

- كيف حال المذاكرة؟

- لا بأس، وإن لم تكن كاملة.

- أعلم أنكِ متفوقة.

فتضحك ضحكة واهنة، وتفصح برنة صادقة:

- لا أدري.. أنا أبذل ما في وسعي.

- مثلكِ يا نجوى مكانه في المقدمة.

- أشكرك.. هذا جميل منك.. (وتضحك) ولكني لست دائمًا هكذا.

ويختلس نظرة سريعة لشعرها المصفف في رونق، وثوبها الهفهاف الأزرق، هل يبادر الآن ويسأل؟! ويلمحها تتحرك وكأنها ستدخل، فيجفل، كارها أن تدخل قبيل أن يسأل، فيسارع يفصح:

- أريد أن أسألكِ يا نجوى.. سألني صديق عن.. عن الحب..

ويلحظها تقطب بسيماء مستفسرة، فيغتاظ لنسيانه ما أعد من عبارات منمقة. فيستطرد بتوتر:

- هو يحب جارته.. أقصد صديقته.. وفي حيرة عما إذا كانت تبادله، فسألني رأيي عن سمات الحب ودلالاته.. فلم أعلم بـ.. بثقة.. فخطر لي سؤالك..

obeikandl.com

فيفتر ثغرها بضحكة متعجبة وتفصح:
- وهل تظنني خبيرة في هذا الشأن؟!
فيضطرب في حرج أكثر، ويبادر يوضح:
- لا، ولكن.. لأنكِ من الجنس الآخر.. وتفكيرك متزن.. لهذا أسألك..
- في الحقيقة هو سؤال صعب.. ولكن ماذا تظن أنت؟
آه، وقع في حبائل الشرك الذي نصبه، ويتأمل سريعًا في جواب ذكي، فيتشجع ويفصح بلسان طلق:
- إذا تبين عند لقائها الفرحة بعينيها وابتسامتها، والحماس بأقوالها وحركتها.. وتحاول إسعاده بوجودها، وتترقب كل كلمة يقولها..
فتقاطعه بضحكة رقيقة وتعلق:
- هذا جميل شاعري.. ويبدو أنه صحيح واقعي.. ولكن ربما لا تظهر ذلك كل فتاة محبة.. والآن أعذرني، فيجب أن أعود للمذاكرة.. طابت ليلتك.
- شكرًا، طابت ليلتكِ.. وحظًا موفقًا في المذاكرة.
- أشكرك.
وتغيب عن الشرفة ومعها الفرحة، فيغشاه الأسف والخيبة. تركتك بلا جدوى، لماذا ارتبكت وتلعثمت، ونسيت ما حضرت!! عذري أنها باغتتني.. وتذكَّر قوله "يحب جارته"، فعض بغيظ على شفته.. لكنه ربما أفضل، لتخمن ما أشعر. والآن فلأحلل ما دار بالموقف.

ولا يلبث أن يعود للقراءة في كتاب الجغرافيا، لكن لم يطق صبرًا، فيغلقه لكتاب علم النفس. وسرعان ما يتحمس، هو علم

النفس الكاشف عن كل أمر، عليَّ بالتهامه واستيعاب كل تحليلاته. وأنشأ يقرأ في نظرية التحليل النفسي لفرويد، ثم لم يلبث أن نغض رأسه في برح: كيف إذن أفسر سلوك نجوى من خلال «عقدة الخصاء» و«عقدة إلكترا»؟! هل تغبطني لأني ذكر، وكيف يفيدني هذا في استمالتها بحذق؟!! وكيف التفرقة بين سلوك امرأة وامرأة؟ كلها أسئلة تطلب إجابة مقنعة.

(٢٠)

لم يعد على الامتحان سوى عشرة أيام، فتتوتر وتتوجس، ونجوى تضن بكلمة أو نظرة، ألا تضجر بالمذاكرة والعزلة، انقضى أسبوعان على آخر لقاء، مصباح حجرتها يضيء طوال الليالي، يؤنس وحشتي ويصبرني بالأماني، الأسابيع الأخيرة حصَّلت الكثير من المعارف، فازداد ذهني ثراءً، واكتشفت شيئًا عجيب التصديق! بل هو ساحر التشويق: إحساسي بالزمن تبدل، يخالف ما كان عليه قبلاً، فأصبح متسعًا أعمق، فكل لحظة مليئة بالانتباه والتركيز، والذهن مشحذ كآلة تصوير، تلتقط كل ما دق وخفي عن العيان! أهذا لأني قدحت زناد الفكر وعبأت قواي بإحكام، ولم أبدد في استذكاري دقيقة من الزمان؟! حقًا، أشعر أن هذين الأسبوعين انقضيا كأنهما شهران، يغصَّان بعميق الرؤى والأفكار.. ورغم أن كل يوم مليء كأسبوع، إلا أنه يمر سريعًا دون شعور! إذن، فالزمن ينقضي عميقًا زاخرًا، لكني أدركه سريعًا طائرًا، كم يبدو هذا

opeikandl.com

اكتشافًا مثيرًا شيقًا! إذا تحقق هذا قبل الامتحان فلماذا لا أجعل أيامي كلها أيام امتحان، عميقة مكثفة، غنية منتجة، فأجني في دقائق ما أجني في ساعات، وفي ساعات ما في أيام.

وينكرس على الكتاب يقرأه في همة واستمتاع، ويتعجب كيف يبدد الناس أوقاتهم في ترّهات. أما هذه النجوى فستميل، ولحبي ستستجيب، سأناقشها الأدب والفن وكل ما هو بديع، سأبحث عما تحبه فأحادثها فيه، فقط أجد الفرصة، هذه هي العقبة. ويلقي على ساعته نظرة، فيلفيها التاسعة، فينهض إلى الشرفة يتلقى نسمات الصيف الملطفة، ولعلي أصادفها واقفة. لكن يجب أن أبدو أنيقًا أمامها. فيذهب ويستبدل ملبسه. كم الليل وادع، والبدر ساطع، والنجوم تومض كقلب عاشق، وأمامي قصر بدوحاته الباسقة وأوراقه الوارفة، وبجانبه قصر ذو حديقة زاهرة، كم هي المنطقة مزدانة بقصور مترفة.

وتنقضي نصف ساعة وهو يلقي نظرة بعد نظرة إلى أعلى، آملا أن تتجلى، لكن بلا جدوى، فيدخل حجرته يطوف بها يتأمل محتوياتها: مكتبه في الوسط، بجانبه السرير، يقابله صوان ملابسه، وأريكة وثيرة، فوقها على الحائط صورته، وهو ما برح غرًا في السادسة، تنفرج شفتاه عن ابتسامة بريئة متفائلة.

تعدَّت الساعة العاشرة، فليعد كوب شاي، فيدخل ثم يعود يحتسيه. الأمل في بزوغها قد ضعف، فلأصرف النظر، وإذا بها تتجلى فجأة، فيخفق قلبه بقوة، وتلقي عليه التحية بأسارير مفترة:

- كيف حالك يا كمال؟

فيعبئ قواه سريعًا ويجيبها:

-أهلاً نجوى، الآن فقط هلَّ بدرِك ينير الظلمة.

فتضحك وتعلق:

- آه، أشكرك، ولو أني أعتقد أنه آتٍ من القمر..

- في الحقيقة لا أعلم، أيكما أكثر إشراقًا!

فتضحك:

- هذه المرة هو، فأنا بسبب الاستذكار مُطفأة..

ثوبها سماوي شفاف، وشعرها حريري منساب، وأساريرها ملائكية شاحبة، تحت أشعة البدر السابغة. ويجيبها:

- قرب الخلاص، وبعده اللهو والانطلاق.

- نعم كم أنا أشتاق.

- تفضلي معي الشاي.

- شكرًا لقد شربت منذ قليل.. والآن سأرجع للمذاكرة، عن إذنك، طابت ليلتك.

فيجمد محبطًا للمفاجأة. تركتك ولم تكد تبدأ المحاورة! ويتغيّظ. لماذا أتمادى في خطب ودها، بينما هي غير مبالية؟ هل واجب الرجل دائمًا أن يبادئ ويتزلف، ويطارد ويتغزل، بينما المرأة تتأبى وتترفع؟

وبعد هنيهة يستجمع قواه ويستنهض همته، فينكرس على الكتب يدرس، بعزمٍ وتحدٍ، ينفس عن شعوره المُحبَط، حتى الساعات

obeikandl.com

الأولى من الصبح، قرأ فيها خمسين صفحة، فيشعر بالفوز. أربع ساعات، كيف حصَّلتُ فيها ما حصّلت، فاستوعبت كل هذا الزخر بعمق! متغلبًا على الإحباط والهم؟ هذا كشف خليق بأن يُتذكّر: بأن الانفعالات الضارية يمكن أن أنتصر عليها وأسيطر.

(٢١)

انتهت أخيرًا الامتحانات وما صحبها من توتر وكدّ، وجاء أوان الوصل، لا مبرر لضياع الوقت. ويسنح له زيارة ناج ليصحبه لزيارة وائل، فيوافق. فتفتح لهما الخادمة تقودهما لحجرة الاستقبال. تَمنَّى أن تفتح لهما نجوى، ومع هذا يأمل أن تبزغ في أي لحظة، ويرسل للبهو نظرات مختلسة، ويرهف السمع بحدة، لكن لا أثر لها البتة. هل خرجتْ، فضاعت زيارتي بلا جدوى؟ لعلها عما قريب تعود، فأسعد وأُمنَّى بالوعود.

ويحضر وائل يحييهما، فيسألانه عن أخبار دراسته فيبدي لهما بحماس عظم موادها وعمقها. فيتأمل بباطنه: أحسدك على نجوى معايشتها، تحظى دائمًا بمشاهدتها، تتأمل جمالها، وتأنس بلطفها، لكن يُقدَّر الفوز لمن هو له في زهد، حتى هو ليس بالذي يهيم ويحلق. ويسمعه يذكر: أما الكلمات اللاتينية فقاسية في حفظها. عجبًا ألا يتشابه هكذا أخَوَان! هي في سماوات الأدب والفن، وهو في واقعه المادي الفج، هل حادثها مثلاً عن «فولتير» أو «روسو»،

أو «أوديب ملكًا»، ويخطر له أن يسأله:

- وائل، هل قرأت شيئًا عن « جان جاك روسو»؟

- لا.. لماذا؟

- خلتك تحبه مثل نجوى.

- لا، هي تفكيرها ودراستها أدبي، أما أنا فعلمي.

ويشعر في نبرة صوته بتعالٍ، وهل الدراسة العلمية تمنع من الاطّلاع؟ ويتمنى أن يسأله أين هي، ومتي تعود. ولا يلبث وائل أن يقترح أن يلعبوا الشطرنج، فيعتذر ناج بجهله اللعبة، فيضطر ليلاعبه، لا بأس، فليصبر، ربما في الأثناء تحضُر. ويجاهد ليشحذ ذهنه ويحد بديهته، لكيلا يدع له الفرصة ليغلبه. لا يلعب الشطرنج إلا في فترات متباعدة، ولم يهتم بأن يتفوق فيه ويتقنه، فهو يحتاج لأوقات خالصة وجهود متواصلة، يضن بها على مجرد لعبة لن تفيد مستقبله، ومع هذا يجب أن يبذل كل جهده، ليفوز ويذل كِبره، فأنشأ يلعب بروية وحرص، لكن وائل كانت حركاته أسرع وأجرأ، تهدف لهجوم مخطط، ويحتدم الصراع، فيزيده ضرامًا فوق ضرام، ثم يُفاجأ به يطيح بقطعه المهمة، يردد عبارات الزهو والثقة بالفوز، فيقاومه بعناد وغيظ، لكنه يخسر في نهاية الشوط. فيهدئ من غيظه قائلاً لنفسه: ما هي إلا جولة، خسرتها لعدم التمرس باللعبة، ويمكن تعويضها في مرة أخرى..

الساعة العاشرة ونجوى لم تفتأ غائبة، يا لضياع الأمسية، كم من ليالٍ بطولها لن أحظى بلطفها! ويقوم ناج لينصرف، فينهض معه،

obeikandi.com

فيرافقهما وائل للباب، ثم ينفصل كل إلى شقته. فيتفكن: كيف تركته يغلبني، رغم أني شحذت ذهني؟!

(٢٢)

بينما عبد الله جالس بمنزله وقت الغروب يحتسي الشاي، ويتذكر الامتحانات أسئلتها وإجاباتها، المنتهية منذ أسبوع، وما تستحقه من تقدير، إذا بالشمحطي عاشور يُفاجئه بالزيارة، يدخل عليه بابتسامة منتشرة بوجهه المحتقن بالدماء والحر، ويحييه ويبتدره على الفور:
- أتيتك بغنيمة (ثم يضم بنانه مقبلاً) قشدة يا بني.. مهلبية. قم ولا تضع وقتًا.
فيسدد إليه بصره بقلب يطرب، مدركًا ما يقصد، ويتأهب متحمسًا ليذهب، بينما يقول الشمحطي بعينين جاحظتين ولعابه يسيل شهوة:
- هي لحيمة فتية، طويلة عفية..
لكن فجأة حماس عبد الله يخبو حين تذكر ربه، فيسأله شارد اللب زائغ البصر:
- أبها كل هذه الصفات؟
- ملعون «أبويا» إذا كنت أكذب.
فيسارع عبد الله بصوت قاطع:
- لا.. لن أذهب.
فيبهت الشمحطي فاغرًا فاه لا يصدق، بينما العرق بفوديه ورقبته يتصبب، وعيناه النهمتان لا تكفان عن الدوران والتوثب، ثم يسأله

obeikandl.com

يستغرب: ولمه؟

- العاهرات محرمات عليَّ بعد اليوم.

- ولمه؟

- لأني غدوتُ مسلمًا.

فينغض الشمحطي رأسه يتحيَّر، ويسأله بتعجب:

- وهل أنا لست بمسلم؟

- نعم.. لستَ مسلمًا كما يجب.

فيضرب الشمحطي كفًّا بكف يستغرب، بينما هو يتدبر، لا بد من التمسك بما قرَّر، شعوره قد تحوَّل، الرجس ينتابه، خاشيًا الله وعقابه، هذه الأيام يذكره ويدعوه ويستغفر. ويحضه الشمحطي:

- قم يا بني، توكل على الله ولا تضيِّع الوقت، جئت لمصلحتك لتقول لي هذا الكلام الأحمق. أتتذكر سميرة؟ هذا البياض، والجسد الفضفاض المدملج. هي مثلها وأحسن.

جبينه تصبب عرقًا، ومجلسه غدا ملولاً قلقًا، والشهوة تستشري في بدنه تحرض، لو هي مثل سميرة، امرأته المفضلة، صاحبة الصدر المنتبر، والبدن اللدن، ذكرياتها تغرقه، لماذا ما يذهب هذه المرة؟ طالما صبر وتحمل الامتحانات عناءها، والليالي الحارة حرمانها، منذ شهور ما قرب عاهرة، والصيف ما يرحم، والبدن ما يهدأ، وهذا الشمحطي مسلم أيضًا. فيقول له بضمير موزّع:

- على كل حال، لا داعي للعجلة.. انتظر حتى تشرب الشاي.

- إذن هات الشاي وأسرع.. ولا تنس أن تكثر في الشاي من السكر.

فينهض ليعده، ثم يرتدي قميصه وسرواله بإرادة مسلوبة، لو

العاهرة مثل سميرة، المهنة تمارسها حُبًّا وهواية.

ثم يبوء للشمحطي بكوب الشاي مرتديًا ملابسه. فينفرج وجه الشمحطي قائلاً:

- تعجبني.. هذا عين العقل.

إنسان هذا أم شيطان؟ أما وازع ينهاه عن الفواحش؟ أما هو فهل يدع نفسه للشيطان؟ أين إيمانه وعزمه..لا لن يذهب..{الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ..}.. {إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً، لِلْطَّاغِينَ مَآباً، لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً} فأحسَّ بلهيب الشهوة قد تحول لعرق بارد. ويسمع الشمحطي يقول:

- "يا سلام" على الشاي، جميل مرطب.. قل لي: هل وفِّقت في امتحاناتك؟ أنا أخشى فقط الجغرافيا والفرنسي والإنجليزي، اللعنة على الإنجليز في احتلالهم وفي لغتهم، لا يأتي من ورائهم غير المصائب.. لا يهم، انتهت الامتحانات بقرفها وتفرغنا للنسوان ومتعها. يا بني ملعون أبو من يحمل همًّا.

هذا الكلام يريحه، ويشتهي استرجاع لياليه أنسها وملذاتها، الأسف يداخله على فواتها.. لتكن المرة الأخيرة، فرصته لن تعوض إذا كانت المرأة كسميرة، ماذا كان كمال يفعل في مثل موقفي؟ بل هو بالفن يتشاغل، كذلك عصام وناج، هم ما يملكون قوة شهوتي، ماذا جاء بك الآن يا شمحطي. ويراه انتهى من شرب الشاي، ونهض قائلاً بعزم: هيا. فيستخلص أشلاء عزيمته ويقول بحسم:

- لا لن أذهب.

فيتشاوس إليه مبهوتًا، ثم يتجه للباب نافد الصبر يقول مستاءً:

- يظهر أنك الليلة في حالة غير طبيعية، لن أضيِّع الوقت معك أكثر من هذا.

- آسف يا شمحطي.. على كل حال أشكرك جزيلاً.

ويوصله لباب الشقة ثم يبوء إلى غرفته مشتت البال يتدبر. ما أشقاه بالشهوة، من الآن فصاعدًا لا بد أن يناضل بشدة.

وجعل يروح ويغدو بالغرفة، حتى بدا له الاستحمام ليبرد بدنه. فيبوء بعده أهدأ وأسكن، ثم لا يلبث أن يسمع صوت أخته بالبهو تحادث فتاة، فيتساءل من تكون، ويخرج للبهو فيبصر شادية جارتهم، فتاة في مثل سن أخته، فيحييها، فيخطف بصره النحر الخمري والصدر المغري، فيغض سريعًا بصره، ما غدا به رمق. ويبوء لغرفته يصلي المغرب، ثم يردد التسبيحات ويستعيذ بالله من الزلل، ثم يجد الليل قد هبط، فيعن له أن يخرج ينطلق، عساه يطفئ لهيب البدن، وقد يمر على عصام فينفرج. ويخرج إلى البهو فيفطن لخروج أخته وصاحبتها، فيلم به شك يتحول إلى حنق، فيتوجه إلى والديه في حجرة نومهما، والده متربع على الأريكة في جلبابه وطاقيته، وجواره والدته، فيسألهما عن عائشة، فيرد أبوه بأنها ذهبت مع شادية لزيارة صديقة، فيسأل كيف سمحا لها أن تخرج، دون معرفة من تكون هذه الصديقة، فتدافع الأم بأنها معهما بالمدرسة ومن عائلة طيبة. فيرد بتأفف:

- مهما يكن، هذا سن خطير، والبنات لا يجوز أن يمشين ليلاً وحدهن بالطرقات.. ولا أرتاح خاصة لخروجها مع شادية..

ويكلح وجه والده المتغضن ويهز رأسه في تأييد ويعقب:

- عندك حق، ولهذا فأنا لا أدعها تخرج، ولكنها توسلت ووعدت بألا تتأخر.

فيخبرهما أنه خارج للتمشية. أبوه يعمل مديرًا للمخازن والمشتريات بإحدى المصالح الحكومية، تعليمه ما تعدى الشهادة التوجيهية. هو طيب يتقي الله، وما يرضى بالاستهتار، إنما جهل ما عليه شباب هذه الأيام. ثم يزفر: ربنا يستر. ويغذ السير بشارع خيرت يسارًا، مارًا بالحوانيت والقهاوي. ثم يحنق: شادية هذه لعوب جذابة، بدنها يدعو للغواية، كيف تصون نفسها عن أعين وشهوات ما تعرف الهداية، والشباب المتحلل يتحين الفرص ويتخذها غاية، وإذا أخته رافقتها فعفتها في خطر. أما يجوز أن تكونا على لقاء، ولو بالنظرات! إنما هو سن طائش.

لأول مرة يفطن لخطورة سن أخته ومسئولية الحفاظ عليها ومراقبة سلوكها، هي مسئولية كبيرة شاقة، وها هي أختك الثانية بلغت العاشرة وسرعان ما تكبر وتغدو عبئًا آخر، عائشة بالخامسة عشرة، وشادية في السابعة عشرة، هل يا ترى لصديقتهما أخ؟ يا للنكبة إذا كان بينهما وصل. ويتذكر خلوته السنة الماضية مع شادية.. استدرجها، وبين ذراعيه احتضنها، في البدء تمنعت، ثم استمرأت، فذقت آثمًا قبلاتها.. والآن الخشية أن تلقن أختك سلوكها.. وفي ندم أليم يعض على شفته، لماذا انحدرتُ للزلة؟ فما رعيت للجار حرمة، فتربصت حتى واتتني الفرصة، كانت تأتي لأختي فما تجدها فأصب بأذنيها معسول الكلمة، أسعى لقبلة أو لمسة، تساهلت

معي بعض الشيء، فقلت لعوب غاوية، وإذا تمنعت فمرائية، الآن أدرك فعلي خسته، ومنطقي خطله، بالنسبة للدين أنا مذنب مثلها، بل ذنبي يفوق ذنبها، فأنا الذي أغويتها، ولعلها كانت صادقة في عاطفتها آملة في زواجها، وما تراخت إلا بسبب غوايتي سحرها.. والآن أخشى على أختي أن تمر بنفس التجربة، اللعنة على الغواية وشيطانها..!

وينتهي إلى ميدان «لاظوغلي» دون أن يتنبه، فيعرج يسارًا بشارع «مجلس النواب» في سبيله إلى شارع قصر العيني، فيلفت بصره حرمة تمر بجانبه، في ثوب خليع يضغط بدنها مفاتنه، فتوقظ عنده الشهوة ثانية، لكنه يتصدى للإغراء يقاومه، ثم سرعان ما يبصر بعدها فتاة جذابة قادمة، تتقصف مغرية، فيصرخ بدفينته حانقًا: أعوذ بالله، غواية متحركة، ماذا أفعل؟ كيف للغواية أدرأ؟ ويعبر قضبان خط حلوان. يا كمال ماذا كنت تفعل؟ أتستعين صامدًا بالفن، أما أنت عصام فهادئ لا تهتم، وأنت أيضًا ناج قليلاً ما تتأثر.. هل لي من حرمة أبني بها في الحلال؟ هن بكل مكان كيف أحصر نفسي عنهن متمسكًا بالعفاف؟

ويسير بشارع الفلكي. وهذا الحَر يزيد بالبدن وطأة اللهب. ويبلغ ضريح سعد زغلول، فيترحم عليه قائلاً بحنين: رحمك الله يا سعد، ما كان أحوج الأمة إليك اليوم، كم من أمجادٍ حقَّقتَ، وتحدياتٍ واجهتَ، حتى أرغمت الإنجليز على قبول الدستور والحريات..

ويعرج بشارع «صفية زغلول»، حتى يصل إلى عصام فيستقبله

بترحاب، ثم يخرجان للتمشية بوسط البلد، ويسأله عبد الله:
- هل تعتقد أن الإنجليز سيوافقون على الجلاء؟
- لا بد أن يجلوا، إن عاجلاً أو آجلاً.
- سئمنا الانتظار، حكومة الوفد رحلت وجاءت حكومة علي ماهر، والاحتلال ما زال يربض، هوانا ومذلة للبلد، والملك منغمس في نزواته غير مكترث.. ثم أين دستور الله؟ دستور الله لا بد أن يطبق.
- بإذن الله، أملنا في نصر الله كبير.
وبدخولهما بشارع سليمان إذا بعيني عبد الله تتخطفهما الحرمات، فيبتدر عصامًا:
- قل لي يا قديس: للتغلب على الشهوة ماذا تفعل؟
- أفضل شيء أن تشغل نفسك باهتمامات أخرى.. كالرياضة والقراءة.
- أرى أن الباءة خير حل.
- وكيف تتزوج الآن قبل انتهاء الدراسة والحصول على وظيفة؟
- ولِمَ لا أعمل وأدرس؟
- وهل تظن أنك تستطيع العمل ودراسة الطب، أو حتى أي دراسة؟
فيدرك صدق قوله، ولا يدري ماذا يفعل. وبعد تفكير يسأل:
- لماذا ما أتزوج ويبقى كل منا عند أهله حتى أتم دراستي وأعمل؟
- وهل ترى أن هذا حل عملي؟ ومن يرضى بذلك؟!
فيزفر بحنق ويصمت، ويعن له استشارة حسن عبد الكريم، يؤمن بإخلاصه وحكمته. ووصلا إلى شارع فؤاد الأول فيعرجان فيه. ويتساءل عبد الله بأمل:

- متى تظهر نتيجتنا؟ لو ينعم الله علينا بدخول كلية الطب.
- يقال إنها ستظهر بأواخر يولية، وبإذن الله سندخل الطب، فقد اجتهدنا.

ولا يلبثان أن يعودا إلى بيتيهما.

(٢٣)

علم كمال أن والده قرر الاصطياف بالإسكندرية، مخالفًا مألوف كل سنة من ذهابهم إلى رأس البر، بسبب أن شقيقيه استأجرا شقتين بشاطئ جليم، فاستمالاه. ليصطاف معهما. وتقرر لسفرهم الثالث من شهر أغسطس. فيتملكه الحبور، فأسرة العيسوي يصطافون بالإسكندرية. أبشر به إذن من صيف سعيد، ماذا يا ترى تخبئ لي المقادير؟ سمع عن الإسكندرية الكثير، قال له سمير: هي ثغر القطر البسام، وروض بنات اليونان، ونسيمها ينعش الوجدان، هي إذن تجربة جديدة تهزه بألوان الإلهام، فيموج شوقًا ويستحث الأيام.

وتظهر نتيجته ضمن الناجحين، فيفيض بالفرحة ويحلق في آمال الغد القريب، ترتيبه من العشرة في المئة الأوائل بالقطر، لا بأس، ولو قدّر لي مع نجوى الوصل، لتفوّقت على الكل.

ويتقدم بأوراقه لكلية الحقوق بجامعة فؤاد الأول، لا تسعه الفرحة، فسيفتتح صفحة جديدة من عمره. ويجيء لزيارته عبد الله وعصام وناج لتهنئته ووداعه قبل سفره، يلِفّهم جو من الأمل والحبور، وقد

obeikandl.com

نجحوا جميعًا بتفوق، في مقدمتهم عصام ثم هو، فعبد الله، فناج. ويخرجون ينطلقون بشوارع وسط البلد في سعادة ومرح.

(٢٤)

وبوصوله إلى الإسكندرية يتجلَّى له البحر الأبيض، يرغي ويزبد، دائبًا لا يهدأ، وتتخلل خياشيمه النسمات الرطبة المالحة، تسري في كل كيانه منعشة، ويمتد أمام ناظره طريق الكورنيش الطويل وشواطئه الدائرية المتلوية، تحف بها عمائر شامخة، ذات طرز متباينة، تنتصب في زهو متعالية، تستقبل الخضم الرجاس مرحبة، وتسعى لوصاله مناجية، حتى تنتهي عند قصر رأس التين غربًا، وقصر المنتزه شرقًا. وعلى الشواطئ مقاهٍ جميلة متعددة، وترتفق على طول الكورنيش مكعبات أحجار متراكمة، تصدّ عنه ضربات الأمواج المتواصلة، فتبدو على امتداد الساحل كرفارف ثوب زفاف ضافية. ويلقى بنظره إلى الأفق، يتشوَّق لينطلق، يحدو خط تماس البحر بالسماء الصافية الزرقاء، فتتبدى له لوحة زيتية غاية في الرواء، فيهمس بانبهار: أرؤى أحلام؟ وكأني لأول مرة أرى البحر! إن الإسكندرية حقًا عروس القُطر.

وينهض في الصباح يشتاق لمعانقة الأمواج، فيذهب لشاطئ «ستانلي باي» الذي رآه أمس آسرًا للألباب، فينطلق على الرمال متحررًا من الثياب، يستقبل الهواء والشمس بترحاب، ثم يقفز في الخضم، فينغمس في اللجات، فيدغدغه ملمس الماء، فيخبر بيئة

أخرى لينة، ذات كثافة مغايرة، فيلهو مع اللاهين، يثب ويغطس مع كل موجة عالية، التي سرعان ما تتلاطم وتتكسر هاوية، فتزول زبدًا يرغي وفقاقيع متلاشية، ثم تنسحب تعاود دورتها لاهية، في نوبات أبدية لامتناهية.

ثم يخرج يرتمي على الرمال، فتتخلل جسمه أشعة الشمس الحامية، فتبعث في باطنه قوى متنامية، وتطوف عيناه بالشاطئين، يمرحون حابرين، بما فيهن من حوريات متنوعات الجمال، فيهمس باشتياق: متى تحضر ذات الرواء والذكاء؟ فأبثها مشاعري على الرمال ونتلاغى ونتبادل نفثات الحياة؟

وعندما تتمايل الشمس للمغيب يتخذ طريقه صوب سمير، يحمل عنوانه بـ«الإبراهيمية»، فيعبر شارع جليم الغاص بالحوانيت، حتى يصل إلى محطة الترام. ثمة طابع عجيب يغلف المدينة يختلف عن القاهرة، وكأنها تمثل حضارة ثانية، بديعة ساحرة. والجديد أيضًا هو جسمي، يفيض نشاطًا وحيوية، وحرارة لذيذة وقوة، مخزون الشمس والمياه المالحة، وكياني منتشٍ، وذهني متوقد. ها هو الترام، مركبة الدرجة الأولى من طابق واحد، والثانية من طابقين، سأرتقي لطابقها العلوي، جالسًا بجوار النافذة. الترام نفسه ذو هيئة مبهجة.

ما أجمل ما أرى من قصور وهملات وأبنية، ذات طرز مزخرفة، تحتضنها دوحات وخمائل وارفة، وتصافح الترام خلال سيره معانقة، أوراق وفروع الأشجار الباسقة، تحمل إلى أنفي شذا الرياحين من الفل والياسمين المنعشة.

obeikandi.com

ويواصل الترام جريه خلال أحياء كالرياض، تغص بالخضرة والدوحات، مرورًا بسيدي جابر، فكليوباتره، فاسبورتنج، فيرى على يساره ساحة سباق الخيل، خضراء البساط شاسعة، حتى أخيرًا يصل إلى الإبراهيمية، فينزل وسط حي شعبي، ذي حوانيت صغيرة متلاصقة، تعج بالنشاط والحركة، بدا الكثير منها يونانيًا أو إيطاليًا. وينثني في درب ضيق فيصادفه خلال سيره فتيات كالأغصان، يونانيات وإيطاليات الجمال. ويجد نجدًا صاعدًا كشأن كثير من شوارع الإسكندرية، سِمة استرعت انتباهه وراقت له. وعند نهايته يعترضه شارع طويل، فيسير فيه خطوات، ثم ينثني في نجد آخر ينحدر صوب الكورنيش، فتقابله صفحة البحر تتلألأ بلون يبدو كأنه رصاصي، لتعذر تمييز اللون وقت الشفق، وقد أخلفت الشمس شذرات أرجوانية، كلوحة فنية، أما الخضم فركبه الغضب، وطفقت أمواجه تهدر في صخب، أهذا لإعراض الشمس وراء الأفق؟ وبوصوله لطريق الكورنيش يمَّم يمينا، مقاوما هبات الرياح القوية، حتى ألفى مراده، عمارة ضخمة عريقة الطراز، من بلاط وأعمدة رخام، فركب المصعد للطابق الخامس.

ويفاجأ به سمير فيطلق صيحة فرح، يتصافحان ويتلاثمان. ويقوده إلى حجرة الاستقبال خلال بهو عالي السقف، تحوطه أربع حجرات، وبعد جلوسهما يسأله سمير عن نتيجة امتحانه، فيجيبه بنجاحه، فيهنئه:

- ألف مبروك يا عزيزي النجيب.. هل قدمت أوراقك لكلية الحقوق؟

- أجل، قدَّمتها.

- جميل.. لنحتفل الليلة إذن بأطايب «الجاتو» وراقص الموسيقى.

- وما نتيجتك؟

- من الناجحين بإذن الله، بعد امتحان الملحق في «المدني» و«المرافعات».

فيضحك. ويبتدره سمير وهو يفرك يديه سرورًا:

- هل متَّعت ناظريك يا عزيزي بغسانيات [1] اليونان على الشاطئ؟

- لا.

- إذن عليك بشاطئ «سان استفانو» الفتنة، هو المتفرد في عرضه المركز للحوريات اللذة، وهو شاطئ خاص برسم دخول بضعة قروش، لا يقاس بما ستشاهده من نخبة الإغريقيات والإيطاليات في لباسهن «البكيني» الخلاب.

- يجب أن أتحاشاه إذن.

فيرشقه بابتسامته الدبلوماسية متعجبًا بإنكار:

- ما هذا القول غير الحكيم يا عزيزي؟ لوما انتظرت حتى ترى ذلك العرض من الحوريات لوحات الجمال.

ويضحك كمال لأسلوبه، ثم يسمعه يقول:

- وهل رأيت يا «إكسلانس» في أثناء قدومك بقالة «خاموس» وحلواني «مانوليدس»؟ سأدعوك لتلذ عندهما أطايب الشطائر والجاتو.. وهل ترى هذا الملهى في عرض البحر، هو مرقص

---

[1] غسانيات أو غيسانيات: الجميلات جدا .

الإبراهيمية، به جوقة من بارعي العازفين، على أنغامهم الحالمة يرقص شباب اليونانيين كل ليلة، كذلك الشأن في مرقص «اسبورتنج» الكائن هناك على اليمين، ويليه «كليوباتره»، في كل شاطئ جوقة وأغان ورقص وألعاب حواة، يتعين علينا يا عزيزي «الدوق» أن نلذها جميعها.. بالمناسبة تعال أمتعك بمغري المجلات.
ويقوده إلى حجرة نومه، فيلاحظ مشابهتها لحجرته بالقاهرة، فنفس ظاهرة الفوضى سائدة، فهنا وهناك جرائد وكتب ومجلات متناثرة، ويلفت نظره رحابة الحجرة وعلو جدرانها، تتدفق من نافذتها تيارات رياح قوية، ويتقدم يطل منها فيواجهه الخضم الهائل الممتد بلا نهاية، فيلبث يتأمله بانبهار، حتى يتنبه لسمير يناوله مجلتين أمريكيتين، ثم يستأذنه في الغياب قليلاً. ويهم بتصفح المجلة لكنه يشعر ببوادر صراع وقلق، فيضعهما جانبًا على مضض.

ويرجع سمير يقول:

- ومع ذلك فحوريات «سان استفانو» لسن أقلّ إغراء عما بهذه المجلات.

- لا أريد فرجة تؤدي إلى متاعب.

- يا عزيزي «الأرشيدوق» هذه بريء متعة، فقط تلذ النظر وتختزن لوقت العسرة، لوما انتصحت بآراء خبراء اللذة.. وما أخبار ذات الحسن والجمال: ناهد؟

فيباغته السؤال ويشعر بالحرج.. يعود سمير ثانية لذكرها. ويجيبه:

- لم أرها منذ فترة.

- أنت إذن المقصر في حق نفسك!

ويريد أن يحول انتباهه عنها وأن يفضي إليه بما يشغله حيال نجوى، فيبادره:

- أنا الآن مشغول بأخرى..

فتتسع عيناه باهتمام، ويشجعه بابتسامته المعسولة وكله فضول:

- آه، عظيم.. عظيم.. احكِ لي يا عزيزي القصة، من البداية للنهاية.

- هي ابنة صديقة لوالدتي، جميلة مثقفة، غاية في الرقة.

وأخفى عنه شخصيتها صونًا لها.

- رائع جدًا ثم ماذا يا عزيزي؟

- لا شيء، أردت أن أستشف عاطفتها حيالي، فذكرت لها أن صديقًا استشارني.. (ويسرد عليه ما حدث، وهو يتابعه باهتمام، وعلى شفتيه ابتسامة فطنة ودهاء..)

- يا عزيزي «الأرشيدوق» جلائل الأمور هذه تحتاج لهوادة وحكمة وكياسة، فتجمل بالصبر، ولا تتهافت على قطف اللذات قبل الأوان.

- لست أنا بالذي يهتم باللذات (وينظر لساعته ويهتف) كدت أنسى صلاة المغرب.

ويأتيه سمير بسجادة الصلاة. فيصلي. وبعد انتهائه يبتدره سمير بابتسامة خجولة:

- هذا جميل منك، فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر.

- هل ستذهب للاستحمام بالشاطئ؟

- لا يا عزيزي، هذه مجازفة غير محمودة العواقب، إذا لم تغرق، قد تصاب بالبرد، الشواطئ للفرجة أمتع.

ولا يلبثان أن يخرجا للتريض على الكورنيش. فيلاحظ كثرة المتريضين والجالسين بالمقاهي على طول الطريق، ورتل السيارات الذي لا ينقطع، فيسأل سميرًا عن سبب الازدحام، فيجيبه:

- السبب الأول يا عزيزي أنها مصيف خلاب، والسبب الثاني هو انتقال الوزارة للاصطياف.. هيا نعتلي الترام الجميل إلى محطة الرمل، فنلذ «التريانو» حيث ممتع «الجاتو»، أو إذا شئت، نذهب إلى «أتنيوس»، فنلذ إلى جانب الجاتو، الموسيقى والفرجة على راقص الغسانيات الرشيقات، فنصيب بهذا ثلاثة أغراض.

فيحث كمال السير في همة، مدفوعًا بما يحوي بنيانه من طاقة محتدمة. ويتأمل: ما فتئ سمير منكرسًا على عالمه الخاص بالخيال، ازداد بدانة من الحلوى والاسترخاء، والاستخفاف بالمكدرات. ويستمهله سمير قائلاً:

- على رِسلك يا عزيزي، في العجلة الندامة، والوقت كله ملكنا، ماذا وراءنا؟!

ويتأمل كمال: لو يطفئ أوار جسمه بشيء من الطعام والشراب، فيخفف من حُميّا الفوران والجيشان.

(٢٥)

اليوم هو الثامن، وقال وائل سيصلون في السادس، إذن لأستطلع الخبر بالشاطئ. وييمم في الضحى شاطئ «سيدي بشر الثاني» بقلب خافق. كيف أستقبلها وتستقبلني؟ أبترحيب وتطلق حابر، أم

obeikandl.com

بهدوء وسلام فاتر؟

وعند باب الشاطئ يستوقفه المحصِّل طالبًا رسم الدخول، فيذكر له اسم عم نجوى المضيف، لكنه رغم هذا يطلب منه ثلاثة قروش، فيدفعها على مضض، ويدخل يسير خطوات، ثم ينثني يسارًا، يتطلع باحثًا في مقصورات الشاطئ. فيقابله مقصورات أنيقة، وسمات مرفهة جميلة. وبعد خطوات قليلة يجد مربعًا من المقاصير أمام منطقة صخرية، فيخفق قلبه عندما يقع عليهم نظره، الزنبقة ووائل، والعيسوي وحرمه، وفتاة أخرى في مثل سنها، ورجل وامرأة، ربما عمها وزوجه. ويتقدم يحييهم في خجل، فيهشون لرؤيته، ويقبل عليه وائل يصافحه، ثم تمد له نجوى راحتها الناعمة، وهي في جلسة الأميرات سامدة[١]، فيحتويها بضغطة متوددة، ثم يصافح الباقين، فيقدِّم له العيسوي بك أخاه ممدوحًا وحرمه وابنتهما عفاف. ويجلس بينهم لا يخلو من حرج، ثم يبادر بالكلام ليتغلب على خجله:

- هذا شاطئ راقٍ جميل.

فيجيبه وائل:

- نعم، هو من أجمل شواطئ الإسكندرية.

فتبتسم نجوى معترضة:

- بعد «المنتزة» طبعًا.

فيرمقها بنظرة سريعة، تزَّينت بجونلة زرقاء، وقميص سماوي

---

(١) رافعة الرأس منتصبة ، أو غفل وسها ، أو بهت وتحيَّر.

شفاف، من القطن الرقيق الهفهاف، أما المحيا فناضر وضَّاء. ويتنبه لضحك وائل وعفاف التي عقَّبت:

- هذه لا تعد من الإسكندرية، بل جنة ملكية.

ويعلق أبوها ممدوح بك:

- ومع ذلك هل اكتفى فاروق؟

فيقول العيسوي بك:

- أتذكر وقت أن اعتلى العرش شابًا يافعًا، بريئًا طاهرًا، يحبه الشعب ويلتف حوله، ثم لم تلبث بطانته أن أغووه وأضلوه، وصار على ما هو عليه.

وتعلِّق زوجة ممدوح بك في إنكار:

- ونبذ فريدة الكاملة ليتزوج فتاة في سن أولاده!

فيقول ممدوح بك بأسف:

- المشكلة أنه هو والوزارة لا يستطيعون فعل شيء لا يرضى عنه الإنجليز.

ويقتنص هو فرصة انشغالهم بالحديث ليمتِّع نظره بالجمال الرفيع، تضع ساقًا فوق ساق، ريانتين في اتساق، والقدمان في صندل غضتان، وأصابع يديها وقدميها رقيقة طلية، ذات أظافر مصقولة مطلية، بصبغة شفافة لؤلؤية. ويتنبه لوائل يسأله هل يحب أن يلعب الشطرنج، فيومئ بأن لا بأس. الآن يرحب باللّعْب ما دام يجالس من يحب. فيدعوه وائل للجلوس تحت المظلة فوق الصخرة، ويدعو نجوى وابنة عمه، فتنهضان ويذهبون جميعًا.

وأنشأ يحرك القطع بهدوء بال، هدفه الآن مجاذبتها الحوار صوب الوصال، فيفصح في حماس:

- لم أكن أعتقد أن الإسكندرية بهذا الجمال!

فتبتسم موافقة وتقول:

- نعم، والبحر بديع، مهدئ للأعصاب.

ويرى في الأفق باخرة، فيشير إليها يقول:

- أتمنى أن أسافر يومًا بالبحر.

فتقول نجوى بصوتٍ حالم:

- نعم هي أمنيتي أيضًا.. ولكن السفر في حاجة لمالٍ كثير.

فتعلِّق عفاف:

- كل متع الدنيا يلزمها المال، حتى لأعتقد أن الأغنياء هم فقط المستمتعون.

وتؤيدها نجوى. فيتمنى هذه اللحظة لو يسبق السنين فيصبح ناجحًا بارزًا، يمتلك المال ويكرم الآخرين. ثم يتنبه لوائل يكتسحه قاضيًا على قطعه، فلا يكترث، فليسعده بالفوْز، يكفيه ما في حضرته من كَنز، ويقول للفتاتين في مزْح:

- سأشتري قريبًا يختًا وأدعوكم إلى رحلة لإيطاليا..

فتضحكان وتقول نجوى:

- قبلنا دعوتك، هل نويت شراءه هذا الصيف؟

- لا، الصيف القادم.

فيبتدره وائل متهكمًا:

- ضاع ملكك.. أنت تبخل بالعساكر وتعرِّض الملك للخطر!

obeikandl.com

- أرأف بالعساكر أن يموتوا في سبيل قضايا خاسرة.. ولا يعلمون لماذا يقاتلون.

فتطلق نجوى ضحكة ناعمة وتعلق:

- يا لك من فيلسوف يا كمال (وتلتفت إلى عفاف) كمال كل حياته فلسفة وفن.. سيصبح يومًا مفكرًا كبيرًا.

فيزدهيه قولها، وترفرف روحه محلقة، ثم يبادرها بامتنان:

- أنتِ أيضًا يا نجوى مفكرة وأديبة.

وتعقب عفاف مؤيدة: نعم، أنتِ أيضًا تحبين كثيرًا القراءة.

ويسألها عما تقرأ الآونة، فتجيب متحمسة: روميو وجولييت. فيسألها: هل تعتقدين أنها في روعة «مجنون ليلى». فتجيب: لا أدري. وهنا يصيح وائل بزهو: مات الملك. فيجيبه بهدوء يبتسم: هنيئًا لك. وهنا يقبل عليهم شاب فيحييونه مهللين، ويقدمه له وائل بأنه «طارق» شقيق عفاف. فيقدر عمره باثنين وعشرين سنة، قصد القامة، يتميز بخشونة ووسامة. ويبادرهم طارق: أما زلتم بجلستكم، لا حمامات أو رياضة أو مشي؟ فيجيبه وائل: كنا في انتظارك.

ثم يقومون، فيودعهم واعدًا بزيارة ثانية. ويهمس بباطنه: ثانية وثالثة ورابعة، وهل ثمة مقصد سوى سيدي بشر الأثير، حوى الحبيب. ويستعيد بدقة حواره معها وتعبيراتها في ضوء محياها، وما تنم عنه من مشاعر في ثناياها.. شهدت لي بالفلسفة والفن، وتنبأت، شكرًا لما تنبأت، أن سأصبح مفكرًا كبيرًا مستقبلا، ألا ينم عن إعجابٍ صادق، يقر بأمر واقع؟ والجديد الواضح انطلاقها

معي في تجاوب، مما ينم عن تقدم في التواصل. لكن ما الأمر بينها وبين طارق؟ هل ثمة تلاطف؟ هذا مصدر غيرة وقلق مضايق.

(٢٦)

استيقظ في صبيحة اليوم التالي يتلهف ويشتاق لما رأى في المنام.. ثم خابت سعادته عندما اكتشفها ليست واقعه.. ليتها لم تكن رؤى أحلام، بل واقع معاش! رأى أنه يقفز من سطح عمارتهم بالقاهرة، طائرًا في الهواء، فيتمكن في فرح أن يطير ويطير، مرتفعًا في السماء، فوق الشوارع والبنايات، والخلق والمركبات، والناس تتطلع إليه في عجب وانبهار، لكن لا يقوى طويلاً على البقاء، فيدنو من الأرض عاجزًا عن الارتفاع، فيجاهد من جديد في إصرار، فيرتفع ثانية محلقًا باقتدار!

أنشأ يتأمل في فتاته. ليتني أذهب إليهم اليوم، لكن من الحكمة انتظار يوم أو اثنين، غدًا أذهب مع الأسرة لزيارة بعض الأهل، ثم أطير إليها بعد غد.

وينهض في صبيحة اليوم الموعود يتوثب بالبشر والحبور، فيصطفي أجمل ثيابه ويسرِّح شعره المتموج بعناية، ثم ييمم شاطئ سيدي بشر الحبيب، فيرتقي الحافلة مع الراقين، ثم يفضِّل النزول عند بوابة الشاطئ الثانية، ليعد خلال المسير ما سيتحفها به من قول بليغ، ومع هذا يثق أن عواطفه ستمده بفصاحة التعبير.. نجوى:

obeikandl.com

أعلمتِ أي منزلة بالقلب تحتلين؟ فهل تحققين آمالي وتسعدين؟ متى تفصحين وتعدين؟ متى تبوحين: أنت أملي وحبي المستديم..

البحر اليوم وادع حليم، لجاته تبتسم لي، والناس على الشاطئ مبتهجين، وكأن كلاً بقلبه نجواه.. ها هو مربع المقاصير، حيث ملتقى أمانيك.. هل ستتعجّب: لماذا جئت لزيارتنا اليوم، وكنت منذ يومين؟ ولكني جئت أنازل وائلاً الشطرنج.. فأنا مولع بالشطرنج.
ويهمس ببيت مجنون ليلى:

كم جئتُ ليلى بأسبابٍ ملفقةٍ ما كانَ أكثرَ أسبابي وعِلاتي

ويدنو بخطوات متوجسة صوب الصخرة، فلا يلبث أن يراها وعفاف جالستين وحدهما تحت المظلة، فيموج بالفرحة. ربما تتاح معها الخَلوة. وعند وصوله يبادرها: صباح الخير. فيتطلق محياها وتجيب محتفية: أهلاً كمال، كيف حالك؟ ويمد يده يطبق على راحتها، ثم يصافح عفاف. وتدعوه للجلوس، فيجلس على مقعد أمامها، ويلقي بنظرِه إلى مقصورتهم، فيلفيها خالية، فيسألها عن وائل، فتجيبه بأنه يزور صديقًا على الشاطئ، فيرتاح لغيابه المناسب، فضلاً عن إعفائه من لعب الشطرنج المضايِق. وتنقضي لحظات صمت زاخر، ويراها تعمل إصبعيها منهمكة في شغل «التريكو»، والآن أي حديث يرقى به إليها؟ ويبادرها بأول خاطر:

- البحر جميل اليوم.
- نعم، هادئ وادع.
- هل تنزلين البحر؟

- ليس كثيرًا، ربما مرة كل أسبوع أو أسبوعين.

- هل تجيدين السباحة يا نجوى؟

- طبعًا مثل السمك.

فتضحكان، فيضيف:

- أو بالأصح مثل الحوريات.

- أجل.

ويتأمل: هي تبدو اليوم في مرح. وهنا تمر صديقة لعفاف فتهش لمقدمها وتقوم تصافحها، وتتبعها نجوى، وينهمكن في الحديث والضحك، فيجدها فرصة ليترسمها، ترتدي سروالاً قصيرًا أبيض، وقميصًا من «الدانتل» الأصفر، وشعرها الحريري جمعته في ربطة الفرس، أساريرها متوردة من الشمس، أما القوام فكالغصن، والسروال ينتهي إلى ما فوق الركبة بشبر. آه! ما بال الرضفة.. ليست كاملة الجمال متسقة! كنت أتمناها مثالية الحسن مكتملة! ومع هذا لا بأس، قليلات من حظين بركبة حلوة، كما أن هذا العيب يدنيها منك، فأنت أيضًا لا تخلو من نقص. آمل ألا يكون عندها سواه من عيب.

وفجأة يلفي عفاف تحييه وتنصرف مع صديقتها، وتعود نجوى لجلستها، فيفرح، فقد جاءته الخَلوة بلا توقع، فيجب ألا يفلتها ويعبر، فيستجمع شجاعته ويفصح:

- نجوى، لا أعلم إذا كنتِ لمستِ.. ما أَكِنَّه لكِ من.. شعور (ويلاحظها تحدق فيه بفضول، فيطرق يهمس) دائمًا أفكر فيكِ،

وصورتكِ في خيالي.. وقلبي..
ويلمح تضرج وجنتيها وتقطيبها، ثم تبادر معبرة عن استيائها:
- ماذا تقول يا كمال؟!! لا.. لا داعي لهذا الكلام!
وطفقت تعمل يديها في شغل «التريكو» بتوتر. فيوضح:
- ولكن أنا صادق، وهدفي شريف.. أنا أحبّكِ يا نجوى.
فتزفر في ضيق وتأفف:
- أرجوك كمال.. لا أحب أن أسمع هذا الكلام.
أسقط في يده وأبلس(١)، وخيَّم صمت مضطرب متكدر، ولا صوت غير خرير المياه حول الصخر.. خال سيفرحها فإذا هو يحرجها. قلبه ثقل، وحماسه خمد، ولا يعلم كيف يصلح ما فسد..! ويحدق في المياه ذاهلاً في كبد، ليته يغيب في اللجات مختفيا عن النظر، ليته ينسحب، يرجو القدرة لينصرف. وحضر في هذه اللحظة وائل في لباس البحر مبتل الجسم، فجلس وذكر:
- البحر جميل اليوم.. لقد سبحتُ طويلاً.
ووجد الفرصة ليقف مستأذنًا لينصرف، فحيَّاه طارق وتمتمت نجوى: مع السلامة. وأتل(٢) يبتعد بشعور منخذل، لا يلوي على شيء. ويتفكن في ألم: تعالت على الوصل، وتخلت عن اللطف، وما أذنبتُ إلا أن قلت: أحبك بصدق.

وألفى نفسه عند نهاية الربوة، فنزل الدرجات إلى باحة الشاطئ،

---
(١) سكت لحيرة ، أو انقطاع حجة.
(٢) قارب الخطو في غضب، أو مشى متثاقلاً.

مشتت الفكر، منكسر القلب، لِمَ استأتِ وجفوْتِ؟ لماذا تشوِّهين صورتك؟ بدا له الشاطئ كئيبًا سمجًا، بل الإسكندرية كلها، مشاهد بلا قلب، والجو قائظ ، والبحر ممل، هل خالت أنها كاملة بلا نقص؟ ووجد نفسه عند نهاية شاطئ «سيدي بشر الثالث» حيث شاطئ «المندرة» الخالي من المقصورات، بل رمال وقلة من الأفراد، فخرج منه عائدًا للبيت، بعد ساعة من مُحبَط السير.

(٢٧)

وفي الأيام التالية يحاول أن يتشاغل، فيذهب كل يوم إلى شاطئ، لكن الألم والشجن ما فتئ طابقًا، حتى ينقضي أسبوع ويجيء صباح الأحد، فتراوده نفسه لزيارة سيدي بشر، دافعٌ يدعوه للتريض فيه، فهو رغم كل شيء شاطئ جميل.

وتندفع به الحافلة على الكورنيش، تمرق خلال الرياح الرطبة، يرتطم بأذنيه هدير البحر الجياش، الذي ما برح يصطرع في انفعال، لا تكل أمواجه عن المَوران. وتنثني المركبة عند الطابية فوق الربوة، ثم تستوي في طريق على جانبه هِملات شتَّى خشبية، وتبطئ حركة المرور من فرط الازدحام، فالأحد بالإسكندرية يوم احتفال، ولا يستبعد أن الوزارة تعقد جلساتها على الشاطئ.

وينزل عند بوابة سيدي بشر الثاني فيدفع رسم الدخول، ويندرج في موكب الشاطئين المتجه لليمين، في لباس البحر وأردية

مزركشة اللون، وفتيات زهرات في المقصورات أو في الطريق، ويتذكر فتاته النافرة فيستاء. ويرسل الطرف صوب الرمال، فإذا بعينيه تقع على منظر عجاب، يتوقف أمامه مذهول الانبهار، كتل من الأجسام البشرية تناثرت على الرمال، لنساء يونانيات وإيطاليات، في لباسهن «البكيني» نصف عاريات، في عرض مثير خلاب، هن نماذج من الجمال، من الوجوه والنهود، والأرجل والأرداف، بشراتهن بين البياض الزاهر والمخضب الوردي، ويجد نفسه يغوص في الرمال، يجوس بين اللوحات.. أي رسم فتان؟! استلقين في استرخاء ناعم يستمتعن بالشمس والهواء، وكأنهن في غفوة أحلام، سعيدات بما تحلين من رواء، بأسارير توحي ببراءة الإغراء، بعضهن منفردات وبعضهن مع رفقاء، هل نجوى ترقى لهذا الكمال من الجمال.. وما يحير أن الجمال أنواع، وكلٌّ رائع فتان. وفجأة يشعر في بنيانه بأوار. مال الجو قد اشتعل هكذا بالحرارة، والأرض تصدر وهرًا بغزارة؟! هل ينبع من هذا البحر من اللحم، أم ما احتدم بجسمك من الدم! ما أروعها لوحة كنت أرسمها وأهديها لـ«فرويد». ثم يتذكر ما عاهد النفس عليه من استقامة، فينشأ الصراع بينه وبين الإرادة، إنه إغراء أقوى من أن أتحاشاه، فهل لي من تجربة لأعلم مذاق الحياة؟ بل يجب ألا أحيد عن الصراط، وأتمكن من السيطرة على الشهوات. ماذا كان يفعل عبد الله وناج وعصام؟ أيقاومون الرغبة ويقمعون الشهوة؟ وكذلك سمير وعبد العظيم وعمرو، كيف كانوا يسلكون أمام هذا الخضم.

ويتابع السير ينأى بنفسه عن مصطرع الفتنة، ثم يعود لذكرى نجوى ويتفكن في تردد: هل أيمم مقصورتها، فألقي من بعيد نظرة أتفقّد؟ وما البأس أن أنازل وائلاً الشطرنج.. أجل إني مولع جدًا بالشطرنج، وليس لي بها شأن.. أجل، جئت للشطرنج وليس لكِ..

وبينما يصعد الدرجات للربوة، يُفاجأ بزميله جميل يهبط السلم في مواجهته. فتنفرج أسارير جميل ويهتف:

- أهلاً كمال! كيف حالك؟ ماذا جاء بك هنا؟

- أهلاً جميل.. جئتُ ألعب الشطرنج.. أقصد.. جئتُ أتريض..

- ما نتيجتك؟

- نجحتُ والحمد لله.

- مبروك، أنا أيضًا نجحتُ.. إلى أي كلية قدَّمتَ أوراقك؟

- الحقوق.

- عظيم، وأنا أيضًا، وهل هناك غيرها، هي كلية العظماء (ثم يمسك بيده) تعال إذن نحتفل بشرب شيء بالمقصف.

فيوافق، يلفيها فرصة سانحة ليتخلص من تردده المعذب.

ويلاحظه كعادته في لباس متأنق، من سروال كحلي وقميص مزركش، ويفوح منه عطر منعش. وعند وسط الشاطئ، يدخلون مبنى من ثلاثة طوابق، فيصعدون للثالث، لمقصف راقص، ويلفيه غصٌّ بالشباب، يرقصون بحماس، على إيقاعات مدغدغة للحواس. ويسأله جميل هل يشرب جعة، فيشكره طالبًا غازوزة الليمون «سباتس»، ثم ينصرف بإعجاب يتابع الواثبين مع الإيقاع، هذه إذن

«السامبا»، يرقصنها بصحبة الشبان فتيات زهرات، في برقش الثياب، يهتززن ويتمايلن في دلال. وهذا لونٌ آخر من الجمال، لكنه راقص مع الأنغام. وينظر إليه جميل بعينين فاحصتين يسأله: لِمَ عيناك بهذا الاحمرار؟

- أحقًا؟! لا أشعر فيهما بألم (ويضحك) ربما من كثرة النظر.

فيضحك جميل يغمز بعينه:

- عندك حق، فعلى الشاطئ الكثير مما يدعو للنظر ويحمِّر العين.. كيف حال عبد الله، هل جاء إلى الإسكندرية؟

- لا.

- ربما ينظم مظاهرات في الإجازة.. لِمَ لا ينصرف كل منا لشئونه الخاصة، بدلاً من الإضراب، وتحطيم الترام، والاشتباك مع الشرطة؟! أهذا أم جلسة كهذه، كأس وموسيقى (ثم يغمز بعينه) ورفقة بنت حلوة، والاستمتاع بكل ما في الحياة من بهجة.. أمس كنت أرقص بفندق «سان استفانو» مع بنت إيطالية كهذه جميلة. ويشير لفتاة ترقص. فيتساءل بقلق: هل فطن جميل لطريق السعادة؟ وأخيرًا ينهضان خارجين من المقصف، فييمم بيته بفكر موزع.

(٢٨)

ويحاول في الأيام التالية أن يتشاغل عن ذكرى سيدي بشر، بزيارة الأهل والأقارب، والتريض والسباحة، فضلاً عن أماني

obeikandl.com

الجامعة، حتى يجيء صباح الثالث والعشرين من يولية فتحدث المفاجأة، الكبرى، فيسمع مع الأسرة خبر قيام ضباط من الجيش بالقبض على زمام الأمور في الدولة، فينصت لا يصدق أذنيه إلى نص البيان المذاع، بصوت البكباشي أنور السادات:

« اجتازت مصر فترة عصيبة في تاريخها من الرشوة والفساد وعدم استقرار الحكم، وقد كان لكل هذه العوامل تأثير كبير على الجيش، وتسبب المرتشون والمغرضون في هزيمتنا في حرب فلسطين.. (حتى ينتهي إلى القول) وعلى ذلك فقد قمنا بتطهير أنفسنا وتولى أمرنا في داخل الجيش رجال نثق في مقدرتهم وفي خلقهم وفي وطنيتهم، ولابد أن مصر ستتلقى هذا الخبر بالابتهاج والترحيب».

فيسري في بنيانه شرارة حماس كهربي، تدفعه ليقوم يهلل ويصيح ينتشي بالنصر: مصر الحبيبة، أرض الكنانة، ظهر الحق وزهق الباطل، أهي الصحوة الكبرى؟!! أتمناها ثورة عظمى، تحقق كل أماني الأمة. ويبتسم والده يقول: ضربة جريئة.. فلنهنئ أنفسنا بأن الجيش تحرَّك أخيرًا. وتضيف والدته: من كان يصدق؟! ويستطرد والده: أرجو ألا يتدخل الإنجليز. فينزعج ويبادر بغضب: وبأي حق يتدخلون؟ وماذا يفعلون؟ فيجيبه: المسألة ليست مسألة حق، لكن مسألة مصلحة.. سيتدخلون إذا وجدوا أن الثورة في غير صالحهم. وبدأ يتوجس، لكنه سرعان ما طرد هواجسه، يريد الآن أن يعبِّر عن سعادته، أن ينطلق للطريق يشارك المصريين الفرحة، لا ريب أن الشعب كله يموج بالحبرة، وينتشي بالنصرة، يتطلع لاهفًا لتحقيق

الأماني المنتظرة.

ويقبل عماه محسن ونجيب. فيقول محسن بوجه مشرق سعيد:
- حركة شجاعة باسلة، نرجو ألا يتدخل الإنجليز أو الأمريكان.
فيجيبه نجيب بعزم وثقة:
- لا، فات العهد الذي كانوا يتدخلون فيه، سيقف ضدهم الشعب كله.
وتتساءل والدته:
- هل يا ترى قام سيف بدور في هذا الانقلاب؟
فيعقب محسن:
- من يعلم! على كل حال، يحق له أن يفخر بما حققه الجيش.
ويومئ أحمد برأسه يؤيد ويقول:
- نعم، هذا يومهم، لطالما انهلنا عليهم باللوم.. المهم ما تسفر عنه الأمور!

ويندفع كمال صوب سمير، يريد ليطلق لسعادته وحماسته التعبير، وأن يهنئ كل فرد يقابله خلال المسير. ويلفي الناس في «جليم» ملتفين حول المذياع يهللون متفائلين، فرحتهم على الأسارير، يتناقلون الأخبار والتباشير، ويوزع بعضهم الشربات على العابرين، بينما البعض في رقص وتصفيق. وعندما يصل إلى «الإبراهيمية» يقابله نفس التعبير. هو لا ريب يوم عيد كبير.

ويستقبله سمير بترحاب وحماس فيسأله كمال عن الجديد، فيكرر ما سمعه، فيندفع في التعبير:
- والآن، هل سيُخلع الملك، ويُطهّر الحكم، ويُطرد الإنجليز؟

obeikandi.com

- على رِسلك يا عزيزي، هذه قضايا كثيرة خطيرة، تحتاج لوقت وحُنكة كبيرة.. الملك لا نزاع مخلوع، أما عقب هذا فلم يتضح بعد.. قد تجنح الثورة إلى أقصى اليسار، وقد تجنح إلى أقصى اليمين، لكن الإنجليز والأمريكان لن يقفوا متفرجين.

فيثور في غيظ:

- لن يتمكنوا من فعل شيء.. والآن يجب القضاء على البوليس السياسي، وعلى الفساد والمحسوبية، وعلى الأعداء الثلاثة: الفقر والجهل والمرض.

- نرجو أن تخف، لا أن تذهب كلها، والناس كما تعلم يا عزيزي جُبلت على الشر، فلا تتوقع الكمال.

- وما دور الإخوان المسلمين والوفد؟

ويشير إليه سمير بالصمت، حيث جاء بيان إذاعي جديد، يقطع الموسيقى الحماسية المستمرة، فيسمعان أن اللواء محمد نجيب قائد الثورة والبكباشي جمال عبد الناصر، قد ركبا سيارة جيش مكشوفة، تتقدمها سيارة «جيب» وتتبعها عشر سيارات، يطوفان في شوارع وميادين القاهرة، فتستقبلهما الجماهير بالهتاف والتصفيق، في حماس رعدي مهيب. فينتفض بالفرحة، ويهتف:

- ليتني كنت هناك أحتفل مع الأصدقاء، وأشارك الشعب فرحته.

(٢٩)

ذهبت وزارة نجيب الهلالي وألَّف علي ماهر الوزارة، وأُلغِي

اصطيافها بالإسكندرية، فحملت مهامها ورحلت من «بولكلي»، وأُلغيت الرتب والألقاب، وأصبح الحكم في يد مجلس قيادة الثورة برئاسة اللواء محمد نجيب. كما علم كمال في اليوم الخامس والعشرين بزحف قوات من الجيش إلى الإسكندرية، ثم توسط رئيس الوزراء على ماهر، لإبلاغ الملك بطلب التنازل عن العرش لولي عهده الأمير أحمد فؤاد، ثم مغادرته البلاد، في موعد غايته ستة وعشرون من يولية. ويمسك آل عبد الرحمن أنفاسهم وهم ينصتون لتطور الأحداث، يتبادلون نظرات الاستبشار.

وتقلع السفينة «المحروسة» بالملك من قصر «رأس التين» في الموعد المحدد، في هدوء وسلام، ثم يتوج كل هذا بأن تعلن الحكومة الإنجليزية والأمريكية اعتبارهما للأحداث بمصر من صميم شئونها الداخلية، ولا ينويان التدخل.

وتهدأ قليلاً سورة انفعاله للأحداث، وتعود ذكرى نجوى تحتل اهتمامه، لماذا لا أكتب لها موضحًا نواياي وأنها تجنت بجفوتها إياي، باذلاً في التعبير كل قواي. وبعاطفة جياشة أنشأ يكتب:
نجوى: عندما صرَّحتُ لكِ ذلك اليوم بأسمى عاطفة يَكُنُّهَا إنسان لإنسان، لم أكن أقصد إساءة أو لهوًا، بل كل تقدير وإخلاص، مترفعًا عن كل ما هو مادي مبتذل.. قلت لنفسي هي ملاكٌ راقٍ، خليقة بحبك، وإذا كنتِ في ريب، فمستعد للتعهد والارتباط.

كمال عبد الرحمن

يكفي هذا، يجب أن تكون موجزة مؤثرة.. لكن كيف أوصلها إليها

obeikandi.com

هذه هي المشكلة؟ وأنا أجهل العنوان، وقد تقع في يد إنسان. ويزفر في غيظ: لماذا أسعى وراءها على الدوام، دون بادرة منها أو اهتمام؟ ربما الأفضل ألا أكترث لشرح، إنه ينم عن ضعف. ويمزق الرسالة. ثم يعترضه هاجس مضايق: هل هي حقًا كاملة الصفات؟

وفي اليوم التالي يصحو من نومه في توتر، يعلو صدره ويهبط، عاوده حلم الطيران ثانية، لكن هذه المرة مقبض مكدر، رأى أنه يطير من فوق سطح عمارتهم، فوق أشباح أبنية وطرق مظلمة، ثم يجد نفسه فوق جبل المقطم، لكنه لا يصمد في الطير، فيهوي تدريجيًا في قهر، حتى يستقر على الأرض، بمكان موحش قفر، صدره ضيق وتنفسه مختنق.. يا لها من رؤيا مقبضة. وأنشأ يستعيذ بالله محاولاً أن يهدئ من روعه.

وفي الصباح يُفاجأ بزيارة ناج له، فيهش ويتعانقان في فرح. ويعلم أنه ينزل عند عمه بحي « كليوباتره ». ويسأله عن الأحوال في القاهرة، فيجيبه بأن مصفحات الجيش منتشرة في الطرقات والمناطق الهامة، والرايات في كل مكان معبرة عن الفرحة، أما الباقي فهو يعرفه. ويدور بينهما حوار حول الأحداث، ثم يسأله ناج عن أسرة العيسوي بك وهل رآهم، فيستاء للذكرى، ثم يتمالك نفسه ويذكر أنه زارهم مرتين بالشاطئ، فيذكر ناج أن ناهد تنشد زيارتهم غدًا، فهل يصحبهما. فيتردد، لا يريد لقاء آخر يحرج. ومع هذا هي فرصة لأسبر شعورها، ربما لمسَتْ خطأها. فيتفقان على اللقاء عند بوابة الشاطئ في الحادية عشرة، ثم يسأله كم يومًا سيبقى في

obeikandl.com

الإسكندرية، فيجيبه:
- ربما خمسة أيام أو ستة، حتى الخميس أو الجمعة، فأمامي بعض الإجراءات للالتحاق بمعهد الموسيقى، ولكن ناهد باقية.

(٣٠)

ويصل كمال بوابة الشاطئ في الموعد، وسرعان ما يصل ناج وناهد، فيراها متألقة كثمرة في أوج نضجها. وتستقبله بحفاوة وابتسامة وضَّاءة. ويدخلون يسيرون صوب مربع المقاصير، فيجدون نجوى ووائلاً وعفاف، لكن لا أحد من الآباء. ويتصافح الجميع، وتمد له نجوى يدها ببساطة مبتسمة، ويجلس بينهم. فتستأنف نجوى ما كانوا فيه من حديث:

- من كان يصدِّق أن الملك يخرج من البلد بهذه السهولة؟!!

ويعقِّب وائل:

- وكنا نتكلم عن لهوه وعدم قناعته منذ أيام فقط.

- ونتكلم عما في يده من قصور ونِعَم!

فتعقِّب عفاف تضحك:

- لقد حسدناه..

فيضحكون، ويعلِّق ناج:

- الحمد لله أن كل هذا تمَّ بلا سفك دماء.

ويختلس كمال النظر إلى نجوى فيلاحظ بشرتها كستها الشمس بصبغة خمرية، أضافت إليها جمالاً وفتنة، وتتكلم بمرح وتلقائية،

obelkandil.com

أما ناهد فتتفجر حماسًا وحيوية، منطلقة في الضحك خلية، وصبغتها الشمس أيضًا بصبغة وردية. ثم ينضم إلى الحوار يعبِّر عمَّا بصدره من نشوة بانتصار الثورة:

- يجب أن نعبِّر عن تأييدنا نحن الطلبة ونساهم في الأحداث.

فيسأله ناج عما يقصده:

- أقصد أن نتبادل معهم الرأي والمشورة في مصير الوطن وما يجب عمله للإصلاح وتحقيق الأماني الوطنية.. وإلا فكيف تكون ثورة ونحن لا نساهم فيها؟!!

فيعلِّق وائل:

- لا أظنهم يهتمون برأينا.. بل في أذهانهم خطة يسيرون عليها.

ويتساءل ناج:

- هل يا ترى مسلِّمون الحكم للقانونيين المخلصين ليعيدوا بناء الحياة النيابية؟

- لا أظن، أنا من رأي والدي أن من يعتلي الحكم لا يتركه بسهولة.

فيفصح كمال بصوت متردد:

- نحن الآن بحاجة لحاكم عادل قوي يتمكن من بناء أمة جديدة قوية، فماذا نفعتنا الأحزاب والديمقراطية؟!

فيعلق ناج ضاحكًا:

- واجبهم الملح الآن، القضاء على أعدائنا الثلاثة: الفقر والجهل والمرض.

وتضيف نجوى باهتمام:

- للآن لا ندري ما ستسفر عنه الأمور.. أرجو فقط ألا تكون هناك

صراعات.
ويتأمل في تعليقها الذكي، من يعلم حقًا ماذا تسفر عنه الأمور! أما أنتِ فعمًّا تسفرين؟ هل علمتِ خطئك، وأدركتِ ظلمك؟
ثم يسمع ناهد تقول:
- ما أجمل الإسكندرية.. ليتني أبقى فيها مدة طويلة.
ويرمقها بنظرة فاحصة. هل نسيتِ وعفوْتِ عن هفوتي! أحيانًا أرى بطرفها بريق الدعوة، وأساريرها تهش لي سخية.. لكن لا.. أتمنى ألا يكون لي مكان بقلبها، فلا يسعدني أن تعلق بي وأنا بغيرها، إن قلبي تعلق بنجوى، لكن مع هذا، لن أنساق في حبي حتى أدرك شعورها صوبي.. وحتى ذلك الوقت سأتحفظ في عشقي.

وتبدي عفاف رغبتها في السير وزيارة بعض الصديقات، وتدعو نجوى وناهد، فتلبيان وتنهضان، على أن يعدن بعد ساعة. فيقترح ناج على كمال ووائل أن يتريضوا بالشاطئ، فيعتذر وائل لانتظاره صديقا، فيتركانه. ويهبطان إلى باحة الرمال سائرين في الطريق أمام المقاصير، وبمجرد هبوطهما يلفي كمال نفس خليط الأجسام الأنثوية مبعثرة على الرمال في إغراء، فيفغر فاه ويتذكر أن اليوم الأحد ثانية، فرصته أن ناجيا معه، ليستشف نوازعه، فيلفت نظره إلى اللوحة الفاتنة، فينبهر هنيهة ثم يضحك قائلاً: هذا عجيب مثير. فيسأله: أليست لوحة رائعة؟ فيجيب: نعم، هي سيمفونية حوت كل السلالم الموسيقية. هي ملحمة سيمفونية. فيضحك يعجب بتعبيره الفني ويفصح: نعم، هي ملحمة.. ملحمة بشرية. ويقول له ناج:

دعنا نبتعد أسلم. فيغبطه لبروده وتمالكه لنوازعه، ثم همَّ أن يفصح له عن تعلقه بنجوى، وما بدا منها من جفوة، لكنه صرف الفكرة لما تذكِّره من هوان، وهل بينهما شيء يستحق البيان؟

وبعد ساعة من السير يعودان للمقصورة ثم للبيت.

(٣١)

انقضى سبعة أيام منذ رأى ناجيًا وناهد، فاشتاق لزيارتهما هذا الضحى. وينزل من الترام بمحطة «كليوباتره» يترنم بأغنية عبد الوهاب: «كليوباتره.. أيُّ حلمٍ من لياليكِ الحِسان..» هل كنتِ تتمتعين بالاستحمام ها هنا بهذا المكان؟! أو الأصوب، كان الشاطئ يستمتع بصحبتك في افتتان! يوم كان الدهر صبيًا في المهد نشوان! ويسير بشارع كليوباتره الغاص بالمصطافين اللاهين.

الحيُّ هنا أكثر ازدحامًا وشعبية من «جليم»، لكنه أيضًا يغص ببنايات عتيقة الطراز مزينة بالنقوش، معبرة عن اهتمام سالف الأجيال بالفن في البنيان. ها هو الشاطئ يموج بأفراد الشعب المتحررين من القيود، ضيق غزير الصخور، تتكدس فيه الشمسيات متلاصقة متساندة، وتكثر فيه الأمواج المتلاحقة الزابدة. قالوا مقصورتهم الخامسة والثلاثون.. ها هي ناهد جالسة، وكهل وامرأة وفتى وآنسة. ويدنو منهم بخجل فيحييهم، فتنهض ناهد تهش فرحى لقدومه، تمد راحتها البضة تصافحه، ثم تقدمه لأقاربها

وتدعوه للجلوس، فيسألها عن ناج، فتخبره بسفره أمس الأول. نسِيَ أنه قال سيبقى لخمسة أيام! أم أنه جاء لناهد؟ ويقف يتردد، فتعاود دعوته ليجلس، فيذكر أنه سيبحث عن صديق، ويهم لينصرف، لولا أن ومض له خاطر ذو إغراء، فيخفض من صوته يفصح لها:

- لقد خطرت لي فكرة.. ربما.. تروق لك.. إذا أحببتِ أن تتفرجي على الإسكندرية فيسعدني أن أصحبك في نزهة مسائية.

فتلتمع عيناها ببريق خاطف، تفكر لحظة ثم تجيبه مبتسمة:

- فكرة.. أنا فعلاً أحب أن أرى الإسكندرية.. متى تود ذلك؟

- ما قولك هذا العصر.. الساعة الخامسة مثلاً؟

- وهو كذلك، نتقابل هنا أمام المقصورة.

ويتركها سعيدًا، لا بأس من اصطحابها في نزهة بريئة.

ويفضل البقاء بالشاطئ، فييمم وحدة خلع الملابس، فيستبدل ملبسه ثم ينزل البحر، فيسبح لفترة، ثم يجلس بمقهى الشاطئ بعد شرائه جريدة الأهرام، يرصد الناس والرجاس، ويتأمل مصير الأيام. ثم يهمس بحماس: لو أتمثل بالبحر، فأثابر على الهدف بعزم وإصرار. ويقرأ أحداث الثورة وتطورات الأمور، يبدو أن محمد نجيب هذا مخلص غيور.

وعندما تجيء الساعة الثالثة، ييمم مطعمًا بالحي فيلتهم صحنين من الفول والفلافل، ثم يسرح فوق رمال الشاطئ، يراقب لاعبي المضارب، حتى تشرف الساعة على الخامسة، فيلبث أمام المقصورة، حتى يراها قادمة، تتثنى فوق الكاعبين برشاقة فاتنة.

أوشكتُ ألا أعرفها! في أوج زينتها، ترتدي ثوبًا كحليًا يزيد من حلاوتها ونصاعة بشرتها، شعرها الحريري يتدلى على كتفيها، وجنتاها تبدوان كتفاحتين، وشفتاها كوردتين، فيعتريه الزهو، أمن أجله كل هذا الرسم؟! ويحتوي راحتها الريانة يصافحها ببشاشة، فتضحك له العينان بصمت، ويسيران جنبًا إلى جنب. وفجأة يغشاه وازع مكدر. أما كان الأحق أن يرافق نجوى، فتكتمل سعادته ويصدق كل قول.

ويصعدان إلى الكورنيش، يتهاديان صوب «اسبورتنج». ويمد ناظريه يحدو الشمس في الأفق. وتسأله لماذا هو صامت، فيبادر ينفض عن خاطره الهواجس، ويتحول إلى المرح يداعب:

- لا شيء.. على فكرة أين «كليوباتره» اليوم؟ لم أرها بالشاطئ!

- لم تحضُر، فهي متوعكة اليوم.

- أم غارت منك وخشِيَتْ التنافس؟

فتضحك وتجيب بدلال:

- ربما.

ويتأمل: يريد أن يختبر مقدرته على الغزل والاستمالة، فليمزح ويلاطف باحثًا عن الدلالة، بمرح وحبور حتى الثمالة. فيستنشق الهواء ملء رئتيه ويبادرها:

- ما ألطف هواء الإسكندرية العليل.. إني وقعت في هواها.

فتضحك لاهية:

- خذ حذرك: الهوى ما له دوا.

فيضحك يميل برأسه للوراء، ثم يسأل:

- هل نزلت في البحر؟

- لا.

- هذا أفضل، فلا تتعرَّضين لغزل الشبان.

- لا تخف، فلا أسمح لأحد بمغازلتي.

وأراد أن يقول: له بعض العذر إذا كان غزلاً عابرًا، لكنه أمسك، من الحكمة ألا يتمادى في الغزل. ثم يسنح له أن يسألها عما يحيره، لعله يجد عندها إجابة تقنعه:

- بالمناسبة، تمنيتُ أن أعلم كيف يعرف الفرد إذا كانت امرأة تحبه؟

فتهز كتفيها تضحك وتجيب:

- ستعلم عندما تقع في الحب.. أتذكر عندما كنت تقول صغيرًا: أريد أن أرى كل شيء.. وأعرف كل شيء.

ويفاجأ. أما برحَتْ تذكر؟ ويتذكر حيرته وتساؤله الدائم، فيسأل:

- أما فتئتِ تتذكرين؟

- وكنتَ تقول: أريد أن أطلع لنهاية السماء وأمسك النجوم بيدي.

- هل قلتُ ذلك؟! أجل، الآن أتذكر.. وأنتِ كنتِ كالقطة الوديعة تصدِّقين ما أقول.

فيضحكان. ويصلان هذه اللحظة إلى شاطئ «اسبورتنج»، فيسألها أين تريد أن تذهب، فتترك له الاختيار، فيقترح الذهاب لمحطة الرمل بالترام، فتوافق.

وينزلان هناك، فيلفي المحطة غاصة بالرواد، وبها كشك للجرائد

obeikandi.com

والمجلات، وبائع للفشار والمكسرات، وآخر للجيلاتي والمرطبات، وعلى اليمين فنادق عريقة الطراز ذات رواء، وعلى اليسار خيالة «ريتس» ومقاهٍ ومطاعم، وفي جانب ميدان صغير أمام البحر، انتصب فيه تمثال الزعيم سعد زغلول في عزة وكبرياء. ويبتاع كيسًا من الفشار، طفقا يلتهمانه خلال سيرهما بنجد «صفية زغلول»، الذي يعج بالسابلة، خاصة اليونانيين. وتبدو له ناهد تفيض بالفرح والمرح، فيبتهج لفرحها ويطلق لفكاهاته العنان، يتوثب بالحيوية والنشاط، محتدم البنيان، من أثر الشمس والاستحمام. ويطفئان ظمأهما بزجاجة من «الفمتم» ثم يعودان أدراجهما للبحر، فتستقبلهما رياح قوية مرطبة، ويرى أذرع الشمس الغاربة تتراجع عن جدران الأبنية، ثم لا تلبث أن تتوارى وراء الأفق راحلة، مخلفة سماء مخضبة، من أثر توقد العاطفة.

ويسيران حول تمثال سعد زغلول حتى يبدأ الليل يرخي سدوله، وتشتعل محطة الرمل بالأضواء الباهرة، موحية ببداية سهرة ممتعة، فيقترح عليها الجلوس بمقهى «أتنيوس»، يتذَّكر جلسته الممتعة هناك مع سمير، فتوافق، ويصطفيان مائدة قريبة من الجوقة العازفة، التي تصدح أنغامها في المكان مبهجة، ويلفي القاعة تغص بالشباب، جُلّهم من اليونانيين والبحارة الجوالين، وراقصين يتوثبون مع إيقاعات «السامبا» الناغشة، تغلِّفهم الأضواء الساطعة. ويطلبان كوبين من «الكاساتا» المرطبة. ثم بعد الانتهاء، يبتسم لها سائلاً:

- هل تسمح معلمتي بمراقصتي؟

- بالطبع.
ويندسان بين الراقصين يقفزان مع إيقاعات اللحن المدغدغة، ويتأمل منتشيًا: أي حياة ملونة لم أعرفها إلا الآونة، تزلزل كياني بمشاعر مسكرة! وما أريد أن أستوضحه: هل تُضفي ناهد على النغمات سحرها، أم هي النغمات تخلع عليها رواءها؟!

وتبتدره ناهد متعجبة: لقد صرتَ راقصًا ماهرًا! فيجيبها: والفضل يرجع إليكِ. ثم تجيء مقطوعة من «المارنجي» تختال متغطرفة، فتنثنى معها الأعطاف متخلجة، وتبدو له ناهد في فتنة آسرة وهي تتقصف مع الإيقاعات متدللة. ثم تجيء مقطوعة من «التانجو» الحالمة، فتسلمه صدرها وكيانها مُكرِمة، فيسري في بنيانه مس كهربي، بلغ ذروته من جراء ما يمور(١) من طاقة بباطنه، ثم تعتريه مشاعر الحرج والارتباك، فيقاوم طغيان الإغراء، فينأى بجسمه قليلاً، ولكن قوة في باطنه مهيمنة تصدت متأبية، فيسلم لها القياد مذعنًا، يرحب بعطف الحنايا، ساعيًا وراء الخفايا، متجاهلاً عواقب النوايا، وماذا أفعل وقد ذقت من نجوى هوانا ؟!

وعندما تشرف الساعة على التاسعة تستأذنه في العودة، فيقوم ويسريان على الكورنيش، وهو ما فتئ مسحورًا بالموسيقى والرقص. بنياني يجيش كالخضم، يتلهف لأشياء تتعذر على النَّيْل، ولا يمكنني هذه اللحظة أن أميِّز: أهذا الجيشان من داخلي أم من

(١) يتحرك ويتدافع ، يضطرب ويموج.

اليَم؟! وما ألطف هذا الهواء الرطب أملأ به رئتيَّ، وأري البحر تضحك لي أمواجه بأسنانها الماسية، تحت أشعة القمر الفضية، وهي تتعانق وتتداعب مفتونة بسحر الأمسية.

ثم ينثنيان صوب الترام، فيركبانه صاعدين لطابقه العلوي، فيجلسان بجوار النافذة، فيمر بهما خلال دور وبساتين يانعة، فتحمل إليه النسمات رياحينها المنعشة، فيهمس في سكرة: ليتكِ تتأخرين أيتها المحطة.

أخيرًا يهبطان من الترام يسريان في نجد سكنته عمائر عتيقة، يداهما متشابكتان، حتى تشير لدرب ضيق فينثيان، ثم بعد خطوات تتوقف أمام بناية من ثلاثة طوابق، فيرافقها بفضول للداخل، فيرى الردهة خالية تسبح في ضوء خافت. وتهمس له مفترة الثغر ممتنة:

- أشكرك على الليلة الحلوة.

فيهمس في نشوة:

- أنا الذي أشكركِ، كانت أمسية ممتعة.. إني حقًا أهوى الإسكندرية.

فتضحك وتهمس برقة:

- والهوى ما له دوا.

وتبتسم في دلال آسر، وتتثاءب بعينين حالمتين، فتنفذ نظراتها في باطنه، فيلفي نفسه يدنو منها بقوة مهيمنة، فيضمها لصدره بحرارة غاشية، يهوي على ثغرها الريان بقبلة ظامئة، فتتقبلها ساكنة، للحظات مسكرة، حتى تتخلص وتضع إصبعها على فمه هامسة: تصبح على خير. وتولي للسلم راقية.

فيعود أدراجه صوب الترام. ثم يبدأ يفيق من السكرة ويسترد وعيه فجأة، فتخنقه غصة، ويشعر في قلبه بوخزة..لماذا زلَّ ثانية وأخطأ؟! لماذا تنكَّب؟ وحث الخطى يريد الفرار مما فعل.. يا لها من زلّة مخزية! لماذا.. لماذا أقدم على الضلالة ثانية؟؟ أهو صادق العاطفة، نيته صافية؟ الآن من شأنها أن توليه الأمان، وتمنحه قلبها باطمئنان، وهو قد أثبت أنه نذل جبان، ما رعى للجار حرمة ولا للصداقة صان.. والأجلّ: إغضاب ربه، وإغفاله لنواهي الإسلام.. فنكث ما عاهد عليه النفس، من استقامة وطهر. وطفرت لعينيه العبرات، وأجهش يهم بالبكاء.. لماذا ضعفت، لماذا استسلمت؟ وما ذنبها أن اطمأنّت لي ووثقت؟

واعتلى الترام ذاهلاً عما حوله.. ولماذا لا أحبها وأتزوج، وقد رفضتني الأخرى وتخلت! ولكن.. رغم أنها تفتنّي، لا تلهمني.. تمتعني، لكن لا ترفعني..

وجاءت محطة «جليم» فنزل يجر قدميه نادمًا، ثم يتمتم مواسيًا: أشفى المصيف على الانتهاء ولا عودة للغي والضلال.

obeikandi.com

المرحلة الثانية

(١)

راح عمرو يهبط درجات سلم داره الحجرية التي أبلاها القدم، يحق له الليلة الغبطة لما جهز من خطة، اتفق مع صديق أن يقرضه شقته، ليختلي بأميمة، ضاق بالكلام وما صار يطيق المراودة، ما عاد في قوس الصبر منزع، وهي تتمادى لا تعبأ، في حين أنه باللهفة يتأجج. سيلتزم السلوك العملي، وطالما فلح، منذ خالط عبد العظيم وصحبه فشِل. الليلة ينبغي له أن يبرم.. تشترط العقد، كيف؟ وما انفك موظفًا فقير الدخل؟!

ويوافي ميدان السيدة زينب، فيندفع فيه حيث موعدهما لدى ناصية شارع المبتديان. هل تزعم أن وظيفة «الباشكاتب» تُغني؟! ويستعيد ما دار هذا الصباح بالمكتب فيربد ويسخط، مشادة أوشكت على النيابة لولا تدخل الزملاء والتشفع. كان قد تسلم عمل زميل مريض فتكفل بمسئولية قضاياه، فحضر كاتب محام يسأله هل تقرير الخبير وصل؟ فبحث في الأوراق فلم يصل، فمدَّ الرجل يده بورقة مالية يدسها في راحته ويتوسل: أرجوك يا حضرة الباشكاتب

obeikandl.com

ساعدنا.." يزعمه يتمنع من أجل رشوة، فانتفض مهتاجًا يستشيط امتهانًا، ثم انفجر يصيح به مُصرًا على تسليمه للنيابة معاقبًا، وأمسك بياقة سترته رافضًا رحمته، فبُهت الرجل وتوجل مستعطفه: ما قصدت هذا لا سمح الله.. إنما هو تقدير لك. وتقاطر الزملاء يتساءلون، ثم صاروا يستسمحون، في حين صاح به مغمغمًا: ماذا تزعمني؟ مرتشيًا مجرمًا! هذه جناية، ينبغي تأديبك وتسليمك للنيابة. وابتسم زميله المرتشي فاروق وقال ساخرا: يا سيدي حلمك، حصل خير، وقال آخر رابتًا على كتفه: «معلش» يا سيد عمرو، المسامح كريم، وإذا بهم يدافعون عن المجرم وكأنه هو المذنب، فانقلب عليهم يسخط: «معلش».. «معلش»، هذه الكلمة والموالسة أوردتنا موارد التهلكة، يا ناس نحن في ثورة.. ألم تهزكم الثورة؟!! ينبغي لنا الإقلاع عن هذا التهاون والسلبية؟ فربت شفيق على كتفه مهدئا: عندك حق، لكن إذا بلَّغت، سيدخل السجن، وأين تروح أسرته؟ فاستشاط ناهرًا: يا ناس، البلد ضاعت من هذا الإغضاء والتستر. وأخيرًا أُخلى سبيله، ليستمر يرشي غيره مفسدا.

ويوافي ناصية المبتديان، فيقف منتظرًا، باق ثلاث دقائق على الموعد، عساها لا تتأخر، خصلة التلون. وتلو عشر دقائق يلقاها متهادية تتبختر، فيتبادلان التحية، فيمسك بيدها يقودها لشارع قصر العيني، فتسأله إلى أين؟ فيجيب: إلى «عابدين»، فتسأله: إلى أين في «عابدين»؟ فيجيب: لحفلة صغيرة بيننا. فتتوقف تسأله متفرية: ما هذه الألغاز؟ فيعرب: ببساطة ترك لي صديق شقته لنجتمع بها..

نأكل ونشرب ونستمتع. فتتشاوس[1] إليه وتقول محتدة تستنكر:

- هل جننت؟

- ولماذا أجن؟!

- أنت تعرف أني لا أذهب إلى شقق.

- ولم لا؟! هي شقة مليحة ستعجبك.

ويشاهد على قسماتها علامات الضيق، فيبتدرها فاريًا بصوته المبحوح:

- ألا تخشين الرواح لمكان العام لئلا يراكِ أحد المتربصين؟ ثم أنتِ لستِ بقاصر، بل بالغ رشيدة!

- لمَّا خرجت معك لم يكن بنيتي أكثر من نزهة بريئة، أما العلاقات المحرمة..

- علاقات الهوى محرمة!

- ولماذا تهرب من الحلال؟

- لا أهرب، إنما أنتظر الوقت الملائم.. أنا الآن طالب.

- لا أطلب غير علاقة شبه رسمية، حتى يحين الوقت المناسب.

- تقصدين الخطبة؟

فتومئ برأسها بحياء مطرقة، فيتفكر في المغبة، ثم يحاول يقنعها:

- صدقيني يا أميمة، ليس معناه أني أرفض الرباط، لكن إذا تقدمتُ لأبيكِ الحين فماذا أقول؟! موظف صعلوك!

- سنجد الحل المعقول.. أما أن نتقابل في السر، فهو ليس بمقبول.

---

(١) تنظر إليه بمؤخرة العين ، تكبرًا أو تغيظًا.

- بل مقبول ومحبوب..

- طبعًا، ماذا يضيرك أنت؟

- خلاص، انتهينا.. أبغي أن أحدثكِ عن مشادة وقعت بالمكتب بيني وبين وكيل محام.

ويروي ما حصل متوقعًا استنكارها، لكن يلقاها تعرب غير عابئة:

- هذه رواسب قديمة ستأخذ وقتًا حتى تزول، لا تغضب هكذا.. هذا منه كثير.

- حتى أنتِ تقولين هذا! كلا ينبغي لكل مواطن أن يلتزم بالمبادئ والقانون، خرج الملك وأتباعه من اللصوص، وصار على الشعب أن يتطهر، ألم تسمعي النداءات الموجهة للأحزاب والمؤسسات بأن تطهر نفسها؟

ويوافيان ميدان الإسماعيلية فيقترح ركوبهما سيارة أجرة، فتقف تتشاوس إليه تتمنع مصرة، فيعرب متضايقًا بخيبة:

- ربما تكون هذه آخر نزهة.

ويمشي بجوارها صامتًا، ثم لا يعتم أن يعرب فاريًا:

- أتبغين أن نظل هكذا نمشي؟!

- ولماذا لا نجلس؟

- ثم ماذا نفعل؟ نتكلم ونتكلم! قد أوجعني فمي من التكلم.

فتمسك بذراعه وتقول غامزة بعينها:

- لكنه لا يوجعك من الأشياء الأخرى!

فيفهم تلميحها فتنفرج قسماته ويهتف:

- وأين هذه الأشياء الأخرى؟

obeikandl.com

فتضغط يده قائلة بصوت مستميل:

- لا تتعجل، كل شيء بأوان.. اِهدأ بالاً، ولنذهب إلى السينما.

ويتنهد سائلاً:

- أي خيالة تبغين؟

- سمعت أن سينما «كايرو» بها فيلم جيد.

فيمد يده زافرًا بتسليم: هيا بنا إذن. ثم يتسلل إلى أذنيه أغنية:

على الإله القوي الاعتماد بالنظام والعمل والاتحاد

فيضغط على كفها ويعرب متحمسًا:

- أتسمعين ما يقولون، هذا ما ينبغي لكل امرئ عمله.

ويمشيان بشارع عماد الدين لدار سينما «كايرو». فيهدر بديخلته: صبرًا ثم صبرًا مع المليحات، لا بد للشهد من إبر النحل.

ويكثبان بالدار طالعيْن لأعلى الشرفة نأيًا عن العيون، ويشكر للظروف أن الزوار قليلون، ويخالسها النظر للنهدين الناضجين، ثم القد الرطيب، فيزدرد الريق.. بما إنها انتقت الخيالة حيث الخَلوة، لترضيني بعد عزوفها عن الشقة، وبما أن لها أيضًا شهوة، فبناء عليه، ستتجاوب وتتغاضى عما يصدر مني من نزوة. ويغتبط لملاءمة الرواية لمقتضى الحال، شاب يغازل ابنة الجيران، ثم يختلي بها في الشقة ويغرقان في المتعة، فيبادرها: أترين ما يفعل الناس بلا أزمة؟ شيء عادي.. عادي جدًا. فتبادره متفرية: هذا المجتمع الأمريكي وليس مجتمعنا. وما عتم أن جذبها إليه بلهفة، غائبًا في عناق متأجج الرغبة، حتى تتملص وتمسك بكفه بين

obeikandl.com

راحتيها معربة:
- اِهدأ.. اِهدأ..

وبخروجهما تحاول إقناعه متعاطفة:
- أرجوك يا عمرو افهمني، لا بد أن أراعي المجتمع وتقاليده، إن علاقتنا ستكون أحسن لو.. لو خاطبتَ أبي.
- وهل حينئذٍ تروحين إلى الشقق؟
فتومئ دون أن تنبس، فيعيد القول ليستوثق:
- أتعدين؟
- أعدك.
- سآتي أباكِ غدًا.. أسيكون موجودًا مغربًا ؟
- نعم.
- اتفقنا.. إن غدًا لناظره قريب.
ويأخذان سيارة أجرة، وكالمعتاد ينزلان بنهاية شارع المبتديان، فتصافحه مغادرة، وطلعتها مشرقة لما ينتظرها من آمال واعدة.

(٢)

راح عصرًا يجهز نفسه للقاء المهم، سيعرض إيجابه على الأب، فإن قبِل، تم العقد، وصارت أميمة طوع اليد، ما هي عدا خطبة عند النزاع تُحَل.. أما إن تطلبت هدايا وفرح ودعوات.. ثم هز منكبيه. ليكن، لستُ أول من خطب، ألم أضق ذرعًا بالمداورة والمراودة،

تواقًا للضم والمعانقة.. إن مطاردة الإناث أدَّى لرسوبي في المدني والاقتصاد، بله الحصول على تقدير، لهذا ينبغي لي الإعداد للتفوق، وعلى الأخص بالسنة الرابعة، عساي أودِّع حياة الصعلكة والمهانة. لم يفضل عدا سنتين.

ويرتدي الحلة الكحلية ورباط العنق الأزرق الأحمر، ويُلقي على المرآة نظرة، معاينًا الهندام والهيئة، لا غضاضة. ويدهن شعره الناعم مرجلاً، ثم يتوكل للغرض الميمون متفائلاً. الحين أتصرف طبقًا للمدرسة العملية فالحًا.

ويدخل عتبة دارهم الرطبة المعتمة، يطلع السلم الحجري القديم، مستعيدًا ليلة أن أقدم فاحتواها تحت السلم في الظلمة، فيهمس: من الآن سأحتويها بحرية بالشقة. ويصل للدور الرابع، متجهًا للشقة التي على اليسار، فيقرع الباب متمتمًا: عساها الآن تسعد. وينفرج الباب عن صبية، سنها تناهز إحدى عشرة، تطالعه بعينين متسائلتين، يزعمها أختها، فيذكر اسمه طالبًا مقابلة السيد عبد الرازق، فتدعه وتدخل فتفتح بابًا آخر، داعيته لحجرة الاستقبال، فيجدها متواضعة الأثاث. فيهمس: هم في نفس مستواي المتواضع. وسرعان ما يدخل عليه السيد عبد الرازق في عباءة سوداء فوق المنامة، طويل ضامر، متغضن الوجه يابسه، فوق رأسه طاقية بيضاء، يجلس مُرحِّبًا به: أهلاً وسهلاً سعادة البيك. فيجيبه:
- أهلاً بك.. أنا عمرو السخطاوي جاركم في الدار المواجهة، كاتب بمحكمة مصر الابتدائية، وطالب بكلية الحقوق بالسنة الثالثة..

ورغم سكني هنا منذ شهور لم يسعدني الحظ بالتعرف إليكم.. إلى أن أُتيحت لي الفرصة أخيرًا..

ويطرق مستجمعًا أفكاره، والرجل يتطلع إليه بكل اهتمامه، فيعرب:

- سأدخل في الموضوع مباشرة.. دريت أن لكم ابنة على خلق وتعليم.. فأتيت أطلب يدها.

فتتسع عينا الرجل مسلطًا عليه البصر، ثم يقول مبتسمًا:

- هذا شرف لنا على كل حال.

- أبي يعمل مزارعًا بالمنصورة ولي أختان، إحداهما بالقاهرة، زوجها موظف بمصلحة المساحة، والثانية بالبلدة، وزوجها تاجر، ولي أخوان صغيران بالثانوي.

- ربنا يخلي.. كم عمرك يا سيد عمرو؟

- ثلاثة وعشرون.

وتدخل الصبية التي فتحت له، حاملة صينية عليها كوبا شاي، تناول أحدهما شاكرًا، وتلو انسحابها يطرق الرجل برهة قصيرة، فيعاين بروز عظام وجنتيه وجفاف بشرته السمراء، مقرنًا قسماته بقسمات أميمة الحسناء، ثمة شبه، على الأخص أنف الرجل الطويل، ذكرت أميمة أنه موظف بوزارة الصحة، في الغالب لم يتعد تعليمه شهادة الكفاءة أو التوجيهية. وينتبه لقول الرجل:

- أشكرك يا سيد عمرو، لكن لا أستطيع أن أعطيك ردّا قبل استشارة العائلة.

- بالطبع.. بالطبع.

- سأعطيك الرد بعد.. أسبوع. ولو سمحت، أعطني اسمك كاملاً، والقسم

الذي تعمل به بمحكمة مصر.
فيكتبه له ويحتسي ما تبقى بكوب الشاي ثم ينهض للرواح، فينهض الرجل ويتصافحان بقوة، ويقف مودعه على العتبة:
- حصلت البركة.. شرّفت وآنست.
فيشكره ذاكرًا حضوره للزيارة الأسبوع القادم، فيومئ الرجل مرحبًا. فيهبط السلم متفائلا.. ما هي عدا إجراءات سهلة ترخص لك دخول الجنة، فتعب من مباهج أميمة.. بعدها لن تدفع بدفع، أو تحتج بحجة.

(٣)

راح يتفكر في التزامات هذا الخطْب الذي تورط فيه. كل ما ادَّخرتُ خمسون جنيهًا، هل تروح كلها للمهر والشبكة؟ لا غضاضة، أن تُنفَق في خطبة، خير من مرض أو نكبة.

وبالأيام التالية صار يشاهدها مرارًا بالنافذة، راضية مستبشرة، ترسل بالتحيات والبسمات الغامرة، ويومًا حيَّته بقبلة طائرة، فيضرب كفًّا بكف متفريًا، ويتمتم: وكانت قبلاً تضن ببسمة فاترة! يا لكن من إناث متلونة!

وتلو أسبوع يروح لملاقاة أبيها، فيستقبله مُرحِّبًا، ويعرفه بالقبول، فيثلج صدره، لم يكن عنده شك كبير في القبول. ويعرب:
- أشكرك هذا شرف لنا.. ومتي بإذن الله إعلان الخطبة؟
- بعد شهر مثلاً.

- ألا يجوز تلو أسبوعين على الأكثر؟
فيضحك الرجل كاشفًا عن بقايا أسنانه ويعلِّق:
- أنت متعجل يا سيد عمرو.
- آه، طبعًا، خير البر عاجله.
- وهو كذلك، لقد أردتُ أن يكون هناك وقت لشراء الدبلة والشبكة، والاستعداد.
فيبتلع ريقه يحملق فيه مبهوتًا، فيتساءل متلعثمًا:
- لا أدري ما التدبير بخصوص الاستعداد؟! لا أرى داعيًا لأكثر من احتفال صغير بين الأهل والمخلصين.
- نعم، احتفال صغير، الاحتفال الكبير عند كتب الكتاب بإذن الله.
- وهل أتكفل أنا به؟
- نعم، جرى العُرف على ذلك.. ومع هذا سنجعله مناصفة بيننا.
- وكم قدر المهر؟
- حوالي مئتين..
فيتثبط. يا له من مبذر.
- على كل حال، سنتكلم في هذا فيما بعد.
وينهض للرواح مصافحًا الرجل.

ويطلع درجات داره متوترًا، وبمجرد دخوله الشقة يتجه للشباك مندفعًا، فيلقاها بالغرفة، فيشير لها بالنزول بعجلة، فتطلب إمهالها ربع ساعة حتى تجهز. ثم ترجع تشير له لينزل، ويراها بالدرب متهادية، فيمشي وراءها متتبعًا، حتى ينضم إليها بشارع المبتديان.

obeikandl.com

فتسأله بقلق عما حصل، فيجيب نافد الصبر ساخطًا:

- ألا يدري أبوك أني موظف صعلوك!

فتطلب منه أن يروي لها ما دار بينهما فجعله يثور، فيرويه، فتقول:

- ولكن الزواج له تكاليفه يا عمرو، هذا هو العُرف الجاري بمن في مستوانا.

- أي مستوى هذا؟! لقد راحت العائلة المالكة، وما صار أمراء أو بشوات!

فتزفر متضايقة، فينغض برأسه معربًا:

- إن الرسول عليه الصلاة والسلام قال: خير النكاح أيسره؟

فتهز كتفيها بصمت. فيسألها:

- وكم تكون الشبكة؟

- لن تزيد عن خمسين.

- من أين آتي بالمال وكل ما معي خمسون؟!

- ولماذا لا تطلب من أبيك؟

- أبي مزارع فقير وفي عنقه ولدان يتعلمان.

ويصمت هنية مفكرًا ثم يعرب متأففا:

- قد أحصل منه على مئة لا أكثر.

ويمشيان صامتين عدة دقائق إلى أن تقول:

- على كل حال سأحاول عمل شيء.. سأقنع أهلي بعدم ضرورة الفرح، وبتخفيض المهر.. سأرى ما يمكن عمله.. المهم دعنا الآن نحتفل.. فلنذهب لأي مكان.

فتنفرج قسماته وينتابه الرضا، ويعرب مهادنًا:

- هذا عين العقل، فلا أفهم سببًا للتغالي في وقت تنادي فيه الحكومة بالتقشف.

- ولكنا لم نتغال.

- ألم تسمعي نداءات محمد نجيب؟ ينبغي لنا أن نتقشف.

- وهل يغلو عليّ مئتا جنيه؟

- لا، ولكن ينبغي لنبني الأمة، وهي الآن تمر بأزمة.

فتقطب وتصيح نافدة الصبر:

- ألن تكف عن هذه النغمة ؟

- أنا لم أقل، هم الذين ينادون بالتقشف.

وتغمغم غضبى:

- انتهينا إذن.

(٤)

أمضه التفكير في تدبير مال الخطبة وتوابعها، فيقرر مغرب اليوم التالي زيارة عبد العظيم، عساه ناصحه، ويتفكر: بما أنه ما صار لك في المومسات وطر، وكرهت أساليبها، ولن تلقى عاطفة عندها، إذن عليك بالتضحية لمن تحبها.. ثم أليس للمومسات تكاليفها؟

ويوافي «الحلمية» فيمشي بالدرب حتى ينتهي لدار من ثلاثة أدوار، انمحى طلاؤها وتآكل بنيانها، فيطلع للدور الأول قارعًا الباب، فيفتح له عبد العظيم مرتديًا منامته وشبشبه، وما أن يراه

obeikandl.com

حتى يصيح مهلاً:
- مولانا عمرو السخطاوي؟ يا للحظ السماوي.. أشرقت الأنوار وسعدت الأنظار.
ويصافحه عمرو يرد التحية باقتضاب، وهو يخطو لحجرة الجلوس المتواضعة، فيحط على مقعد زافرا:
- أنا في أزمة.
- خير، سلَّمك الله من كل شر .
- قررت خطبة أميمة.
- آه، أدركت الأزمة.. تهانينا القلبية، {وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ}.
- يطلبون خمسين للشبكة ومئتين للمهر، عدا الأفراح والليالي الملاح.
- يا لطيف يا رب.. ألن يساعدك الأب؟
فيهنف[١] ساخرًا ويهز منكبيه مُعربًا:
- وماذا تتوقع من فقير مثله؟! ربما آخذ منه مئة على الأكثر.
ثم يضرب كفًّا بكف يسخط:
- هو محدود الدخل وفي عنقه طالبان، في الوقت الذي ينبغي لأعتمد على نفسي.. كان ينبغي لتفهم: بما أني موظف صغير، وطالب فقير، ووالدي مزارع بسيط..
فيقاطعه عبد العظيم يعلن تفكها:
- إذن يُحكم ببراءتك من المهر.

(١) يضحك في فتور ضحك المستهزئ.

o p e i k a n d i . c o m

- اسخر، فلا يهمك الخطب.. ويل للشجيِّ من الخليِّ.

فيضحك عبد العظيم ويبين اعتذارًا:

- بل أنا والله وفيّ.. قل لي ماذا حدث من أمر شجيّ.

فيروي له، فينغض عبد العظيم برأسه ويمد يديه تسليمًا ويقول:

- أمرك لله يا سيد عمرو، فيتبين أن النكاح عقد من عقود الإذعان.

فيخف عمرو يصافحه معجبًا بقوله معربًا:

- أجل، هو عقد إذعان، وكنت بثمن المهر والشبكة أنال من المومسات مئة ضجعة.

- لكنك تفقد عنصري العاطفة والخصوصية.

- لا أعبأ.

- وكذلك السلامة الصحية، والأخطر: خروجك عن القيم الدينية.

ويستأذنه بالغياب لحظة، ثم يعود بصينية عليها كوبا شاي، ويقول:

- اشرب يا سيد عمرو وانْسَ الهم والقهر.

- شاي فقط! أليس ثمة فطير أو ما شابه؟

- العين بصيرة واليد قصيرة يا سيد عمرو.

- ما فائدة هذه الحكم والأمثال التي لا تسمن ولا تغني من جوع!

- أي نعم.

- لا أدري لِمَ ضعفت قدام هذه وأقدمت على خطبتها؟!

- لكل جواد كبوة يا سيد عمرو.

- لا يأخذ منك المرء ما عدا هذه التعابير التي لا تحل ولا تربط!

فيرنح عبد العظيم رأسه ينتهز في الضحك ويقرقر. فيستأنف:

- قلت لها إنّا في زمن تقشف، وأن التقشف دعوة عامة لكل مواطن.

- أي نعم، حجة مفحمة.

- وسأقول لها أيضًا: { إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ }.

- أي نعم، قول متين حكيم.

- وإن الشبكة والدبلة بدعة، لا أصل له في دين أو ملة!

- أي نعم.

- ثم الأولى ادخار هذا المال ليوم عصيب.

- أي نعم، { يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً }.

فيضرب عمرو كفًّا بكف هاتفًا بعينين منفرجتين فاريتين:

- أعربتُ لها بصريح العبارة، أني موظف صعلوك، لتكون على نور.

- أنت حقًا صعلوك، لكنك خير من الملوك، بما تتحلى به من سلوك.

- ما ارتد هذا يقنع مفلكات الصدور، بل هي النقود، الشيء الوحيد المرغوب.

- المرأة تعز وتدل حتى تجعلك تعتل وتذل.

- سجِّع.. سجِّع.. هذا ما أنت فالح فيه.

فيضحك عبد العظيم، يقهقه ويقرقر، ثم يقول:

- لا تغضب يا عزيزي، لقد قالوا قديمًا: إن مَصَارع الرجال تحت أقدام الكواعب.

- أجادت اصطيادي في شراكها.. متقلبات أريبات.

- أي نعم، هن غملوجات.. وأنصحك بالحكمة الأزلية: اهمل المرأة إهمالاً، تقبل عليك امتثالاً.

فيهب عمرو مصافحه، يهش للتعبير. بينما يتنهد عبد العظيم ويبين

obeikandi.com

استدراكًا:

- ومع ذلك، فعند الكلف [(١)] يُنسى كل حكمة وحذر.. ماذا نفعل يا سيد عمرو في القضاء والقدر؟

شجني يفوق على الشجون   يا مائسًا فضح الغصون
وصلُ الحبيب متى يكون   لمتيمٍ قلق الجفون

فيصافحه عمرو منشدًا بدوره:

امتى الهوى ييجي سوا   وارتاح ولو في العمر يوم
يا ناس أنا قلبي انكوى   وعيني ما بيهواها نوم

فيتأوه عبد العظيم طربًا، في حين يهب عمرو واقفا مستحثه:

- هيا إلى الخارج.. أبغي المشي لأخفف الهم.

- أجل، ولنعالجْ الهموم بصحن من الدجاج أو اللحوم.

- لا، ينبغي لي من الحين ادخار كل مليم، لهذا الخطب العصيب.

- إذا تنصلت من تبعة اللحوم، فلا أقل من الفطير، المحشو بالمكسرات والزبيب.

- بل لنكتف بالقرفة ذات الجنزبيل.

- وا أسف معدتي على هذا القدر الهزيل.

وينفلتان يهرولان في درب الحلمية.

---

(١) الحب والولع.

(٥)

يقبل كمال على جامعة فؤاد الأول يوم بدء الدراسة بقلب مشوق ونفس سعيدة بالوعود، فتقابله بقبتها العظيمة الشماء، تربض في قلب الفناء، صامدة في شموخ إلى السماء، حولها الأبنية الجامعية ذات الجلال والرواء، في الجانب الأيسر كلية الحقوق الغراء، وفي الأيمن الآداب الغناء، بينهما القبة ووراءها كليتا العلوم والتجارة، وتحيط بالحرم أسوارٌ من الحجارة عالية، وأشجار نخيل باسقة، ويتوسط صحن الحرم دائرة من الخضرة والأزهار، ويتهادى الطلبة في الأرجاء، في سيماء الجد والبناء. ويفاجأ بالساعة الضخمة فوق المسلة، تدق دقاتها جليلة الرنة، تعلن مذكِّرة للطلبة، أن الوقت من ذهب، خاصة إذا قضي في العلم والأدب. ويهمس بحبور ذاهل: هأنذا جئتك طالبا، بعد أن كنت زائرًا متظاهرًا، من الآن فصاعدًا سأشارك في معاركك الوطنية مخلصًا.

ويبادر إلى كلية الحقوق فيقابله في البهو سلم واسع يفضي إلى الطابق العلوي، ثم رواق أيمن ورواق أيسر، وينتشر الطلبة في الأبهاء، فينثني إلى اليسار، فيلفي صحنًا مفتوحًا للسماء، على جانبه قاعة، يقابلها عبر الصحن قاعة أخرى، وفي الوسط مدرج كبير، ويطل من أعلى شرفات وقاعات، ويعلم أن محاضرة السنة الأولى في مدرج الجانب الآخر، فيذهب إليه فيلفي أبوابه مغلقة، فلم تنته المحاضرة، فيقف مع المنتظرين، منهم من يجادل بحماس، ومنهم من يتحاور ويضحك بانطلاق، بأيديهم الحقائب والكراريس

والمجلدات، بينما تنزوي الطالبات مستغرقات في الحديث مرحات، فيلفتن نظره لجدة زمالته للطالبات، فيهمس بانشراح: المرأة نصف المجتمع البناء، «وإذا أعددتها أعددت شعبا طيب الأعراق»، ويتذكر نجوى، فيهمس باشتياق: ليتها التحقت بالجامعة هذا العام. ويُفتح بابا المدرج على مصراعيهما، فيخرج الأستاذ يتدفق وراءه الطلاب، يرفل في ردائه الأسود الفضفاض، بياقته الخضراء، كزي رجال القضاء. ويخلو المدرج فيدخل مع الطلبة، ويلفيه منقسمًا إلى ثلاثة أقسام من الصفوف، مترادفة صاعدة، فيجلس بالصف الثالث الأوسط، ويتمتم: ما أكبر الفارق بين الدراسة الجامعية والمدرسية. ويتدفق الطلبة على المدرج، بعضهم من الباب الخلفي المفضي للفناء، حتى فاضت بهم القاعة، فجلسوا على الأرض، واحتلت الطالبات الصفين الأماميين، لا يتعدين الثلاثين، بينما الطلاب ثلاثمئة أو يزيد. ويفد الأستاذ، فيستقر أمام المنصة، فيبادرهم من مكبر الصوت بالتحية، ثم أنشأ يسرد موضوعات القانون الدستوري، وأسس النظام الديمقراطي النيابي، الذي يقوم على مبدأ الفصل بين السلطات، وأن الأمة مصدر جميع السلطات.

وتنتهي المحاضرة فيخرج يسير في الرواق الخلفي، فيجد على الجدار عدة إعلانات، أحدها يدعو الراغبين للانضمام لفريق الموسيقى، وثانٍ يدعو لفريق الرسم والنحت، وثالث للتمثيل، ورابع للخطابة، وخامس للجوالة، فيهمس في أمل: ربما الأفضل أن أنضم لكل هذه الفرق، فأوسِّع من آفاق انتمائي وأستمتع بكل وقت فراغي. ويخرج إلى الفناء الخلفي للكلية فيلفي بساطًا من النجيل، يلمع في

رواء تحت أشعة الشمس الدافئة، وعلى يساره بناء مكتبة الحقوق وقاعات الدراسة العليا، وفوق النجيل تناثرت موائد بمظلات، يجلس تحتها الطلاب، ويرى كشكًا خشبيًا على اليمين يبيع الشطائر والمرطبات، فيسير إليه ليتناول شيئًا، فيفاجأ بسمير وعبد العظيم وطالب برفقتهما قادمين، وعندما يلمحانه يهللان ويقدمان يصافحانه، ويهنئه سمير: أهلاً بك زميلاً نجيبًا بالجامعة. ويضيف عبد العظيم: أهلا بالحقوقي الفيلسوف. ثم يقدمانه لصديقهما «سري»، زميلهما بالسنة الثالثة. ويقترح سمير أن يذهبوا لكلية الآداب، ليرى كمال ما تحوي من جمال، ويدعوه لشيء بالمقصف احتفالاً بقدومه.

ويدخلون بهو الآداب، فيلفيه ذا طابع مباين، يتسم بالخفة والدلال، تتناثر في ساحته الطالبات، بأعداد تفوقن الحقوقيات، ثرثرتهن تملأ البهو كعصافير مغردات. ويجد نظام البناء شبيهًا بمثيله في الحقوق، ويبتدره سمير بابتسامته المعسولة:

- هنا يا عزيزي تجد الغيسانيات المتأدبات من كل الأفانين.

ويخرجون للفناء الخلفي، ليدخلوا في بناء آخر وراءه، يقابله على اليسار مكتبة الجامعة، فيجد قاعة كبيرة لمقصف، يلعب فيها البعض تنس الطاولة، والبعض الآخر جالس يرفش[١] ويثرثر. ويسأله سمير: ماذا تشتهي يا عزيزي لتأكل؟ ويضيف عبد العظيم: وماذا تود لتشرب، أما سري فهو بدعوتي متكفل." فيضحك سري يقبل.

---

(١) يأكل الطعام الجيد والشراب ، في نعمة وأمن.

وطفقوا يأكلون الشطائر مع المشروبات، ويداعبهما سري: لا أعرف لماذا تأتون الآداب والحقوق لا ينقصها الطالبات؟ فيجيبه عبد العظيم: هل أنت من السذج؟ هل هن في الحقوق بهذه الكثرة والتنوع المبهج؟ فيغرق سري في الضحك. ويشرح سمير لكمال:

- لهذا تجد يا عزيزي طلبة الكليات الأخرى يأتون هنا للنزهة.. (ثم يقترح عليهم) والآن، لوما نلذ الإستاد الجامعي، فنستمتع بسندسي النجيل وساطع الشمس؟

فيوافقون، ويسيرون مارين بجوار كلية التجارة، ثم يخرجون فيعبرون الشارع إلى بوابة الإستاد، فيدخلون في طريق فسيح ممتد، فيشير سمير لكمال:

- هنا على اليمين مطعم الجامعة الممتاز، حيث تلذ شهي الوجبات بثلاثة قروش فقط، لو لم يكن موعد الحجز قد فات، لتغدينا فيه لذيذ الطعام.. وهناك على اليسار ملاعب التنس ثم ملعب كرة القدم، ثم ألعاب القوى والمصارعة والكمباز، وغيرها من الرياضات، حيث تقام مثير المباريات بين الكليات.

ويهبون الهويني[١] في رحاب الخضرة، وقد تقدم عبد العظيم وسري. ويبتدره سمير:

- يتعين عليك يا إكسلانس أن تجدَّ في المذاكرة منذ بداية العام، لتتلافى صعوبات القانون الروماني والدستوري.. واحرص ألا ترسب أي سنة.

---

(١) يمشون ببطء وهوادة.

فيضحك في عجب يسأله:

- بالطبع.. ولكن لماذا تنصحني ولم تفعل أنت ذلك؟!!

- يا إكسلانس أنا لي ظروفي الخاصة، من قراءات واهتمامات، ومشاغل مع المَلَذات، بالإضافة لحبي للقانون فلا يهمني الانتهاء من دراسته بسرعة.

فيضحك بينما يستطرد سمير:

- وحذاريك الانشغال بلطيفات الحقوق، لا مانع من أن تختلس ممتع النظر، لكن لا اهتمام ولا شغف، وإلا ضِعتَ مأسوفًا عليك بلا أمل، بل تمثل بالنجباء، كعبد العظيم، ينجح بتقدير جيد جدًا كل عام، فضلاً عن أنه من أبطال المصارعة، كما أنه يصادق الكتب ويناقش الأساتذة، هذا دستوره منذ كان طالبًا بالإبراهيمية الثانوية، كان من الأوائل، وموضع إعجاب الطلاب والأساتذة، وكان يُطرِب زملاءه بمضحك نكاته ونوادره.. وله شقيقان وأخت بالدراسة الثانوية.

وهنا يلتفت عبد العظيم وراءه يعاتبه:

- هل تسدي له نصائحك الوخيمة عن وسائل اللذة ؟

- لوما سمعت ما أقوله يا جاحد.. قلت له أن يتمثل بك طالبًا نجيبًا.

- آه، أقدم الاعتذار، وأشكر لك يا سمير بك هذا التقريظ الممتاز.. وهل قلت له إن الاستذكار من كتاب الأستاذ يضمن له الامتياز؟

- ليس بعد.

ويضحك سري ويعلق:

- أما أنا فلا بد أن أقرأ إلى جانب كتاب الأستاذ كُتبًا أخرى.

- نعم هذا جيد، لكن رأي الأستاذ هو الأهم.. كما أنك يا سيد سري

تود أن تتيض[١] من الأوائل، فتُعيَّن معيدًا أو تجالس الدولة.
فيقهقه سري ويصافحه، بينما يلتفت عبد العظيم إلى كمال شارحًا:
- النظام هنا أن الثلاثة الأوائل يعيدون بالكلية، والعشرة التوالي يجالسون الدولة، والخمسون التوابع ينيبون عن الدولة، وأنا متواضع، أطمح فقط للنيابة عن الدولة.

ويتعدون ملعب كرة القدم سائرين على نجيل زاهي الخضرة وثير. ويسأل سري عبد العظيم عن رأيه في محمد نجيب، فيجيبه:
- لا شك رجل حكيم متين، وستمكننا صلة القربى بينه وبين السودانيين، من إتمام وحدة وادي النيل.
فيعقب سمير:
- هذه ستكون من أعظم الانتصارات.
فيعيد سري سؤالهم:
- وما قولكم في تحديد الملكيات؟
فيجيب عبد العظيم:
- لا بأس على شريطة أن يعوَّض أصحابها.
- أرى ألا تحدد بأقل من خمسمئة فدان، فتفتيت الملكيات لأقل من ذلك سيضر بالزراعة والاقتصاد.
فيوافقونه على رأيه. ثم يسألهم سمير:
- هل توافقون على هذه الإجراءات التعسفية من إيداع زعماء الأمة

---

(١) تصير.

obeikandi.com

السجن، بما فيهم النحاس باشا وفؤاد باشا سراج الدين؟

فيبدي كمال استياءه يغمغم:

- لم يكن يحق لهم.. هذا تعسف.. فماذا ارتكبوا !

فيقول سري بأسف:

- أخشى أن تتطور السلطة فتتحول إلى عسكرية استبدادية، ولا تعود للديمقراطية قائمة في هذا البلد.

فيتنهد عبد العظيم متمتمًا: ربنا يستر. ويسألهم سري هل يحبون لعب الجولف؟ فيهش عبد العظيم ويهتف:

- أنا ألوف الجولف، تعال أنازلك في عنف.

ويبتسم سمير معسول ابتسامته قائلاً لكمال:

- لوما تلذ الجولف يا عزيزي، تعلَّمه، فهو رياضة الأرستقراطيين.

ويذهبون لحجرة مدرب الجولف، فيتناولون أدواته ويبدأون اللعب، فيتابعهم لفترة ثم يشاركهم.

وأخيرًا يعودون أدراجهم ميممين بيوتهم، وهو يمتلئ حبورًا لما استمتع به من خبرات جديدة طريفة، وصحبة ذكية لطيفة، في بداية حياة جامعية مثيرة.

(٦)

وينتظم في محاضراته، ثلاث مرات في الأسبوع، كلٌّ ثلاث ساعات، ثم بقية اليوم في انسراح. تبدو لي الدراسات القانونية

obeikandl.com

قيمة، لكن صعبة المراس، بجذورها التاريخية وفلسفاتها الفقهية، حول العدالة والمجتمع والإنسان، تملأ آلاف الصفحات. وينضم لفريق الرسم وفريق الجوالة، كما يبدأ رياضة التنس، كل أسبوع مرتين أو ثلاثة، وتصبح حياته ملك يديه، يصرفها كما يريد، بانطلاق وحرية، فيهتف بنشوة: ماذا بعد هذا أتمنى! أليست هذه هي السعادة؟! ولكن ما فتئ شيء مهم يفتقد: العاطفة؟ لو استجابت نجوى لكانت سعادتي مكتملة، ثمة جانب لا يملؤه إلا المرأة، هل إذن أبحث عن أخرى؟ وإلا فكيف ألبث بلا صحبة؟!

ويومًا عند عودته من الجامعة إلى البيت، تسنح له نجوى، تمرق داخلة المبنى، كيف الآن أسلك بلباقة وفطنة؟ إنها فرصة، فلأقرر بسرعة. ويبادر خلفها، فيجدها تنتظر المصعد. وتلتقي العينان، فيتطلق محياها ببسمة وتفصح: أهلاً كمال، كيف حالك؟ فينطلق بتحمس: الحمد لله، شكرًا، وأنتِ؟ فتتمتم: طيبة، الحمد لله. وتنقضي ثوان في توتر. ماذا بعد يفصح؟ ويجيء المصعد، فيفتح لها الباب ويفسح، ثم يدخل ويُغلق، بينما يفكر في قول مؤثر، وحتى يعثر، يبادرها يسأل: كيف حال الدراسة؟ فتجيب: لا بأس. فيتشجع، مفصحا بصوت يتهدج:

- أرجو ألا تكوني غاضبة مني بسبب.. ما قلته ذلك اليوم بالشاطئ..

فتطرق تتمتم في خجل:

- لا.. لقد نسيت، وآسفة.. إذا كان.. رد فعلي.. كان.. جافا..

فانشرح صدره وتشجع، أليست دعوة للتصافي تبشر! ووجد

المصعد قد وصل طابقها في لمح البصر يحبّط . ويخرجان، فيبادر بسؤال يحسم:

- هل أفهم إذن أنك.. أنك لا تمانعين.. أن نتصادق؟

فتتأمل هنيهة في مغزى السؤال، ثم تخفض عينيها تعتذر برقة:

- في الحقيقة لا أستطيع.. لا أستطيع إنشاء صداقة وراء أهلي.

ويهدأ انفعاله، وتنطلق أنفاسه، فيغلق المصعد تاركه يهبط، ثم يستجمع قوى فصاحته ليعبر بتحمس:

- أعلم هذا، وما كنت لأفعل ما هو غير لائق.. إن ما أكِنّه من عاطفة أجل وأرفع.. أدرك أن الزواج الآن مبكر، لكني سأجعله أقصر. أُقصد: سأبذل ُقصاراي لأتأهل.. فماذا تقولين في.. التعهد؟

ويرى وجنتيها تضرجتا، مطرقة لا تتفوه، فيجيش قلبه بالعاطفة، فيبادرها يضحك:

- هل أفهم أن السكوت علامة الرضا ؟

فتبتسم مطرقة لا تنبس، وتدور صوب شقتها تهمس: مع السلامة. مولية للشقة، فيندفع يهبط السلم لا تسعه الدنيا من الفرحة.

ويغلق على نفسه باب الحجرة.. ماذا قالت لك بكل دقة؟ أفصحت "لقد نسيت.. وآسفة إذا كان رد فعلي.. كان جافا.." هي إذن لم ترفضني، إنما كان بسبب مفاجأتي.. وهل رأيت إطراقتها، وحياء ابتسامتها عند قولي: إن السكوت علامة الرضا.. ما أحلى خفر العذارى، وتعثرهن أمام الحب حيارى..

(٧)

ومنذ هذه اللحظة تبدلت حياته، فعادت تحتله نجوى في الصدارة، وأصبحت من جديد محور اهتمامه، وكل آونة يرنو لشرفتها لعله يحاورها. سأدع نفسي الآن تعشقها، بعد ما لمسته من استجابتها.

وذات أمسية تهل بالشرفة، فتغشاه الفرحة، ويبادرها بالتحية:

- كيف حالك يا نجوى؟ لم أركِ منذ فترة؟

- آه، كنت أستذكر منهمكة، فيجب أن أحصل على تقدير هذه السنة لأدخل الجامعة.

- إن شاء الله تلتحقين، فأنت تستحقين.. قولي لي: مَنْ مِنَ الأدباء تحبين؟

- آه، الكثير.. مثلاً إحسان عبد القدوس، وتوفيق الحكيم.

- وأنا أحب يوسف السباعي، فهو بليغ الشاعرية والحب الرقيق، وأحب أيضًا توفيق الحكيم، لكنه مفكر وفيلسوف أكثر منه روائي.

- آه، معذرة، فصديقتي طلبتني الآن بالهاتف، إلى اللقاء.

- إلى اللقاء.

حوار قصير لكن جميل، يروي بعض الغليل، أفضل من غيابها الطويل.

(٨)

لم يلق عمرو مندوحة من السفر لوالده، عساه حاصلاً على معونة

obeikandl.com

تسعفه. ولدى وصوله يطلعه على نيته في خطبة أميمة ويأسف لطلبه المساعدة، فيُفاجَأ به ملبيا طلبه، داعيًا له، فقد أتى المحصول هذا العام بوافر رزقه، فيثلج صدره لانفراج ضيقه. ويرتد للقاهرة بعد أن أخذ مئتي جنيه، علاوة على الخمسين معه، فإن لم ترض بهذا القدر فكل في جهة.

ولدى المغرب يلقاها عند بداية المبتديان، فيعرب بلهجة حاسمة:

- كل ما معي مئتان وخمسون، للدبلة والشبكة والفرح وكل المطلوب، فإن أصر أهلك على المزيد رغم دخلي المحدود، ودعوات التقشف من الحكومة للجمهور..

فتقاطعه تنفرج قسماتها عن بسمة جذابة، وتعرب بحماسة:

- كفى.. كفي.. لا داعي للشكوى، أنا أيضًا، جئتك بمئة مدخرة، مساهمة مني في الخطبة.

فيبهت هنية، ثم تلين قسماته منبسطًا، بيد أنه يتدارك معترضًا:

- لا.. هذا فيه جور لكِ.. لا أقبله.

فتلكزه بكوعها وتغمز معربة:

- لا تكن هكذا حساسًا.. ألا يتمشَّى مع المبادئ الاشتراكية.. أم تؤمن بالتقشف ولا تؤمن بالاشتراكية؟!!

فيرجع برأسه إلى الخلف ضاحكًا ويعرب:

- بل من أنصارها المخلصين.

ويشعر بالرضا ممتنًا، لما أظهرته من إعزازها له وكرمها. ثم يتواعدان على اللقاء بالغد، لشراء الشبكة والدبلتين، ثم لا تعتم

أن ُتنبّهه بجهل أهلها بمساهمتها.

وفي عصر اليوم التالي يروحان للصاغة بالأزهر. فراحت تفحص الحُليّ وتدقق، أما هو فلم يبغ ألا يكون أكثر من مرافق، لديها المال تقسمه كما يحلو، على الدبلة والشبكة والحفلة، المهم هو حيازة الجسد المتعة. وتلو الشراء يشاهد على قسماتها مظاهر البهجة، وتهمس مغتبطة وهي تقلب بين راحتيها الشبكة:

- هذه الشبكة أحلى وأغلى من المقدمة لابنة عمي.. لقد غلبتها.

- ما لنا وابنة عمك! أهي مباراة؟ كل حسب مقدرته.. المهم أن تكوني مبسوطة..

- ولكن الناس سترى الشبكة، وهم يهتمون بهذه الأشياء.

- فليشاهدوها.. وإن كان عاجبهم.. لا قيمة لرأي الناس.

- لا تقل هذا.. أتريد أن تُنغّص عليّ؟

فينغض رأسه لا يجيب، فتلتصق به وتقول:

- لن نتعارك الآن، دعنا نحتفل.

وتحيط خصره بيدها، فينفرج منبسطًا ويعرب:

- لو تظلّين هكذا بلا تلون!

فتلوي فمها، وتتشاوس إليه محتجة:

- ماذا تقول؟! هل تلونت معك!! يا لك من مفتر.. لماذا تقول هذا؟!

فيتفكر: ربما صار التلون خصلة متأصلة، فلم تعد ملاحَظة. وينادي سيارة أجرة تقلهما لمقهى «جروبي». وبالطريق تسأله كيف يبغي الفرح، فيجيب:

obeikandi.com

- أخذتِ ما معي من مال، فافعلي أنتِ وأهلك ما تبغون من إجراء.

- ألا تشاركني الرأي؟

- رأيي ألا داعي للفرح.. يكفي جلسة عائلية مع الأهل.

- كيف هذا! ألا أكل أو أغاني أو رقص؟

- إذا كان في الوسع، فلا بأس.

- سأكتفي بدعوة حوالي خمسين من أقاربي. كم تريد دعوتهم؟

- لا أحد.

- كيف هذا؟!!

- عادي.. عادي جدًا.. أهلي بالمنصورة، ليس في وسعهم ولا داعي لتكبيدهم، قد أدعو أختي بالقاهرة وزوجها، كي لا يغضبا.. وربما اثنين أو ثلاثة من أصحابي المقربين، إذا لم أدعُهم سيسخطون.

ويتفقان على إقامة الفرح الخميس تلو أسبوعين، ثم يفترقان. وخلال رواحه يتنبه لضرورة ارتداء حلة قشيبة للفرح! آه.. هذه الخطبة كم تجشمه! ويخبط ساخطًا جبهته. لا محالة من اقتراض خمسة جنيهات من مدبولي زميله في العمل.

(٩)

بينما كمال جالس بالشرفة في بداية الليلة، يحلم بآمال المستقبل، إذا بنجوى تهل مشرقة، فيبادرها بتحية متشوقة، وقد انقضى شهر منذ آخر محاورة. ويسألها:

obeikandi.com

- كيف حال المذاكرة؟
- حامية.. لكن الحمد لله جيدة، كيف حالك أنت؟
- لا بأس.. لكني أكرس بعضًا من وقتي للقراءة والموسيقى.
- أرى أنك تحب كثيرًا الأدب والفن..
- أجل، هو حياتي.. بل أحيا فيه كأنه واقعي، فأعيش مع أبطال الرواية، وأتعاطف معهم، سواء أكانوا في كتاب أو على الشاشة.
- أنا أيضًا أعيش في أحداث الرواية.
- وهل تقرئين كذلك باللغة الفرنسية؟
- طبعًا، إني أحب أندريه جيد، وكامي وغيرهما.
- بكل سرور، ولكني مضطرة الآن للذهاب، ولنا لقاء آخر..
- إلى اللقاء نجوى، هل أراكِ إذن مساء الجمعة في الثامنة بالشرفة؟
- إن شاء الله.. سأحاول.

وينتظرها بالشرفة مساء الجمعة حتى العاشرة، لكن بلا فائدة، فتعتريه مشاعر الخيبة المحبطة.

(١٠)

آذن العام الدراسي بالانتهاء، فلم يبق سوى شهر على الامتحان، واجبي إذن أن أعكف على الاستذكار، بكل همة وتفان، أمامي جبال من المبادئ القانونية والآراء الفقهية، وفلسفة العدالة والنظم الدستورية، والاقتصاد والشريعة الإسلامية.. الحرية، ما الحرية؟

obeikandl.com

الحق، ما الحق؟ العدالة، ما العدالة؟ هل اكتنهت اللباب، هل استوعبت الأسباب؟ تاريخ التشريعات يبدأ من سذاجة البداوة، إذ كان الحكم قائمًا على الاستخارة، نابعا من آلهة ذات شهوة وإرادة، تغتر بالقرابين وتفرح بالدماء المراقة، ثم يجيء عهد يسود الأقوياء الضعفاء في قساوة، بتفويض إلهي خولهم مطلق السيادة، حتى تندلع الثورة الفرنسية فتقلب مجرى التاريخ والزعامة. أما القانون الروماني فصرح من السيادة الشعبية، قائم على انتخاب واستفتاء ونظم نيابية، لكن الاعتبار لمن حظِي بامتياز الوطنية، أما الأجانب فأقل حقوقًا وحرية، أما العبيد فأشياء تجردت من صفة الإنسانية.

أما حديثًا، فالحقوق أساسها اجتماعي، ولا حق بلا التزام، ولا التزام بلا جزاء، والحق ليس مطلقًا، بل مقيدًا بوظيفة، والحرية ليست بلا حدود، بل مصحوبة بمسئولية. أما الدستور فإن لم يكن بعقد اجتماعي، فمنبعه السيادة الشعبية، أما الديمقراطية فتقوم على الإنابة، وفصل للسلطات ورقابة، وليس حكم فرد أو أقلية ممتازة، وليس شيوعية تدعي الوصاية.. ولكني أتساءل: ألا خوف من تحكم أغلبية جاهلة، فلا تدع لمثل أو أخلاق قائمة؟ بل تنقاد خلف المخادعين كالسائمة؟

أما الاقتصاد فجوهره العرض والطلب، به يتحدد الثمن، وأن التنافس بلا احتكار، أساس الجودة وتقدم الأمم، والتصنيع قائم على وفرة الطلب وتقسيم العمل، ثم مع زيادة الإنتاج، تنخفض التكلفة، ويقل الثمن، فتروج السلعة ويُكفى الطلب، أما ثروة الأمم فليست في

أوراق النقد أو رصيد الذهب، بل في الثروة الطبيعية وطاقة البشر، وآلاتها المسخرة في العمل.

أما الشريعة الإسلامية فهي الصراط المحتذى للأمم، حكومتها الديمقراطية المثل، {وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ}، {وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}. وفي الحقوق والمعاملات تتمشى مع مصالح العباد، والمثال: {إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مسَمًّى فَاكْتُبُوهُ}، والحديث الشريف بأن «الجار أحق بالشفعة». ونظامها الاشتراكية، {كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاء مِنكُمْ}، لكنها ليست شيوعية، بل تميّز ذوي الموهبة والقدرة الذاتية، {وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ} فالإسلام أمة وسط، بلا تفريط أو شطط.

وتنقضي الأيام سريعًا ويقترب الامتحان، فيكرس له قواه يطمح للحصول على تقدير، وينفق ساعات الليل والنهار بلا تبديد. حتى يخوض الامتحان ويحصل على تقدير"جيد"، فيسعد ويستبشر، ويحلم بالمستقبل.

وسافرت نجوى وأسرتها للاصطياف بالإسكندرية في منتصف يوليه. ويسافر مع أسرته بأول أغسطس، ينزلون بنفس الشقة بجليم.

وفي اليوم التالي يبادر لسيدي بشر وكله حبور وبشر. وباقترابه من مقصورتها، يخفق قلبه، ماذا سأقول علةً لزيارتي، ولكني جئت لوائل ألاعبه الشطرنج كما اعتدت، ولكن ما الجدوى إذا كنت لن أناجيها. على كل حال، يكفيني رؤيتها، وقد أجد الفرصة لألاطفها. ويجدهم مجتمعين بالمقصورة، وبينهم نجوى تجلس سامدة في أجمل

صورة، فينشرح صدره، ويلقي عليهم التحية، فيرحبون بقدومه، فيصافحهم ويجلس بينهم، فيسأله وائل عن نتيجة امتحانه، فيذكر نجاحه، فيهنئونه، ويذكر وائل نجاحه ونجوى، فيهنئهم يتمنى لهما المستقبل الزاهر، فيشكرانه وتفتر له نجوى بمحيا مشرق متفائل. ثم يتبادلون أطراف الحديث عن أحوال الجو والسياسة. ولا يطول الوقت حتى يسأله وائل هل يلعب الشطرنج، فيتنهد يوافق، فيذهبان للجلوس على الصخرة، بينما تبقى نجوى، فتصيبه الخيبة!

وتنقضي ساعة وهو يحاول تركيز فكره بعيدًا عن نجوى. لكن وائل لا يلبث أن يجتاحه بهجوم كاسح، معلنًا بزهو أنه الفائز، فيتملكه شعور حانق، ويتحدى ويقاوم، ولكن في النهاية يكون هو الخاسر، فيعرض عليه وائل أن يواصل، فيوافق، لعل نجوى تعوّض صبره النافد، لكن الوقت يزحف وهي تقرأ في كتاب مستغرقة لا تبالي، ونسيت أنه حاضر، فيغبطها على استمتاعها بالقراءة بلا شاغل!

ثم يراها تقوم وتسير مع صديقة جاءتها، فيتكدر. أما كان خليقًا أن يكون هو مصاحبها! لقد حبط سعيه وضاع وقته، وتعذب بالشطرنج بلا طائل! والآن فليركز في اللعب وينتقم من غرور وائل. وتجيئه الفرصة ليطيح بقطعه الهامة، لكن وائل يصر على الفوز بعناد، لكنه يطيح بمَلِكه في الختام، فيعوضه بعض الشيء عن صحبته لنجوى، ويستأذنه ويولّي في خيبة.

وفي اليوم التالي يزور سميرًا بالإبراهيمية، فيرحب به وينطلق

يخبره بكل كبيرة وصغيرة في حياته، فيطرب متعجبًا من أسلوب حياته واهتماماته.

ويُسرِّى عن نفسه بزيارة الأقارب والنزهة بالشواطئ، وينقضي أسبوع فيعاوده الشوق إلى نجوى. ولكن كيف أهرب من الشطرنج وأجتمع بها في خَلوة، أناجيها وألاطفها بلا عقبة، فلأزرها ثانية، ربما يكون حظِّي مواتيا هذه المرة.

وعندما يصل تغشاه الفرحة، عندما يجدها تجلس على الصخرة، تقرأ في كتاب منفردة، فيبادرها بحماسة:

- كيف حال أميرتي؟

فيشرق وجهها وتقول تضحك:

- كما ترى.. أتثقف.

- ونِعم الفتاة الجميلة المثقفة.. ماذا تقرئين؟

- أقرأ رواية إحسان عبد القدوس في "بيتنا رجل".. هل قرأتها؟

- لا، أنا معجب أكثر بنجيب محفوظ.. فكتاباته تختلف عن كتابات الآخرين بما فيها من فلسفة وواقعية ودقة تحليل، لم نعرفها قبلاً في حياتنا الأدبية، مما يشبه الروايات الروسية، أنا الآن أقرأ "الجريمة والعقاب" لدستيوفسكي باللغة الإنجليزية.

- وهذا جيد أنك تقرأ أيضًا باللغة الإنجليزية.

- هو طبعًا ليس سهلاً، ولكني أجتهد.

وهنا يقبل عليهما وائل بلباس البحر مبللاً، فيحييه ويجلس يجفف جسمه، ويقول:

obeikandl.com

- لقد سبحت طويلاً، لما بعد الصخرة، فالبحر اليوم يشجع على السباحة.

ثم تدور بينهم أحاديث شتى، حتى يدعوه وائل ليلعبا الشطرنج، فيسقط في يده، ويمتثل على مضض، يأسف لضياع فرصة ملاغاته لنجوى، بينما تعود هي لقراءتها. ثم تنهض لتزور صديقة على الشاطئ، فيستاء لفراقها المفاجئ، ويتمنى لينصرف، لكنه يضطر ليكمل اللعب باهتمام فاتر، حتى انتهائه بفوز وائل، فيستريح للخلاص، وينهض محييه ويفارق. ولا يزورهم ثانية حتى يسافر.

(١١)

جلس عمرو بمكتبه بمحكمة مصر يعمل بنشاط بالملفات والأوراق قدامه، مدفوعًا بهمة غير عادية، مترنمًا بأغنية:

أنا قلبي خالي؟ والا انشغل بك
مش عارفة مالي؟ يمكن بحبك

كل ضجة الخطبة انتهت، وكل خطوب المال انقضت، وكل دعاواها لم يعد لها سبب، فلا تملك الحين التقدم بدفع أو إشكال تعترض. احتفال الخطبة كان صاخبًا، لم تدْعُ الأهل والخلصاء فحسب، بل أيضًا أقارب الأقارب والجيران وأهل الحي، وتكدس الفرح بالغلمان والصبْية والرضع، ركبوا على أنفاسك حتى كدت تفطس، وانفجرت الزغاريد تُدوِّي بالمجلس، ووُزّع الشربات والحلوى والملبس، ثم

تلاه وافر المأكل، فملأ عبد العظيم وسمير وكمال بطونهم التي لا تشبع، وأغرقوا في الضحك والطرب بلا تحفظ، وأتت أختك وزوجها وأطرت العروس وما تلبس.

نفذت التزاماتك قِبَلها، وبناء عليه، تخلص لك بلا عذر. ألم تَعِد بالرواح للشقق بعد الخطبة؟ ما صار لها من حجة، كنت تبتغي استضافتها لديك بالشقة، بيد أنها عارية لا تبعث على البهجة، سأبدأ بشقة عابدين، ثم شقتي تلو توطد الصلة.. وترقص جوارحه بالغبطة. بما أن عقد الزواج من أركانه التأبيد، وبما أنه شركة بين طرفين في كل خطب، فبناء عليه، من حقه أن يلم تمام العلم بمحل العقد، وإلا شابه الغرر والغَبْن، هذا ما خوله القانون للمتعاقد من حق، جهزتَ زجاجة نبيذ وفاكهة وأطعمة، لتكتمل التسرية. الكتبة حولك يثرثرون ويتهاترون كدأبهم، دعهم وهمهم، لو دروا لحسدوك كلهم. وراح يدندن:

امتى الهوى ييجي سوا وارتاح ولو في العمر يوم
يا ناس أنا قلبى انكوى وعيني ما بيهواها نوم

ويسمعه زميله مدبولي الجالس بجواره فيصيح مستخفًا:

- يا سلام يا سيد عمرو، تبدو سعيدًا اليوم.. يا ترى أخذت ترقية أم علاوة؟

فيهتف ويجيبه ونظره بالأوراق:

- أعظم ولكنكم لا تدرون.

ويسمع المرتشي فاروق يعلق متهكّمًا:

- دعه يا سيدي، هذا أحسن من أن يشعل لنا مشاجرة.

يلمِّح بهجومك عليهم للإهمال والتسويف. هذا المرتشي سيأتي يوم ينفضح. ويبتدرهم مزهوًا:

- أتدرون.. هناك ما هو أمتع من المال: الإناث.

فيرد عبد الستار الكهل منغمًا كلماته:

- يا سيدي.. يا سيدي.. وما الذي يأتي بالإناث! الفلس؟

ويضحكون بما فيهم عمرو الذي يجيب:

- بيد أن الحاذق المحنك، من يلقى من هي مستعدة لتدفع.

فينفجرون في هرهرة ساخرة يهللون، ويردد عبد الستار بتنغيم:

- يا سيدي.. يا سيدي.. أنت إذن سيدي.

ويقول "علي" ساخرًا:

- يريد أن يفهمنا أنه رجل ولا كل الرجال.

فيتمتم عمرو :

- عادي.. عادي جدًا.

ويعلق مدبولي بأسف:

- يا سيدي.. يا سيدي.. حسرة على الشباب.

ويقضون فترة في ساخر المهاترات والترهات.

(١٢)

وبالمساء يلقاها بالبقعة لدى بداية المبتديان، فينبسط حين يشاهدها

obeikandi.com

في أملح مظهر، في ثوب وردي يشد قدّها المدملك، فيعرب:

- أهلاً بالعروسة.

- أهلاً بالعريس.

ويتصافحان. فتسأله أين يروحان. فيقول متحمسًا: سنحتفل بخطبتنا مستمتعين. ويطبق على راحتها مصطحبها لسيارة أجرة، فتسأله مستغربة: إلى أين؟ فيتمتم بعجلة:

- إلى شقة صاحبي بعابدين.

فتتنهد: ثانية!

- عادي.. عادي جدًا.

- بشرط ألا أتأخر.

- أجل.

ويتابع الطريق وجوارحه ترقص، ثم يسألها هل أعجبها الفرح، فتجيب برنة فخر:

- آه، كثيرًا، كان مشرفًا.. وقد حازت الشبكة الإعجاب.

- وهل حازت العروس الإعجاب؟

- طبعًا.. هي أول من حاز الإعجاب، هل عندك ارتياب؟

- مدحتها أختي وزوجها، فقلت: ومع ذلك الشكل ليس كل شيء، المهم الموضوع.

فتشاوست إليه بدلها الخاص تحتج:

- أعندك في الموضوع شك؟ يا لك من ظالم مفترٍ!

- كل ما أتمناه تحكيم العقل، وعدم الانسياق وراء كل رأي.

obeikandi.com

ويبلغون شارع حسن الأكبر، فينزلان يمشيان خطوات قليلة إلى دار قديمة من أربعة أدوار، فيصعدان إلى الدور الثاني فيدير المفتاح كاثبين بالشقة، فيلاقيان بهو من بلاط تحوطه حجرتان وطرقة، تقود إلى الحمام والمطبخ. ويسألها:

- ما رأيك؟ فرْشها لا غضاضة به لعازب.. أليس كذلك؟

- شقة من هذه؟

- زميل بالحقوق، ممتاز في القانون وفي اللهو، يستمتع بكل شيء.. والآن سأجهز الأكل..

ويتركها للمطبخ ثم يرتد حاملاً صينية مليئة بالطعام والمشهيات تتوسطها زجاجة نبيذ، فيضعها على منضدة منخفضة قدامهما، ويتجه للمذياع فيديره على الأغاني، ثم يجلس لصقها على الأريكة. وتضحك قائلة: أنت رب بيت ممتاز. فيعرب: وقت اللزوم أعجبك. ويصب لها كأسًا من النبيذ الأحمر، فتستنكر: أتشرب الخمر؟

- فقط في المناسبات الخاصة، كهذه.

ويستميلها لتشرب مجربة، فتتناول الكأس متأملة، ثم تأخذ رشفة متذوقة. ويشرب هو أيضًا من كأسه مجرّبًا، ثم معربًا:

- النبيذ مفيد في ليلة كهذه باردة.

- وهل أنت بحاجة؟ أنت مشتعل بلا تدفئة !

فيقهقه مائلاً برأسه للوراء، ثم يعرب مُصحِّحًا:

- بل قولي: وهل أنا محتاج بجانبك؟!

ويمد لها يده مصافحًا، فتضحك وتنغض برأسها متفرية، ثم تضع راحتها على رأسه تهزه قائلة:

- أنت شيطان.
- لا، أنا لا أوذي أحدًا.. هيا اشربي.

ويمسك الكأس رافعها لفمها، فترتشف قليلاً ثم تتوقف، في حين يفرغ هو كأسه ويصب أخرى.

ولا تعتم الخمر أن تلعب برأسه، فما تعوّدها، ويشعر بحينونة الوقت للمعانقة، فيضمها إليه متشوقًا، هاويًا على فمها متلظيًا، ويستمر مستمرئًا، ملاقيًا منها تقبلاً، ثم تمتد يده تحت ثوبها متلصصة، فتعاجل بمسكها مانعة، فيغافلها وترتد يده متكالبة، فتنقلب غاضبة، فيطالعها بنظرات متسائلة، فتتشاوس إليه ناكرة، وتهتف مستهجنة:

- ماذا تفعل؟
- أُحسِّس!
- هل استأذنت؟
- هل التحسيس يحتاج لإذن؟
- نعم، كل شيء يحتاج لإذن.
- ظننت أنه يبسطك.
- يُبسطك أنت، أما أنا فلا شيء يبسطني قبل الزواج.

فيضرب كفًّا بكف متبرمًا، يشكو بصوت أجش وعينين مشدوهتين:

- أهذا ما اتفقنا عليه؟
- ما الذي اتفقنا عليه؟!
- ألم تقولي إنك تلو الخطبة ستروحين للشقق بلا أزمة؟

obeikandi.com

- وقد جئت للشقة! لكن ليس معناه أن أتنازل عن العفة!
- ألسنا في حكم المقترنين؟
- أتستغفلني؟ ألا تعرف الفرق بين الزواج والخطبة؟! وأي شقق هذه التي أذهب إليها؟! وكأني سأذهب أبيع نفسي!!
- لا.. لا.. بل لأن شقتي غير لائقة لاستقبالك، لا غير..
- لا تقلها ثانية.
وتمسك بيده وتعرب مهدّئة:
- اصبر يا عمرو، كلها شهور قليلة وتنال كل ما تريده وتستمتع.
- بل سنون.. ما انفك سنتان حتى أتخرج.
- تمران سريعًا..
ويروح يطل من الشباك على شارع حسن الأكبر، ثم بعد هنية يقترح أن يعودا.

ويأخذها بالحافلة لميدان السيدة، ثم يرافقها لدارها، ويهم بتوديعها، فتمسك بيده هامسة:
- ألا توصلني للداخل؟
فيفهم بغيتها، فيتبعها للردهة الخالية، فتكثب تضمه في قبلة عاجلة، ثم هامسة:
- لتعلم أني أنتظرك مخلصة.
ويودعها. والحين ما العمل؟ استدرجتك للخطبة، وبعد أن لبّيتَ طلبها، ترفض منحك طِيبها! ويلوح بيده ساخطًا. لا أبغي أن أرتد للمومسات، فهي لا ترضيك مشبعة.

obeikandl.com

(١٣)

يتأمل كمال: انقضى زمن ولم أرها منذ عودتها من الإسكندرية، كم أنا مشوق إليها. وفجأة تسنح له فكرة نيّرة: لماذا لا أقابلها في الجامعة، وقد التحقت بالآداب هذه السنة؟ أجل، وسيلة ميسرة، بلا رقابة العائلة، أو لعبة الشطرنج المضجرة.

فيزور كلية الآداب ظهرًا، لقاعة اللغة الإنجليزية، ويقوم إزاءها، ينتظر انتهاء محاضرتها، حتى يراها تخرج متألقة بين زهرات الآداب اليانعة، وتراه فتبتسم مرحبة، فيفصح لها بعبارة ملاطفة:

- لقد عرفتك من سطوع سناك بين الزميلات.

- آه.. ما هذه المجاملة اللطيفة!

- إنها تصدق على طالبة الأدب والإبداع.. أعتقد كلية الآداب سعدت بكِ هذا العام.

- آه.. أشكرك.. بل أنا التي سعدت بها.

-أخبريني ما أخبار الأستاذ "وليم" ؟

- "وليم"! من هو "وليم"؟

- وليم شكسبير، ألا تعرفينه؟

فتنطلق تضحك، وتستجيب تمزح:

- طبعًا أعرفه، هو يقرؤك السلام.

- حدثيني عنه، فأنا أفتقده..

- لا مانع.. إن شكسبير حقًا رائع..

- هل انتهت محاضراتك؟

- عندي محاضرة أخرى بعد ساعة.
- هلاّ إذن نسير قليلاً في الفناء نتريض.
- وهو كذلك.. إن شكسبير يتميز بقدرته الفائقة في تصوير شخصياته، انظر مثلاً إلى "عطيل"، وكيف أن طبيعته الانفعالية تتحكم في تصرفاته، فيتهم "ديدمونة" بالخيانة ويقتلها في غيرة عمياء ظالما قبل التثبت.. بعكس"هاملت" يتميز بطابع هادئ متأمل، لا يقدم على فعل قبل التأكد..
ويدور بينهما النقاش عن شخصيات رواياته، وهو معجب بعمق تحليلاتها. ثم يسألها عن قصته: روميو وجوليت، هل هناك حب بهذا الوفاء والعمق! فتضحك وترد:
-لا أظن !
- أعرف صديقًا يُدعى كمال عبد الرحمن، يحب مثل روميو في ولع وافتتنان.
فتضحك وتفصح:
- هل هو شاعر أو فنان؟
- أجل.
- هذا إذن السبب، فهو لا يحيا في الواقع، بل في الخيال والأحلام.
- هذا أفضل، فالواقع ليس دائما مفرحا.
- صدقت، ولكن يجب مع هذا أن نتعايش معه.
- ولكن قولي لي، كيف لصديقي الولهان إثبات ما بقلبه من إخلاص وهيَمان؟
- لم يُطلب منه ذلك بعد.. قل لي ألا تريد أن تتدرب على الكلام

باللغة الفرنسية.

فيرحب يحاول أن يجاريها بعسر. حتى تطلب العودة لمحاضرتها. وباختلائه بنفسه يتساءل: ماذا قصدت بقولها: "لم يطلب منه ذلك بعد" ؟ أتقصد بعد الزواج ؟!

(١٤)

يُفاجَأ كمال بعبد الله يطرقه للزيارة، فيستقبله بحبور، لم يره منذ فترة طويلة، ويسأله عن دراسته، فيجيبه:

- ما أكاد أفيق من الدراسة كثرتها وصعوبتها، لكنها شيقة مجزية..

- جئتك لنزور حسن عبد الكريم، فما رأيته منذ الصيف، فما رأيك؟

- أنا أيضًا مشتاق إليه فلم أره منذ زمن.

ويبممان المنيل، فيعبران جسر قصر العيني، ثم يمران بقصر محمد على المنيف. ويبتدره عبد الله بحنق:

- أرأيت الاعتقالات السياسية بالجملة للدولة كبار رجالاتها؟!

فيعتريه الاستياء ويقطب يتمتم:

- الحمد لله أن أُفرِج عنهم أخيرًا.

- نعم، لكنما المسألة هي المبدأ.. إذا حقَّ لهم القبض على الناس بهذه السهولة، فهذا خطير أمره وتوابعه.. ثم لماذا ما يشركون الإخوان معهم في الحكم؟ من الواضح أنهم ما ينوون تطبيق القرآن أحكامه.

فينغض كمال رأسه في برح ويفصح:

obeikandl.com

- إني أتعجب! إذا كنا حقًا مسلمين نؤمن بالقرآن، فواجبنا أن نحتكم إليه ونطبقه.

فيهز عبد الله رأسه في تصميم ويغمغم باحتداد:

- سننتظر ونرى، وقد نضطر لنوقفهم عند حدهم.

ويبلغان بداية المنيل فينثنيان سائرين فيه. وفجأة يلفت عبد الله نظره في إنكار:

- أبصر هذه الحرمة فستانها حبكته، لمفاتنها كلها مبرِزة.. يا للغواية السافرة!

- فلنغض النظر.

- إلى متى نغض البصر؟ وفي كل موضع غواية! غدا ديدن الحرمات أن يتبرجن، وفي الطرقات أن يستعرضن.

ويقتحم ذاكرته صورة جارتهم شادية ومصاحبتها لأخته، فيستعيذ بالله من المغبة، فشادية مغناج أريبة، صاحبة بدن يشعل حريقة. ويقول لكمال:

- أحب في الحرمة مغرياتها مقصورة على بعلها.. وتدللها وغناجها بعقر دارها، أما بالطرقات، فحشمتها وحجابها.. كذلك الدعارة، يجب أن يغلقوا أوكارها.

وينصرف يبحث عن العنوان، ثم يشير لكمال لينثنيا في درب على اليمين، فيسيران حتى يتوقف عند دار صغيرة من ثلاثة طوابق، فيدخلانها. وفي إحدى شقتي الطابق الثاني يطرق الباب، فينشق عن حسن بمحياه الصبوح في قميصه وسرواله، وما أن يراهما حتى يهش ويبش مشرق الوجه، ويشد على كفيهما بحرارة، ويجدا طه

obeikandl.com

جالسًا في البهو، الذي يقوم يصافحهما منطلق الوجه، وبجانبه فتى صغير يقدمه حسن على أنه أخوه الأصغر، ويستقر بهم المقام في البهو متواضع الفرش، المكون من أريكة «استانبولي» كبيرة، ومائدة طعام حولها الكراسي. ويبتدرهما حسن مرحبًا:

- أهلاً بكما ومرحبًا، لقد زارنا النبي.. لم نركما منذ زمن.

فجيب عبد الله:

- نحن فعلا مقصرون، لكنك تعلم دراسة الطب متطلباتها.

- نعم، كان الله في العون.

ويستأذنهما ليذهب إلى الداخل ثم يعود حاملاً صينية عليها موز وبرتقال يقدمه لهما. ثم يقول لكمال:

- أعتقد أنك التحقت بالحقوق يا أخ كمال، أليس كذلك؟

- نعم.

- دراسة عظيمة.

ويسأله عبد الله:

- أتجد الوقت الكافي لتقوم بالدعوة والدراسة بكلية الهندسة؟

- الحمد لله، هذا بعون الله سبحانه وتعالى، وإلا ما استطعت أن أوفِّق بين كل هذا.. كيف حال الأخ عصام والأخ ناج، عساهما بخير؟

- بخير والحمد لله، عصام معي بالطب، وناج بمعهد الموسيقى.

- ما شاء الله ، أكرمهما الله وأكرمكما.

ويُحضِر أخو حسن أكواب الشاي. ويتناولون أخبار الإخوان المسلمين ونشاطهم بالجامعة، حتى يجد عبد الله الفرصة ليسأله:

- أرغب في استشارتك يا أخ حسن في أمر يشغلني.. أنا ألاقي

obeikandl.com

صعوبة في... في كبح جماح الشهوة والتركيز في الدراسة.. وقال صلي الله عليه وسلم: "من استطاع منكم الباءة فليتزوج". ولكنه بالنسبة لي متعذر، فما زلت طالبًا وما أعول نفسي..

- قال عليه الصلاة والسلام: "من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجّاء"..فهل جرَّبت الصوم؟

- لا.

- هذا إذن حل.. أنا أدرك تمامًا ما تعانيه وإخوانك الشباب، وأنا أصوم يومين كل أسبوع، الاثنين والخميس، سُنَّة عن رسول الله صلي الله عليه وسلم.

ويردف طه:

- وهل جربت الرياضة؟ هناك فرق رياضية في الإخوان، كفريق الجوالة مثلاً.

ثم لا يلبث كمال وعبد الله أن يستأذنا للانصراف، فيستمهلهما حسن، لكنهما يعتذران شاكرين، ويتصافحون بقوة وحرارة.

(١٥)

يقابل كمال نجوى مرة ثانية بالكلية، ويسيران في الفناء، فيسألها عن دراستها، فتجيب شاكية:

- في الحقيقة هي صعبة، فيجب أن أقرأ الكثير بلغة ليست سهلة.

obeikandi.com

- ولماذا لم تدرسي الأدب الفرنسي الذي نشأتِ عليه؟
- درست أيضًا اللغة الإنجليزية، وأريد أن أجيدها.
- لا بأس، ستجيدينها مع الوقت، فأنتِ لا ينقصك الذكاء والمقدرة.. أنا تمنيتُ دراسة الأدب أو الفن، ولكن جذبني القانون لأنه مفتاح المناصب، ولأعلم أيضًا حقوقنا وواجباتنا في المجتمع.. ولكني أنوى التعمق في الآداب والفنون، فهي غذاء الروح.
- نعم لا معنى للحياة من دونها.
- والآن لنبدأ تمرين الكلام باللغة الفرنسية.

وعندما يقابلها في المرة التالية يستأنفان الحوار عن الأدب والفن، ثم يتحادثان باللغة الفرنسية، فلا يلبث أن يقترح عليها التكلم باللغة الإنجليزية، فهي أيسر له، وأفيد لها، فتوافق مرحبة.

وبعد هنيهة، تخبره بأن شابًا تقدم لخطبتها ويروق لأهلها، من عائلة طيبة وثرية، ولكنها لا تريد زواجًا الآن. فينزعج ويسألها:
- أهذا فقط سبب رفضك ؟!
فتطرق بخجل وتتمتم:
- وكذلك ما تعاهدنا عليه.. إنه ثاني خطيب يتقدم.
- هل إذن.. من الأفضل أن أبادر وأتقدم لخطبتك؟
- لا أدري إذا كان والداي سيوفقان..
- لِمَ لا يوافقان؟
- أنت ما زلتَ طالبًا يا كمال.
- نعم، ولكن.. ما المانع من الانتظار حتى أتخرج؟

- لا أعرف هل يقبلان الانتظار حتى تعمل، ثم يمكنك أن تفتح بيتًا!
- لا أعتقد أن الانتظار سيطول.. والأمر يرجع إليكِ.. هل تصبرين!
- عن نفسي، لا أريد زواجًا حتى أتخرج.. وأعمل زمنا..
- هل إذن تعدين.. هل تعاهدينني؟
فتومئ برأسها بحياء. فيتأملها بإشفاق، هل يا ترى تتمسك به رغم كل الأحوال؟ ثم يفترقان وهو مهموم، تتقاذفه الهواجس والأفكار.

(١٦)

وفي الأيام التالية يعذبه أمر نجوى، هل يفقدها! لا يحتمل.. لا يقدر، هل حبها له يصمد لأي مشكلة تصدر؟ يرجو أن يقبل والده خطبتها له، حقًا وضعه كطالب لا يسانده، لكن قد يُزلل إذا تمسكت به وأصرّت..

وينتهز فرصة هدوء وفراغ والديه خلال الأمسية،ويفجر القنبلة:
- أريد أن أحادثكما في أمر هام.
فيحدقان فيه باهتمام:
- أريد خطبة نجوى.
فيفغران فاهما سامدين، ثم يسأله أبوه يتعجب:
- أتريد أن تتزوج ولمّا تتخرج؟!!
وتسأله والدته باهتمام:
- أتقصد ابنة جارنا: العيسوي بك؟

- أجل.
ويستأنف والده:
- يسعدني أن أخطب لك ابنة الحلال، إنما عندما تتخرج وتعمل.
فيتململ ويستاء للمعارضة، التي كان يتوقعها. فينبري يدافع:
- أعلم أني متسرع ولكن..ولكني لا أرى بأسًا في أن أخطبها حتى أتخرج، وسيكون هذا دافعًا لأتفوق.
يشعر أن الأمر باغت والديه ويريانه لا يُعقل. وتقول أمه:
- عائلة العيسوي عائلة محترمة، وابنتهم على ما يبدو كريمة الخلق مهذبة، ولكني أرى الأمر غير واقعي وأنت ما زلت طالبًا!
ويستأنف والده:
- حتى لو قبلنا، فلا أظنهم يقبلون.
وأسقط في يده! هذا ما يخشاه، حتى إذا أقنع والديه، فهل يقنع والديها؟!! توجس واضطرب، وتمتم في كدر:
- على كل حال فلنحاول.
- على كل حال دعنا نفكر.

وتنقضي أيام أخرى وما فتئت صورة نجوى تحتل فكره وتعوق مذاكرته، فيعود لسؤال والديه عن الخطبة. فينبري والده يقنعه:
- يا بني أقلع عن هذه الفكرة.. إذا كان لك فيها نصيب فسيتم زواجك منها عندما تتخرج وتعمل.. اِسمع كلامي أنا أدرى بمصلحتك.
- أخشى أن يتقدم لها شخص، وهو ما يحدث بين حين وآخر، لهذا لا أرى ضررًا في خطبتها حتى أتخرج..

فتنصحه والدته:

- حتى إذا لم يكن لك فيها نصيب، فغيرها كثيرات.. مثلها وأفضل.

ويطرق والده لحظة يتأمل، ثم يرفع رأسه زافرًا ويقول لأمه:

- لا بأس، سأكلم أباها، (ويلتفت إليه) على شرط أن يكون هذا محفزًا لك لتنبغ، فخذ لي منه موعدًا.

فتغشاه الفرحة، ويجيب تملؤه السعادة:

- سآخذ منه موعدًا، شكرًا جزيلاً.

وفي المساء التالي ييمم شقتهم بقلب خافق، فيفتح له وائل ويدعوه للداخل، فيبادره بأن أباه يريد أن يقابل والده، لهذا جاء يأخذ منه موعدًا، فيجيبه بأنه بالخارج، ولن يتأخر، فهل يحب أن يلعب الشطرنج حتى يحضر، فيومئ برأسه يسلِّم، لعله برؤيتها يسعد. وينقضي الزمن في اللعب وهو يحاول أن يركز، بينما يختلس النظر للداخل ويسترق السمع، لكن لا خبر، حتى تنتهي اللعبة ويخسر، فينهض لينصرف. فتدخل في هذه اللحظة نجوى ووالداها، ينير محياها، فيفرح. وبعد تبادل التحيات يسأل أباها:

- أبي يريد مقابلتكم.

فيرفع العيسوي بك حاجبيه ويجيب بتعجب:

- مرحبًا، يشرّف.

- ما الموعد الذي يناسبكم؟

- ليكن غدًا الساعة السادسة والنصف أو السابعة.. إذا كان يناسبه.

فيشكره ويستأذن، يقفز درجات السلم يستبشر، فيخبر والده بالموعد

obeikandl.com

وهو يلهث، فيقبل. لم يعد أمامه سوى الانتظار، يترقب ويتوتر، إما اندحار وأما نصر مؤزر.

(١٧)

أبوه ما برح لم يرجع، انقضت ساعة خالها ساعات، ماذا يا ترى تبادلا من أقوال؟ هل هش العيسوي بك ورحب، أم أبدى نفس الأعذار وتأسف؟! وطفق يروح ويغدو بحجرته يتلهف، يتمنى أن يمن عليه الرحمن ولا يَخذل.

وأخيرًا يحضر والده ويجلس، فيتفرس فيه وهو يشفق، ثم سرعان ما يجفل، عندما يرى بوجهه العبوس والتكدر. ثم يزفر والده ويذكر:
- ما كنت أظنه بهذه المادية.. يريد أن أكتب لك الأطيان ليضمن مستقبل ابنته..
فتهتف والدته تستنكر:
- ماذا! ألا يكفيه ضمانًا مركزنا الأدبي والاجتماعي المشرف؟!
- كما أن كل ما نملكه سيؤول إليه.
فتهاوى صريع اليأس. ثم يسأل بصوت متهدج:
- ولكن ماذا حدث؟ ماذا حدث من البداية؟
- بعد التحيات والمجاملات ذكرت أن لك رغبة في خطبة ابنته، وأني أدرك ظروفك الصعبة باعتبارك طالبًا، ولكن لا مبرر للخوف حيث إنك ناضج ومقدر للمسئولية، وصادق مخلص في عاطفتك، فلا بأس بخطبة حتى تنتهي من دراستك وتتوظف، فذكر أنه يشرفه

obeikandl.com

ذلك، إلا أنه مسئول عن مستقبل ابنته وسعادتها، ويتردد في خطبتها لطالب، ولكن بما أننا أسرة كريمة.. وإكرامًا لي، فلا يمانع على شرط أن أكتب لك شيئًا، كعشرة أفدنة مثلا، أو أضع أموالاً باسمك في المصرف..

ثم يزفر في استياء. فتقول والدته باعتداد تستهجن:

- أكل ما يهمه هو المال؟! ألا يعرف أنه يناسب أناسًا أشرافًا، وشابًا لا يعيبه شيء؟!!

- لا أدري ماذا بذهنه عن ثروتي.. وكل ما أملكه خمسة عشر فدانًا؟

واستمع منكس الرأس باطنه يصطرع، هل يفقدها بلا أمل؟

وينسحب إلى حجرته وهو محبط مكتئب، ليس بإمكانه البقاء في البيت، سيخرج للطريق. ويولي إلى الباب، فتبادره والدته مواسية:

- لا تحمل همًّا كمال، ستتزوج من هي أحسن، فقط اصبر حتى تتخرج.

واندفع في شارع قصر العيني. هل حقًا يتزوج من هي أحسن؟ وهل يوجد قرين لها؟! لقد عاهد النفس على حبها.. ويحث الخطى يريد لانفعالاته الحبيسة أن تنطلق. سأنفجر.. لن أستسلم، سأبذل كل ممكن.. نجوى، إذا صممت مع إصراري فلن نفترق.. لن تُفرّق بيننا أي أموال أو قوى.

ويهيم على وجهه منسدرًا، حتى يبلغ ميدان الإسماعيلية، ثم يقرر أن يرجع. قولي إنك لا ترضين.. وتتمردين.. ثقي بأني مخلص أمين.. أقسم ألا يقع ما يجعلك تندمين، بل كل وفاء وسعد مقيم.. ثم

obeikandl.com

يسري في باطنه شيء من العزاء.. ما برح أمامي أن أباحثها فنصل إلى حل، إذا ضمنت قلبها فلا شيء يقف أمام الحب.

ويترقبها بالشرفة آملاً أن تهل، لكن عبثًا، تركتك في متاهات القلق والكبد تضل. فلأصبر إذن حتى أقابلها بالجامعة.

وفي اليوم التالي يقوم إزاء قاعة محاضراتها، وعندما تخرج يحييها ويبادرها:

- هل توافقين على ما طلبه والدك؟

فتطرق متضرجة الوجه وتتمتم:

- وماذا أفعل؟

- أهذا عدل؟

ويبدو عليها الحيرة والأسف وتهمهم:

- لا أدري يا كمال، إن للآباء منطقًا آخر..

ويفتر حماسه، كان يتوقعها أن تصدم، وتشاركه الغضب والتمرد.

- هل تفرِّق بيننا أشياء تافهة كالمال؟ ليس من المعقول أن.. أن نفترق لهذا السبب!

- اصبر يا كمال.. ربما.. ربما يكون حل.

وتنقضي هنيهة صمت مثقلة بمشاعر اليأس.. لِمَ هي ساكنة هادئة، لا يبدر منها عهد أو وعد؟ فيقول بقلب مضطرم:

- هل معنى هذا أن.. أن نفترق؟

يريد ليستصرخها ويستنطقها. ويتفرس فيها يستشف خِملتها، فيراها تطرق وتهمس:

- ما زالت الأيام بيننا ممتدة.
فيسارع بتلهف يستعهدها:
- لنقسم إذن على التعاهد.. لنقسم أمام الله على الارتباط والتواثق.
ويومض له فجأة في حُميّا الانفعال مشهد رآه بأحد الأفلام: العاشقان يمزجان دماءهما ذروة الوفاء. فيبادرها بحماس:
- لنجرح إذن معصمينا ونمزج دماءنا، آية اقتران مصيرينا.. سأبحث عن شفرة.
فتجفل مضطربة:
- لا يا كمال.. لا تجرح نفسك.. هذا كثير.. هذا إغراق في الخيال.. إلى اللقاء.. عندي الآن محاضرة.. كن عاقلاً.
وتبتعد بينما هو قائم يتمتم بأسف: ليتك تحبينني كما أحبك.

(١٨)

يقف كمال في شرفة حجرته يحدو الشمس في مغربها. قالت: اصبر ربما يكون حل! أنتِ بيدك الحل.. وقالت: الأيام بيننا ممتدة.. أجل، الأيام والشهور والسنين، سأظل المحب المخلص الأمين.. إنَّا جيران لكن معازيل، قريبان لكن بعيدان.

وباتت خيامي خطوة من خيامها فلم يشفني منها جوار ولا قرب

وأجفلتْ تقول: لا تجرح نفسك هذا كثير.. أيهولك خدش في المعصم صغير، وتستهينين بجرح في القلب كبير!! وكيف تقولين إغراق في الخيال وأنت منبع الخيال.. والإلهام الباعث على المحال؟

في المساء يحضر ناج لزيارته بعد طول غياب، فيسأله أين كان طوال الأيام، فيجيبه بأن دروسه الموسيقية كانت هي الشاغل. فيبادره يداعب:

- طبعًا، تحلق في عالم الأنغام ولا يهمك الأنام.

- بل يهمونني، فبدونهم ما كنت موفقًا في الموسيقى، هو حب جديد..

فتعبس أسارير وتنقبض، فيلاحظه ناج ويسأله عما به، فيجيبه:

- لا شيء.. فقط تذكرت إحباطي في حبي.

- ومن هي؟

- أنت تعرفها.. نجوى.. كنت أريد أن أحدثك عنها لكن لم تأتِ فرصة.. أردت خطبتها، وصعد أبي إليهم يطلب يدها، إلا أن أباها طالبه بكتابة عدة أطيان باسمي ليضمن مستقبلها.

فيلاحظ انقلاب أساريره وامتقاع لونه، فيرتاب أنه يحبها أيضًا، فينزعج يستوضح:

- ماذا؟ أنت أيضًا تحبها!

فينفي برأسه والألم على وجهه. فيستطرد كمال يبدي أسفه:

- بل تحبها.. كيف.. كيف حدث هذا؟ لماذا لم تقل لي؟ (ويعبر برنة أسى) هذا أليم مؤسف أن نحبها نحن الاثنان!!

ثم يومض له شبح خيانة في الجو.. أتكون غررت بهما الاثنين؟ تركتهما ليهيما بها، لترضي غرورها، أو لتغرر به هو؟! أجل، ربما هو من خُدع، وأنها وناجيا متحابان! فيحس باختناق. فيسأله بعسر هل تعاهدا؟ فيبادر بحرارة يؤكد:

- لا، أحلف لك أن لا شيء بيننا، بل مجرد إعجاب من طرفي أنا.

- يحتمل مع هذا أنها تحبك!!
- هذا مستبعد.. خصوصًا وقد سمحتْ لك بخطبتها.
ويحرك رأسه في حيرة وأسف، وتنقضي لحظات صمت، ثم لا يلبث أن ينهض لينصرف وهو يتنهد قائلاً:
- لا تحمل همًّا، قد تكون من نصيبك فعلاً.
فيصافحه كمال في شرود يهمهم: لا أعلم! وخرج ناج حزين أسوان. كانت أملاً عابرًا، وإذا كانت سعادتها مع كمال فناشد لهما كل سعادة ووئام.

ويرتمي كمال على كرسيه تعصف به الأفكار، هل أوحت لناج بشيء فانساق وراء حبها؟ هل يمكن أن تنكشف عن عابثة لاهية، ستكون له ضربة قاضية.. قال ناج أنه أحبها من طرفه هو، وحينئذٍ لا علم ولا ذنب لها! ما يؤلم الآن وقوفي حائلاً أمام حبه. وانقبض صدره، وقرر أن يكتب لها:
نجوى: سواء علمتِ أم لم تعلمي، فناج يكن لك عاطفة حب سامية، وربما يكون أحق بحبك، وعلى هذا أتنحى، فما كنت لأبني سعادتي على أنقاض سعادته، خاصة وأن ناجيًا صديق عزيز، يستحق كل خير وتقدير."
هي تضحية مني غالية!! لكن سأترك الاختيار لها.. لكن اعترضه نذير، أمِنَ الحكمة إرسال الخطاب؟ وربما لا تعلم شيئًا عن حب ناج، فيصدمها ويحرجها، وكذلك يحرج ناجيا! فيمزق الخطاب ويرتمي على الفراش.

(١٩)

انقضت خمسة أيام منذ زاره ناج، فيصعد لزيارته، فيلفيه مريضًا طريح الفراش، فيعلم أنه أصيب بنزلة ربوية حادة، فيأسف ويحاول أن يخفف عنه، ما فتئ يشعر بالذنب صوبه، إذ اعترض طريق حبه، ولكن كيف كان له أن يعلم؟ فيسأله هل يكلم نجوى بشأنه، فيحتمل أنها تحبه، فيعترض بشدة. فيصمت آسفًا لهذا الموقف المحرج، ولا يلبث أن يستأذن في الانصراف يتمنى له الشفاء.

ويؤدي تأثره بالموقف إلى أن يشعر في اليوم التالي هو أيضًا بألم بالمعدة وتوعك، فيتناول بعض الأقراص. ويظل متوعكًا لثلاثة أيام، حتى يسترد قواه، فيصعد في المساء لزيارة ناج، وعندما يصل إلى طابقه يرنو لشقة نجوى. هل انتهى ما بينهما؟ أم ستنتظر حتى أتخرج؟ وحينئذٍ والدها يقبل؟ ماذا كتب في لوحة القدر؟

ويدق جرس شقة ناج، فينفرج الباب عن ناهد بوجهها الناضر، وبمجرد أن تراه تصيح بفرح: أهلاً كمال تفضل. فيخطو للداخل يسألها عن ناج، فتخبره أنه ذهب للطبيب ولا أحد بالبيت غير أمها، فيسألها عن صحته، فتخبره أنه شفي، لكن ذهب للطبيب ليطمئن، وتدعوه ليجلس، فيجلس لهنيهة. ويراها تبتسم له وتقول:

- لم نرك منذ زمن.

فينكس رأسه ويتمتم في حرج:

- مشاغل الدراسة.

- أظن كلية الحقوق صعبة.

- أجل.. آلاف من الصفحات.

فتستطرد في حماس وجسمها ينتفض بالحيوية والحبور:

- « شد حيلك »، نود أن نراك وكيل نيابة.. أما أنا فلا صبر عندي بلدراسة، قد ألتحق بمعهد من المعاهد.. لقد اشتريت أسطوانتين لفريد الأطرش:الربيع، ويا زهرة في خيالي.. سأسمعك الأخيرة.

وتتجه للجهاز، ولكنه يبادر بالنهوض لينصرف، فتتفرس فيه بوجوم وتسأله فيم العجلة؟ فيذكر أنه يجب أن يستذكر، فتستمهله وبعينيها نظرة عتاب حيرى، فيجلس على مضض متحاشيًا أن يؤلمها.

وينطلق اللحن والصوت الساحران:

يا زهرةً في خيالي   رعيتها في فؤادي
جنت عليها الليالي   وأذبلتها الأيادي
وشاغلتها العيون   فمات سحر الجفون

وتقول له بعينين حالمتين:

- رائعة، أليس كذلك؟

- بلى.

- هي تانجو.

- أجل.

- أتتذكر رقصنا في « الأتنيوس »؟

- أجل.

- كانت ليلة جميلة حقًا.

- نعم..

obeikandl.com

وينهض لينصرف، فتبتدره معاتبة:

- أمللت سريعًا الجلوس معي؟

- لا.. ولكن..

وتقترب تلتصق به وتهمس:

- لكن ماذا.. ألا تحب أن ترقص؟

فيبادرها على الفور مضطربًا:

- لا.. أقصد..

- ماذا تقصد؟

ثم تقرب فاها من فيه، وتهمس:

- ماذا تقصد؟

ويظل متحجرًا في مكانه لا ينبس، ثم يتمتم في أسى بصوت متهدج:

- إني.. إني أشعر بالإثم يا ناهد.

- لماذا؟

- أنا أخشى الله.

- ألسنا صادقين؟

ويتراجع يمة الباب. فتقول بصوت مختنق بالغضب والامتهان:

- ولماذا تخشاه الآن.. لماذا تخشاه الآن فقط؟!

ويحتبس صوته، ويجاهد ليجيب بعسر:

- كنت ضالاً.. كنت ضالاً.. سامحيني يا ناهد.

فتنفجر بصوت مرتعش مشف على البكاء:

- أم تود فقط أن تعرف كل شيء وتجرب كل شيء؟ لقد سمعتك تحادث نجوى بالطرقة، وتقول لها السكوت علامة الرضا.. فماذا

obeikandl.com

تقصد؟ أتستدرجها هي الأخرى؟
وتغوص كلماتها كنصل حاد بقلبه، فينفلت إلى الخارج منكس الرأس يأتل[1]، الخزي يصرعه، والندم يمزقه، وكلمات الأغنية تلاحقه!

(٢٠)

ويستغرق في الاستذكار طوال الأيام. ويومًا يسأله والده عن مدى تقدمه، ثم يعده عند النجاح سيكافئه. فيبادر بأن خطبة نجوى هي المكافأة الوحيدة التي تسعده. فيطرق هنيهة متأملاً، ثم يقول واعدًا: سأخطبها لك إذا تفوقت، فيسأله هل يلبي طلبهم؟ فيجيب بنعم. فلا تسعه الدنيا من الفرحة، يغشاه حبور وسكرة، ما أكرم والده وأطيب قلبه.. سأزف لها البشرى، لكن كيف، ولم أرها بالشرفة منذ فترة، وغدًا الخميس لا يتخلل محاضراتها فسحة، إذن سأكتب لها كلمة وأسلمها إياها بين المحاضرات في عجلة. فيحضر قلمًا وورقة ويكتب:
نجوى: أخيرًا تحققت والحمد لله الأمنية، فوافق والدي على طلب يدك إذا نجحت بدرجة متفوقة، وهل أملك الآن إلا الامتياز، لكي يتقدس بيننا الرباط، وأنهج في الصراط ، فأنت دستوري وحقوقي والتزاماتي، والنجم المضيء في سماء حياتي.

---

(١) مشي متثاقلاً ، أو يقارب خطوه في غضب.

وفي اليوم التالي يسلِّمها الخطاب بين المحاضرات.

(٢١)

وفي منتصف يولية يسافر مع والديه للإسكندرية. ويقبل على الثغر الفتان بقلب مشوق ولهان، هذا الصيف سأنال ذروة الآمال. ما عليَّ إلا انتظار نتيجة الامتحان، ثم بعدها تتحقق الأحلام، وبإذن الله لن يخذلني الرحمن، وقد أبليتُ بلاءً حسنا في الامتحان.

وبعد أيام يتلقى رسالة من صديق يبشره بمتفوق النجاح، فيطير بالفرح يحلق في السماء، ويخشع بالصلاة ركعتين يقدم آيات الحمد. ويهنئه والداه، ويداعبه أبوه بقوله:

- الآن أصبحت نصف محام.

فيذكرهما بما وعدا من خطبة نجوى، فيستمهلانه حتى يعودوا للقاهرة، ليتمكنوا من دعوة الأقارب والاحتفال المناسب، لكنه يصر على المبادرة، فما فتئ شهران طويلان حتى العودة. فينغض أبوه رأسه ويقول ضاحكًا:

- ما أسعدها بك! سأكتب لك عشرة أفدنة، وأرجو أن تكون عند حسن ظني دائمًا.

- أقسم على ذلك، وأتعهد أن أكون إن شاء الله، متفوقًا.

كم هو مدين لأبويه بالعرفان، ويكن لهما كل الحب والوفاء.

وفي الصباح التالي يطير إلى سيدي بشر بقلب خافق، فيلفي

obeikandl.com

بالمقصورة العيسوي بك ووائلاً، أما نجوى ووالدتها فتتريضان على الشاطئ، فيبادر ويخبر العيسوي بك برغبة والده في مقابلته، فيبتسم مخمنًا غرضه، ويدعوه ليتفضل غدًا في الضحى.

ويذهب والده للمقابلة، ثم يعود ويخبرهما بالموافقة، وتحدد لاحتفال الخطبة أمسية الخميس المقبلة. فيثمل بالبشرى ويهمس في سكرة: هل تحققت الأماني، وفزت بجنة حياتي؟! سبحان المنعم العاطي، الآن سأجاهد في سبيل واجباتي، كمسلم ومواطن وطالب، وأن أضع نصب عيني: { وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ }.

ويذهب مع أبويه فيبتاعون دبلتي الخطبة وسوارًا جميلاً للشبكة. وفي أمسية اليوم الموعود ييممون مع أسرتي عميه محسن ونجيب، سيدي بشر العزيز، حيث موطن الحبيب، فيستقبلهم أهل نجوى ببالغ آيات الترحيب، ثم تبزغ أمامه العروس مجلوة، في كامل الجمال والرقة، في ثوب ناصع البياض من «الدانتل والساتان». يا لسحر الأسارير، هل سأحظى بهذه الدرة، في آصرة أبدية ذروة؟! العينان ذاتا بريق، والأنف أشم دقيق، والثغر وردي رقيق.

ثم يضع بالإصبع الرهيفة الدبلة الذهبية، فتضع بدورها دبلته الفضية، فالإسلام يحظر لبس الذهب على الرجال. ثم يقدم الشبكة، فتنال الرضا من الأسرة، ثم تطوف أكواب الشربات، فيرشف منها يرنو لها بقلب عامر بالوعود، ويفصح:

- بهذا الخاتم يرتبط مصيرانا.. وإن له ميزة سحرية؟ فإذا أردت

شيئًا، فلتمسحيه، فأظهر لك أُلبِّيه.
فتتساءل ضاحكة بإشراقة ساطعة:
ـ أهو خاتم سليمان؟
ـ أجل.
وهنا يسمع العيسوي بك يقول له:
ـ أملنا كبير في كمال.. لعله يصبح وزيرًا يومًا من الأيام.
فيضحكون، ثم يضيف والده:
ـ كل طالب حقوق يبدأ بآمال كبار، ففي السنة الأولى يطمح ليصبح رئيس وزارة، وفي السنة الثانية وزيرًا، وفي الثالثة زعيمًا حزبيًا، وفي الرابعة مجرد وكيل نيابة.
ويضحكون. ويتذكر عمه محسن ما سمعه قديمًا من صديقه الدكتور منير جرجس عن كمال ونبوغه، في حفلة عيد ميلاده، فيقول له غامزًا بعينه:
ـ أنا واثق أن كمالاً بذكائه سيصل إلى أرقى المناصب.
فيطرق في خجل، يشعر أنه يملك فعلاً الطاقة ليصل.
وتطوف صواني الملبس والشيكولاته، فيمتنع عن تناولها، فتسأله نجوى عن السبب، فيفصح :
ـ ألا يكفيني حلوى النظر إليك؟
فتتسع عيناها تفاجئها المجاملة، فتميل برأسها للوراء تقول ضاحكة:
ـ إذا اعتمدتَ على هذا، فأخشى بعد أيام قليلة أن تتلاشى.
ـ بل أخشى أن أزداد وزنًا.
ـ لماذا؟ هل أنا دسمة؟

- بل شهيتي هي النّهِمة.

ويأذن حفلهم بالانفضاض، ويخرج هو وأهله إلى الطريق، بعد أن دعا والده أسرة العيسوي للعشاء غدًا بفندق سان استفانو. ويرى أمواج البحر، تضحك له مهنئة بأسنانها الفضية، تعزف له بهديرها نشيد السعادة الأبدية. ويتناهى لسمعه من مذياع بالطريق، صوت عبد المطلب يصدح بأغنية:

شفت حبيبـــــي   وفـرحــت معـاه

كان وصل جميل   حـلـو يا محــلاه

(٢٢)

وفي المساء التالي يلتقي بنجوى وعائلتها بفندق «سان استفانو» للعشاء، فيقضون أمسية سعيدة، عمرت إلى جانب المأكولات الشهية، بأحاديث مرحة، تنمي التقارب والمشاعر الودية.

وفي الصباح التالي ييمم وجهه سيدي بشر العزيز. يحق لي الآن مغازلتها، والتعبير عن مشاعري نحوها. ويلفيها جالسة وحدها تحت الشمسية على الصخرة، فيجيش صدره بالعاطفة والحبرة. وعندما تراه يتطلق محياها بإشراقه البهجة، وتقوم تصافحه محتفية. ويجلس قبالتها يموج بالفرحة. وتنقضي هنيهة تضيع منه الكلمة، من أين يبدأ وبأي تعبيرات لبقة؟ أهي من قاصرات الطرف، لم يمسسهن إنس ولا جان، هدية درية من لدن الرحمن! الآن يكتمل

opeikanda.com

نهج حياتي خالصًا لثلاث: الله والوطن ونجوى. وتنقضي الدقائق القليلة الآنفة، كساعات زاخرة، لكن يجب ألا يدع الصمت بينهما يطول، فقد يوحي بخواء النفس أو فتور الشعور، خاصة والأواصر في بداية التفتح والظهور، وتحتاج للتعهد والرَّي، ويلفيها تتأمل البحر، فينطلق لسانه بأبيات مجنون ليلى، مستبدلاً اسم نجوى بليلى:

"نجوى" نداء "بنجوى" رنّ في أذني
سحر لعمري له في السمع ترديد
"نجوى" تردد في سمعي وفي خلدي
كما تـردد في الأيــك الأغـاريـد

فتلقي برأسها إلى الوراء تضحك في رقة وتفصح:

- لم أكن أعلم أنك شاعر عظيم كمجنون ليلى!

- لأني أنا أيضًا مجنون نجوى.

- أهكذا! وهل ستردد أشعارك عنها في كل ناد؟

- لا، بيني وبينها فقط.

- هذا أفضل.

وهنا يحضر وائل، فيصافحه ويجلس. وتنقضي لحظات يتأمل تحته ضربات المويجات للصخر، فيتذكر جلسته هذه منذ عامين، يحدق في اللجات ويتمنى الغوص في الطيات، عندما صدته بجفاء.. كم انقضت سريعًا الأيام. ويسأله وائل هل يلعب الشطرنج، فيتشجع هذه المرة ويبدي الاستنكار:

- وهل يليق أن نترك نجوى الآن لنلعب!

فيبلس، ويومئ يتفهم، ثم يستأذن للذهاب إلى صديق، فيشكر له في

obeikandi.com

باطنه هذا الصنيع. وتقول نجوى:

- لماذا لم تلاعبه؟ ما كان هذا يضايقني.

- لماذا؟ وأنا حتى لا أحب الشطرنج.

- آه! ظننتك تحب الشطرنج!

ويتنبه لخطئه، ويراها تنظر إليه باستفسار وتعجب. فيوضح:

- آه.. أقصد.. ليس في كل زمن، خاصة ومعي صحبة لا تقدر بثمن.

فتكافؤه بابتسامة تأسر النظر. أتمنى الآن أن أجلو سريرتها وأكتشف شخصيتها. فيسألها:

- نجوى، أريد أن أسألك: ما الذي تتطلعين إليه في الحياة، أقصد، ماذا تعتقدين أنه أهم رسالة للإنسان؟

فتتأمل هنيهة، ثم تجيب:

- بالطبع أن يسعى إلى الأفضل.. سواء في نفسه أو في مجتمعه..

- أجل هذا رأيي أيضًا، ولكن ما هو الأفضل؟ أرى أنه خدمة الوطن، النهوض بالمجتمع، القضاء على الفقر والجهل والمرض، فمصر لا يحق أبدًا أن تكون بهذه المستوى المنحدر، مصر التي بدأت الحضارة وسبقت الأمم.

- أوافقك، فلا خير في إنسان لا يعمل من أجل المجتمع والوطن.

- أجل، والحياة قبل كل شيء رسالة، واختبار لإرادة الإنسان في سيطرته على أنانيته وشهواته.

وهنا يحضر والداها فيصافحهما. وبعد قليل يستأذن لينصرف، فتقوم تودعه فيسألها هل ترافقه غدًا في نزهة مسائية على الشاطئ، فتخطره بتعذر خروجهما إلا بصحبة أحد الأقارب، فيوافق، ثم

obeikandi.com

يسألها شيئًا محببًا، طالما راود خياله:

- أتمنى لو تحفظين أشعار مجنون ليلى لشوقي، فننتطارحها.. فهل أحضرها لكِ غدًا.

فتضحك وتقول:

- طيب، سأحاول، لكن لا أعدك بالإتقان.

- لا بأس، سنحاول معا.. فهي خبرة شاعرية جميلة خليقة بالمحاولة.

ويصافحها ويدور على عقبيه وصورتها تملأ عينيه.

(٢٣)

ويصل لديارها بالسادسة، مرتديًا أجمل ثيابه، ويخرجان ومعهما وائل ميممين الشاطئ. لا يشعر بوطء خطوه المتواثب، فقد استحال إلى روح طائر. أما كان يقدر لنا كتب الكتاب فننطلق بلا مرافق؟!

ويمشون على الشاطئ، فيبدو له في رونق مخالف، فالشمس تغرب متوردة الوجه تضحك، والخضم في فرح يرقص، والنسيم لطيف منعش، والهائمون يتناجون ويحلمون على الشاطئ. ويسير إلى جانبها يجيش بالأماني والمشاعر، يفتنه شذاها الرقيق الآسر، وشعرها الحرير المتطاير، فيتمنى أن يظل بجانبها لا يفارق، فليرهف إذن حواسه لكل ما يمنحه حضورها من إحساس ساحر، غافلاً عما يدور من حديث فاتر مع وائل، ويتذكر سيره على الكورنيش مع ناهد يتمنى بائسًا لو كانت نجوى هي المرافق، الآن تحقق ما كان أملاً بعيد المنال متعسر.. لكنه سرعان ما شعر بغصة،

obeikandl.com

لما بدر منه حيال ناهد من خِسّة، فحطم قلبها وبدا كالعابث الخائن.. ثم ناج وحبه، ووقوفه أمامه عقبة؟ ويتنهد. الحياة تبدو ليست هينة سهلة، ليت بمقدوري جعل الناس كلها سعيدة فرحة.

ويمل وائل التطفل عليهما فيقرر انتظارهما عند صديق في مقصورة بالشاطئ، ويتركهما يولي، فيشعر صوبه بالامتنان، تغشاه النشوة حيث صارا في خَلوة، فيطرد هواجسه ويعود لسالف فرحه بحضورها، فيبادرها بصوت يفيض بالعاطفة:

نجـــوى بجانبـــــي   كل شيء إذن حضر.

فتعلو أساريرها ابتسامة وضاءة، مشوبة بخفر. ويتذكر كتيب مجنون ليلى لأحمد شوقي، فيخرجه من جيبه، فيقدمه لها ويفصح:

- ها هو شعر مجنون ليلى، فأرجو أن تحفظي بعض ما جاء به. ويقص عليها قصة قيس مع ليلى، وتعنت أبوها الذي هو عمه، رافضًا أن يزوجها به، لِمَا أذاعه في شعره من حبه لها، فشرد في البيداء والهًا يترنم بعشقه.

ثم يطلب من نجوى أن يتطارحا شعره، فيشير لها على البيت الذي تبدأ منه بالرد عليه، ثم يدعوها للجلوس على سور الربوة. ثم ينشدان، حتى يصلا لأبيات:

- جمعتنا فأحســــنت   ساعة تفضل العمــر

- أتجــــــدين؟

- ما فــــــــــؤادي   حــديـد ولا حجـــر

لك قلب فســـــــله   يا قيس ينبئك بالخبـر

قد تحملت في الـهوى فوق ما يحمل البشــر

فيضع كفه على قلبه وينشد بصدق:

لست "نجواي" داريًا كيف أشكــو وأنفجــر

أشرح الشــوق كـــله أم من الشوق أختصــر

فتضحك وتقول:

- من الشوق اختصر، فقد حان الوقت لننصرف.

فيضحك ويفصح:

- ما أحوِي من عاطفة أعظم من أن تُختصر.. وإلا فهي تبتسر.. لماذا تتعجلين أن ننفصل، وما فتئ عندي الكثير من الغزل، يمدني بالذخيرة عندما أنعزل.

فتضحك مفصحة:

- وهو كذلك، نبقى بعض الوقت لبعض الغزل.

ويبلغان الصخرة أمام مربع المقاصير حيث مقصورتها، وكان معظمها مقفلاً إلا من قلة حوت الشعراء والمتناغين. ويرى الشمس قد اقتربت من البحر تهم بعناقه في شوق. ويصلان لنهاية الربوة عند « بئر مسعود »، فيتوقفان، فيفصح لها بإخلاص:

- نجوى: أتمنى أن أثبت لك صدق عاطفتي، وعمق مشاعري، ليس فقط بالأشعار، بل كذلك بالأفعال.. اطلبي أي شيء من الأشياء، اطلبي حتى النجوم بالسماء.. امتحني قوة حبي وقدرتي على الوفاء.

فتضحك وتجيب:

- سيأتي في حينه، لا تتعجل الامتحان.

- آه! لفظ الامتحان يثير عندي الكثير من التحدّي والافتتنان.
وتنقضي هنيهة تفيض بالأحاسيس، ينصت فيها للخضم وهو ما فتئ يرغي ويزبد في لهفة وحنين، يرتل الأشعار بعد الأشعار يطلق ما هو دفين. ويفصح لها:
- نجوى: شد ما أتمنى لو نتحدث بالفصحى، فما أريد الإفصاح به تعجز عنه اللغة العامية.. بل ليتنا جميعًا نتكلم بالفصحى، خاصة إذا كان ما نعبر عنه عميق وسام. هي كذلك تساعدنا على تذوق الأدب والشعر، وهي بذلك ترقى بمشاعرنا وتثري وجودنا.
- هذا حلم..
- لا شيء بمتعذر إذا صدقت النية وانعقد العزم، بادئين من الطفولة، خاصة وقد حظينا بأغنى لغة، وكنا أفصح أمة، ثم جاء القرآن يمدنا ببلاغة الذروة.
- أسلوبك شاهد على صدق الحجة.
فيضطرم بالعاطفة مستثًارا بقولها، فيصبو لضمها وعناقها. ثم تطلب منه العودة إلى وائل، فيجيبها بقلب آسف:
- ما أسرع ما انقضى الزمن! جرى كلمح البصر!
- هكذا الأوقات الجميلة.
- أشعرتِ بجمالها؟
- "ما فؤادي حديد ولا حجر".
ويضحكان.

ويصلان إلى وائل بمقصورة صديقه، فيصافحها مودِعًا قلبه

لديها، ومحتفظًا بذكرى جمال صحبتها. وبينما يسري بالكورنيش يصادف سمعه من جديد أغنية:

شفت حبيبـــــي وفـرحت معـاه

كان وصل جميل حلـو يا محـلاه

فيذوب في سكرات النشوة والحنين.

(٢٤)

استلقى سمير على السرير بغرفة نومه في الأصيل، يلتذ بمشاهدة مجلة فرنسية ابتاعها اليوم، ويدخن سيجارة «بول مول»، في الوقت الذي أدار فيه المذياع على ما يطلبه المستمعون، ثم يهتف بسرور: أمتع بها مجلة لا تقدر بنقود، حوت أجمل فرنسي الحور. ثم يهش لسماعه أغنية « يا حسن يا خول الجنينة يا حسن..». حراه أن يتمتع الليلة بطريف اللذة، حيث وعده ابن عمه «مراد»، خبير الملذات، بتقديمه لأخت صديقته، من غيسانيات الإيطاليات، أشاد بحسنها وظرفها، وسيمر عليه بسيارته في السادسة والفتاتان معه.

ويحس بالحنين لشيء من الحلوى. معك سبعون قرشًا، فلوما ترسل «بخيت» إلى «موناليدس» فيشتري لك من لذيذ الجاتو نصف دستة، ولكن مهلاً يا عزيزي، أليس من الحكمة أن تدخر كل ما معك لنزهة الليلة، فتظهر أمام الحوريتين بمظهر الوجيه ذي الأرْيحيّة؟ لا يهم، كل ما ستدفعه: تسعة قروش.. لكن ما العمل

obeikandl.com

مستقبلاً لجذب الحوريات لممتع للقاءات، إذا لم تحز وافر الأموال!

وينادي الخادم فيوصيه بانتقاء الأصناف التي يهفو إليها، ويفرك يديه سرورًا. لا تعكر صفوك يا عزيزي المركيز بشأن سيولة الأموال، لما تتيسر الغيسانيات ستستدر من والديك المريّشيْن الأموال، أطال الله في عمرهما وزاد في ريشهما، كما بت على وشك العمل بالمحاماة، بعد نجاحك بالملحق بإذن الله، ما هما حاشا علمين: الإجراءات الجنائية والتنفيذ.

ويطوف بالشقة، ليس بها غيره، فأبواه في الخارج وليس له إلا أخت متزوجة. سيرتدي الليلة حلته «الشركسكين» ورباط عنقه الأزرق المزركش. ويفرك يديه مسرورا، ألذذ بها من فرصة مع لطيف الإيطاليات. ويتجه للشرفة يتطلع للبحر، أعظم به من منظر، وألطف به من ريح مرطب، يتبين أن بالشاطئ بديع المستحمات. فأحضر منظاره المعظم وأخذ يرقب.

ولا يلبث أن يأتي بخيت بشهي الجاتو، فيهش لقدومه. ويتمتم: الحياة مترعة بالمتعة، المنفذ إليها الأموال الجمة. ثم يتجه للمذياع يديره باحثًا بالمحطات الأجنبية عن الأخبار. ما يزعجك هو بداية تطرف الثورة واتخاذها طرائق الشيوعية، من مصادرة الأموال، وتحديد الملكيات، ومهاجمة الأثرياء، فضلاً عن انتهاك الحريات، هم حققوا بعض الإنجازات، لكن رويدًا رويدًا سيسلكون ككل أصحاب الانقلابات: الاستئثار بمقاليد الدولة، وعبادة الترف والسلطة، الفارق بينهم وبين الأسلاف، هو أنه مع وجود

الديمقراطية، يجد كل حزب حاكم معارضة تكبح جماحه، فتحد من تماديه واختلاساته.

وفي السادسة كان أمام بوابة العمارة، في متأنق حلته، وحليق ذقنه، ولامع شعره. ويصل مراد بسيارته، «الكريزلر» الفارهة، فيلمح بداخلها حوريتين غيسانيتين، ترتعشان بخفة ضاحكتين. ويقدمه مراد لصاحبته «تريزا» الجالسة بجواره، ثم صاحبتها «ماريا» بالمقعد الخلفي، فيندس بجانبها يموج بالغبطة، ملقيًا عليهما التحية بمشاعر حيية: يا أهلاً وسهلاً.. أشرقت الأنوار.

وتنطلق السيارة على الكورنيش، وهو صامت جميل الصمت، المترقب في غير سبق، ويفلي[١] قائلاً لنفسه: ألذذ بها غيسانية، منمنمة القسمات حلوة، ما أخبر مرادًا بالملذات! يساعده أنه مريّش من الأعيان، يملك بالدقهلية قرابة مئة فدان، وبين كل جني وجني ينزل للقاهرة أو الإسكندرية، ليغترف من حسنياتهما الغنية، جسمه ووجهه اللحيم ينم عن طبع سمْح كريم. ويسمعه يقول له إن الإيطاليات خفيفات الظل كالمصريات، فيسارع بالتأكيد، وتضحك الفتاتان بنعومة أسكرته. ويقترح عليه مراد الذهاب لسينما وبعدها سهرة بملهى. فيؤيده بحماس وبهجة:

- أنعم وأكرم به من اقتراح.

ويقدمه مراد للفتاتين قائلاً:

---

(١) يتأمل ، يتدبر، يختبر.

- حضرته محام.. ويمكننا الاعتماد عليه في أي ادعاء قانوني أو إشكال.

فيتمتم بابتسامته المعسولة ويعلق خجلان:

- حاش الله بيننا وبين الادعاءات والإشكالات.

وتسأله ماريا هل عنده مكتب بالقاهرة، فيومئ بالإيجاب في حرج، لا يجرؤ على النفي أو يمد إليها النظر، ثم تسأله أين يسكن فيذكر بجاردن سيتي، ويسألها بدوره، فتجيب: «باب اللوق»، فيبدي سروره لقربهما في السكن.

ويدخلون دار«أمير» لمشاهدة فيلم أمريكي، وبعد خروجهم يتجهون لأحد الملاهي الليلية، يحتلون مائدة قريبة من المنصة، ويأمر مراد بزجاجة شمبانيا إلى جانب المشويات والسلطة، ثم يصب لكل كأسه. وسرعان ما تحتل المنصة مغنية ثقيلة الأعطاف ممتلئة، أخذت تغني «يا قمر حينا»، ثم يعقبها جمهرة من الراقصات، في حلل الرقص المموهة بالترتر البراق، يتبهنسن ويتخلعن في مظاهرة من الإغراء، ثم يدُرن ويتكسرن للوراء، ثم يرفعن زبدي الأرجل في اتساق، يتقصفن مع مثير الإيقاعات، يرعشن رعشة المكهربات، في براعة فاقت لولب الآلات. ثم يظهر مغن يصاحبه سبع راقصات، أخذ يشدو: «ادلع يا جميل مين زيك مين». ويعود مراد يصب لهم الكأس الثالثة، فيود أن يعتذر، فلم يألف الخمر، وقد يفقد الحكمة والعقل، ولكنه يجد الفتاتين لا تمتنعان، فينصح نفسه: يا عزيزي المركيز لا تظهر بمظهر الشاب

الغرير، غير المحنك الخبير، واندمج مع الفتاتين في اللهو والمرح الظريف. ثم يجذبه مثير الرقص، ومطرب شرقي الألحان، بدلالها وإيقاعاتها المدغدغة للحواس، وقد عبق الجو بعرف المسك، ممتزجًا برائحة الطباق والخمر، فيتمتم في نشوة الطرب: أمتع بها من ليلة تفوق الليالي، وأفتن بهما غيسانيتين من ألطف الغواني، ثم أمتع بها من جلسة بين الخلان، تحكي فيها بالتفصيل الرائع كل ما حدث الليلة من وقائع.

ويصب مراد الويسكي لهم، فيتمنى أن يعترض، لكنه يتحرج عندما يجد الفتاتين تقبلان. يا عزيزي الأرشيدوق لا تظهر بمظهر غشيمي مجالس الأنس بحضرة لطيفات الجنس، وأَبِن عن حُنكة ذوي التجارب في شئون الغزل واللهو. ويتوَّج البرنامج بأغنية:

أمانة عليك يا ليل طول　　　وهات العمـر مـن الأول

بَحِب جديد وقلبي سعيد　　　يا ريتنى عشقت عامنول

ويخرجون من الملهى في الثانية صباحًا إلى الكورنيش، فيقودهم مراد إلى «السلسلة» في عرض البحر، فيقف بالسيارة في نهايتها، ثم يسأل الفتاتين هل أعجبتهما السهرة، فتؤكدان بحماس وحبرة. ولا يعبأ مراد بمداومة الكلام، بل يميل على تريزا في حار القبلات، فيسقط في يده ويرتبك، هل يتعين عليه أن يشتبك بدوره مع فتاته بالقُبل؟ رغم أنها لم تعرفه إلا الليلة، ويحتمل أن تزجره في جفوة، لكن ظنه بالإيطاليات لا يمتنعن عن بعض بريء الشهوة، لا سيما مع "إكسلانس" مثلك يجيد ملاطفة النسوة، فلوما تجازف يا عزيزي

obeikandi.com

وتميل عليها بقبلة، فلا تظنك عديم الذوق، مفرط الغفلة؟ وعلى كل حال، تستطيع وقت المساءلة أن تحتج بذهاب عقلك بالخمرة. ويتنبه لها تسأله هل يجيد الرقص؟ فيؤكد على الفور، فتسأله هل يرقص بملاهي الإسكندرية، فيجيبها بنعم. فتعقب ضاحكة:

- آه، لا شك أنك تعرف بنات كثيرات.

فيبتسم ابتسامته المعسولة يتردد، هل من الحكمة أن ينفي أم يؤكد؟ لو قال الصدق لنعتته خام الشبان، لا علم له بمبادئ الغزل مع النسوان، ولو قال نعم، ربما فقدها لأنه غير جاد في الغرام! أخيرًا أسعفته بديهته ليقول متخذًا حلاً وسطًا:

- آه نعم.. ولو أني لا أعرف الآن فتيات.

- هل عرفت إيطاليات؟

- لسن كثيرات.

- يبدو أنك فتى «لعوب».

فينفجر في ضحك طروب ويقول:

- نعم.. شيء كهذا.

وفجأة يخيم الصمت من جديد، فيعود لحيرته: هل من اللائق أن يعانق؟ أم يثير بهذا حفيظتها ويضايق؟ ويجدها تخلصه من حيرته، فتقترب منه ملتصقة، ثم تميل على فمه بقبلة، فيضطرب وتجري دماؤه حارة، مسحورًا بمبادرتها الحلوة، مما ينم عن إعجابها به مبدية المودة. أبشر بها من علاقة متعة، وأنعم بها من أنثى، خلابة الفتنة، وفّرت عليك الحرج والمشقة، ألم أقل لك يا عزيزي الأرشيدوق إن الإيطاليات لطيفات السلوك، عليك فقط بجميل

obeikandl.com

الصبر، وستنال كل ما تتوق. ثم سرعان ما تذيقه أفانين القبلات الملذة، حتى يقسم في الختام أنه لم يوجد مثله شاب خام.

وقبيل أن يفترقا تسأله هل ستراه بالقاهرة، فيؤكد أنه من دواعي سعادته البالغة، فتعطيه رقم مسرتها مرحبة.

وأخيرًا يلج عمارته بالفجر، يترنح من سكرات الخمر، ومذاق القبل بالفم، متشوقًا لإطلاع خلانه على براعته في الغزل والوصل.

(٢٥)

بدأت نجوى تنشد جالسة بجانب كمال على الشاطئ وقت الغروب:

نبني"كمـــال" ما الذي لك   في "سيدي بشر" من وطر
لـك فيــه قصـــــائد   جاوزته إلى الحضــــر
كل ظبــي لقيتـــــه   صغت في جيده الــدرر
أتــرى قــد سلوتنـــا   وعشقت المها الأخـــر

فيجيبها:

غرت "نجوى" من المها   والمهــا منك لم تغـــر
حـبـب البيــد أنهـــا   بك مصبوغـة الصـــور
لست كـالغيـد لا و لا   قمر "سيدي بشر" كالقمـر

ثم يرنو إليها بعينين متيمتين ويقول في أسف:

- هذا آخر لقاء لنا في الإسكندرية، سأسافر غدًا وأنتظرك أسبوعين، هما كسنتين.

obeikandi.com

وينظر للسماء، فيرى الشمس في الأفق راحلة، مخلفة شذرات أرجوانية ساحرة، تذوب في سماء لازوردية هائمة. ويستنشق النسمات ملء رئتيه يتشبع بها قبل وداعها. ثم يتناول راحتها بين راحتيه ويستطرد بمشاعر متحمسة:

- أرى الطبيعة هذه الأيام في رونق وجمال لم أعهده في سالف الأيام، فأتساءل أين كان ذا الجمال قبل الآن!! وكأني أُخلق من جديد على كل شيء في الحياة، فأتأمله مرهف الحس، مشحذ الذهن، أنصت وأدقق، وأستكشف وأستكنه.. وحينئذ تجيء هنيهة ساحرة، وكأني أرى «ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»، وترق نفسي وتشف، ذائبة في ذلك السحر.

فتنغض رأسها وتبتسم تتعجب هامسة:

- هذا عجيب شيق!

- إلى ماذا تعزين هذا الشعور؟

- لا أعرف!

- إلى الحب.

فتطرق في خفر، فيستطرد:

- إذا كنت هكذا أسعد، فمن واجبي أن أجعل الناس حولي تسعد.. متمنيًا القضاء على كل ما يجعل الإنسان يتألم ويتعذب، متحاشيًا كل ما يؤذيه ويجرح، مرتقيًا بأخلاقي وسلوكي صوب الأفضل..

- بالطبع، يجب على كل إنسان ألا يؤذي أي إنسان، وأن يرتقي بسلوكه دائما للأفضل.

- لهذا، من الآن سألتزم بالحق وقول الصدق، والتحلي بالشجاعة

والكرم، وباختصار، ألتزم بخلق الإسلام، ومثالي الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام.

- هذا حقًا جميل منك، ويتّسِم بالمثالية.

ويسريان على رمال الشاطئ، في صمت ساحر، ويرى بالأفق شذرات سحب حمراء قانية، تتراخى في رحيلها كارهة، تعانق السماء قبيل الفراق مودعة. ويهمس لها بعاطفة:

- أترين سحر الطبيعة.. ألا يكفي هذا متعة للإنسان، مرتقيًا عن الأطماع؟ أنا يكفيني جمال الطبيعة، والكشف العلمي عن أسرارها.. ثم الأهم.. حبي لنجوى.

فتضحك ممتنة، وتسأله:

- باعتبارك فنانًا، أنت ترى في الطبيعة ما لا يراه غيرك، وهذا سر افتتانك بها، هل يا ترى توحي لك صورة السماء هذه بشيء ترسمه؟

- نعم، بلوحة مبدعة، تعبر عن روحين، يحيان بالجمال والحب.

- آه.. ستكون لوحة رائعة.. ألا نعود الآن؟ صارت التاسعة.

ويتملكه الهيام، ويتمنى أن يضمها إلى صدره، لكنه يتذكر نواهي ربه. على كل حال، الآواصر الروحية أمتع من الروابط الجسدية.

وبوصولهما لوائل، يطبق على راحتها يودِّعُها بكل إحساسه، يسلمها طواعية قلبه، ثم يدور على عقبيه وصورتها تملأ عينه، ثم يترنم ببيت مجنون ليلى في هيَمان:

قد يهون العمر إلا ساعة وتهون الأرض إلا موضعا

obeikandi.com

(٢٦)

جلس عبد الله على مكتبه قبالة مجلدات الطب بغرفة نومه، غدا يلتزم بالإسلام أوامره ونواهيه، ويستلهم القرآن نوره وهديه، تبارك طوال الصيف بقراءته، سبحان الذي هداه وأبعد عنه الشيطان غوايته، لا بد من الآن فصاعدًا أن يكون مسلمًا حنيفًا متّقيا ربه. تعديت إعدادي الطب والحمد لله، وغدوت بالسنة الأولى.. دراستي الطبية خير شاهد على الخالق قدرته وعظمته، فاكتشفت خفايا البدن، أجهزته وأعصابه، عضلاته وعظامه، حقًا قوله سبحانه: { لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ، ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ }.

ويسترجع ما قاله محفوظ، صديقه بشعبة الإخوان المسلمين بالسيدة، صلتهما تقرب من العام، سماته الشهامة، أمس بينما يسيران مرّا بالمعلم عترة في محل جزارته، فألقى عليه محفوظ التحية، فهش وبش ودعاهما لكوب شاي، فأبديا الشكر والاعتذار، ثم أخبره محفوظ بأن للمعلم عترة ابنة قد تصلح له زوجة، حلوة وعلى خلق وحشمة، بالتوجيهية بمدرسة السنية، أسرته وأسرتها جيران، وكثيرًا ما تتزاوران. هل بعد ذلك مطمع لطامع؟ ما غدا بإمكاني أن أصبر، وقبالتي سنوات خمس لأتخرج، أما الصوم الطويل فما أقدر، كما أن الطب دراسته عميقة، بحاجة لاستقرار البدن وظائفه وحاجاته، والشيطان يداوم على تذكيري بالماضي وإغراءاته.. و«الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة».

لا شك أن الزواج الآن مشكلة، مسئولياته وأعباءه، وللأسف ما بمقدوري العمل لأعول أسرة، فالدراسة تحتل كل وقتي، وهل من الممكن للزوجة أن تقبل الإقامة مع أسرتي أو إقامتي مع أسرتها؟ وهل بالقدرة العمل بعض الوقت، إضافة إلى أبي يمدني بالعون؟ أخشى أن تضيع فرصة الزواج هذه، واليوم محفوظ سيريها لي وقت خروجها من المدرسة.

ويمر عليه محفوظ بعد الظهر فيخرجان سبيل مدرسة السنية. ويقول محفوظ:

- لقد أمر رسول الله عليه الصلاة والسلام برؤية المرأة قبل الزواج، إذ خُطِبت امرأة أمامه فسأل الخاطب هل نظر إليها، فأجاب بالنفي، فقال له: « فانظر إليها فإنه أجدر أن يؤدم بينكما ».

- شد ما أعجب من هؤلاء الذين كانوا يتزوجون دون رؤية، ويظنونه تقليد دين وحشمة! هل المرء يجازف بالعيش مع إنسان قد لا يلائمه طوال عمره!!

وباقترابهما من المدرسة يطلب منه محفوظ أن يقفا في مكانهما، وسيقول له عندما تمر، ثم يضيف:

- قال صلى الله عليه وسلم: «ألا أخبركم بخير ما يكَنز المرء؟ المرأة الصالحة، إذا نظر إليها سرته، وإذا غاب عنها حفظته، وإذا أمرها أطاعته».

ويبصر عبد الله الطالبات يخرجن من المدرسة إلى كل السُبل، حتى ينبهه محفوظ لفتاة قادمة. وبنظرة سريعة شاملة، يتضح له

فتاة تميل للسمرة، صاحبة ملامح حييِّة حلوة، وجثتها جميلة الامتلاءة مجتذبة، رغم أن ما يكسوها من لحم ليس بوفرة، خصوصًا حول الحوض والصدر. فيقول لمحفوظ:

- حلوة لا غبار عليها، ولكن لا بد من محادثة أبي.

- بالطبع.. بالطبع.

ويفترقان، فيتوجه عبد الله إلى داره يقلب الأمر على وجوهه. الفتاة تظهر ذات صحة وقوة، ولعلها أيضًا متينة الأعصاب والأجهزة، للإخصاب صالحة، فمن ورائها تأمل في ذرية تتمتع بصحة وعافية، وأن تكون قادرة على شئون البيت والتربية، والأهم، عفيفة متدينة. ثم يتمتم بدفينته في بهجة: « نساؤكم حرث لكم ».

وفي المساء يدخل على أبويه في غرفتهما، والده كالعادة جالس على الأريكة الضخمة في جلبابه وطاقيته، وبجواره والدته. وبعد لحظة يجمع شجاعته ويقول:

- إني أفكر في الزواج.

ويبصر للخبر وقع القنبلة، فيفغران فاهما في استغراب وذهول، فيسارع يوضح:

- إنني أجد الزواج هو الحل السليم.. الذي سيعينني على الدراسة.. وربما يمكن تدبيره بلا عائق.

فيسأله أبوه منكرًا:

- وبأي صورة من الصور يمكنك فتح بيت وأنت ما زلت طالبًا؟!!

- ربما أقدر على العمل ليلاً و.. وربنا يسهل.

ويبصر على ملامح أبيه عدم الاقتناع والرفض، فيردف بصراحة:
- إذا كان هذا الوضع صعبًا، فالأصعب منه انتظار خمس سنين حتى أتخرج.. وخصوصًا أني وجدت ابنة الحلال.
فتسأله أمه باهتمام: ومن تكون؟ فيجيب:
- ابنة المعلم عترة الجزار، فتاة على خلق ودين، وأسرتها طيبة.
فيسأله أبوه ساخرًا:
- وماذا يدريك أنها أسرة طيبة؟
- مدحهم لي صديق يعرفهم. كما أني سأستوثق بنفسي.
فتسأله أمه هل رآها، فيجيب:
- نعم، بالطريق.. وطبعًا في أثناء الخطبة سأتعرف عليها وأختبرها.
فيقول أبوه بحزم:
- أرى أن تنسى هذه الفكرة لاستحالتها.
فيترك الغرفة حانقًا مثبطًا، ثم يخرج من البيت متجهًا سبيل عصام.
كيف أصبر حتى أتخرج! وكيف لغواية الشيطان أدرأ؟
ويبلغ عصامًا فيخبره بكل ما مر من رؤيته للفتاة وحديثه مع أبيه.
وبعد إطراقة تفكير يرفع عصام رأسه ويقول بتؤدة:
- أعلم ما تشعر به، هو حقًا أمر عسير أن يصبر المرء كل هذه السنين، وخاصة بالنسبة لشاب مثلك تعود المرأة.. لا أشير عليك حتى بالعمل، فأين ذلك العمل الذي يوفر لك المال اللازم لفتح بيت؟ بالإضافة لصعوبة الجمع بينه وبين الطب.
- ومن أجل هذه الدراسة أنا أحوج لحرمة.
- اصبر يا عبد الله، الصبر طيب.. ألا تكفيك دراسة الطب الشيقة..

الأيام والسنين ستمر مسرعة.. فاصبر ، إن الله مع الصابرين.
كلماته هدأته، لقضاء الله سيستسلم، سيفوض له أمره.

(٢٧)

بعد ذلك يقابل عبد الله محفوظًا بشعبة الإخوان، فيخبره برفض أبيه، فيسأله مستوضحًا، هل كان رفضه لمجرد كونه طالبًا، عن مسئوليات الزواج عاجزًا، فيجيبه بأنه هو ذلك.

وبعد بضعة أيام يقابله محفوظ بالشعبة بملامح مستبشرة، ويخبره أنه بطريقته الخاصة استطلع الرأي من المعلم عترة، فوجد عنده استعدادًا وترحيبًا بتقدمه، وخصوصًا عند علمه أنه طالب بالطب، بالإضافة لحبه للإخوان المسلمين، وذكر أن المهر والمسائل المادية لا تهمه، وقد أنعم الله عليه بوافر رزقه، فيبتهج عبد الله ويتيمّن، العقبة الكبرى قد حُلَّت، وما بقِي الله يتولى أمره، وأمه لن تبخل بمساعدته. فيتفق مع محفوظ على تحديد موعد مع المعلم عترة.

وبعد بضعة أيام يتوجهان لزيارته في سكنه بدرب الناصرية. فيدخلان دارًا قديمة متواضعة، يطلعان إلى طابقها الثاني، ويفتح لهما المعلم يهش مرحبًا، فيتضح له صاحب جثة عظيمة، ذو وجه منتفخ كبير، وشارب ضخم كثيف. وبعد أن يستقر بهم المجلس يسأله المعلم بصوته الجهور الأجش، كم سنة أمامه إن شاء الله ليتخرج، فيلمّ به الحرج، ثم يجيبه بخجل، أنها أربعة أعوام. فيفتل

شاربه يتفكر، ثم يستأذنهما ويخرج من الحجرة، ليعود حاملاً صينية عليها أكواب الشاي. ويتنحنح محفوظ محفزًا عبد الله على الكلام، ثم يقول فاتحًا الموضوع:

- يا معلم عترة، السيد عبد الله يود مصاهرتك، طالبًا يد كريمتك.

فتنفرج تقاطيع المعلم بالابتسام، ويربت على صدره الضخم قائلاً:

- حصل لنا الشرف يا سيد عبد الله.. مرحبًا بك.

- هو في الحقيقة شاب شهم ممتاز، وفوق ذلك مستقيم، لم يرض أن يفعل كبعض الشبان وفضل أن يكمل دينه.

- أنعم وأكرم.. عاشت مكارم الأخلاق.

فيجمع عبد الله شجاعته ويقول ليكون المعلم على علم بحالته:

- بصراحة يا معلم، أنا ظروفي صعبة بعض الشيء.. فما زلت طالبًا لا أعمل..

- لا مشكلة، من الممكن إجراء الخطبة، وبعد الشهادة يتم بإذن الله كتب الكتاب..

ويستريح لإجابته، لكن لم يسترح لتأجيل الزواج، وما الفائدة؟ إنما هذا محل بحث لاحق ومفاوضة. ويتفقون على إتمام الخطبة بعد أسبوعين. ويطبق المعلم بكفه الضخمة على كفه في قراءة الفاتحة، ثم يستأذنان في الانصراف.

(٢٨)

اتخذ عبد الله سبيل كلية طب قصر العيني مشرحتها، ويسترجع

obeikandl.com

المشادة المثارة بينه وبين أبيه بسبب الخطبة، أبوه انفجر حانقًا، يرى تورطه بالزواج أمرًا طائشًا، هو ضيق الصدر، والمشاكل ما يتروها بأفق رحب، حياته انحصرت في العمل والبيت، ونأت عن الحياة معتركها، والسياسة مشاكلها ونضالها، أما أمه فطيبة رءوم، تابعة الرأي منقادة، تعليمها ما تعدى الابتدائية، البارحة تفرد بها، ولمعونته استعطفها، فأوضحت له عجزها، إلا عن القليل من نقودها، وأعطته بعضها، وقطعة من حليها، كشبكة لتقديمها.. الأمهات مهما كان طيبات القلب عطوفات. فليبتهج إذن، غدا معه الشبكة ونقود الدبلة.

ويقابل عصامًا بالمشرحة فيبادره مبتهجًا بأن الخطبة قد تقررت، فيسأله هل والده قَبَل؟ فيجيبه بأنه ما يوافق، لكن ما يقف عقبة. فيهنئه داعيا الله أن يوفقه. ويتناولان جثة يشرحانها بحضور المعيد.

ويتأفف عبد الله من رائحة «الفورمالين» الكريهة، فيعلق عصام:

ـ أجل، لكن علينا تعودها..

ـ أخشى أن نتعود أيضًا رائحة الثورة، فرائحة السرقات واستغلال النفوذ صارت تفوح وتزكم الأنوف.

فيبدو على وجه عصام الكدر، منغضًا رأسه، بينما يردف عبد الله:

ـ ما ندري ما يدور في الخفاء، وقد اتضح أنهم ما يرغبون إرجاع الحياة النيابية، ويتكتلون ضد محمد نجيب للاستئثار بالسلطة، وقد بلغني عدم رضائه عن أفعالهم، وأن كثيرًا من اجتماعاتهم تتم دون حضوره، والقرارات تُتخذ دون موافقته.

ويعلق المعيد:

- وماذا تتوقع؟ صارت البلد كلها في أيديهم، بعد أن قضوا على كل الأحزاب والزعامات.. ألم تر علامات الغنى والترف على بعض ضباط الصف الثاني، ولم يكونوا يملكون غير مرتباتهم؟!

فيردف عبد الله يحرق الأُرّم[1] بحنق:

- والعقبة أمامهم الإخوان المسلمون، لذلك يطالبون بحل تنظيمهم.

- ولا شك أن الطرد الذي انفجر في المهندس «فايز عبد اللطيف» وشقيقه هو بتدبيرهم، إذ كان من معارضي التعاون مع الجيش.. وهل سمعت بصيحات التحدي التي صدرت في سرادق بني سويف، عندما انتقد بعض الإخوان قواد الثورة، مما أزعج جمال عبد الناصر فعلق بقوله: «هناك إذن جيش داخل الجيش.. من الضروري الكف عن ذلك حتى لا نضطر إلى استعمال السيف».

فيندلع من عيني عبد الله شرر الإصرار والتحدي، ويغمغم بحدة:

- على الباغي تدور الدوائر، وهل نسينا اعتقالهم للزعماء الوطنيين.

وتمر دقائق صامتة انهمكوا خلالها في التشريح، ثم يتمتم عصام:

- أرجو أن يمر على خير احتفال الجامعة بذكرى شهداء القناة.

وفي الصباح التالي عندما يلتقي عصام بعبد الله في الكلية، يدس في يده ورقة مالية فئة الخمسة جنيهات، كمساهمة منه في الخطبة، فيعترض عبد الله ويعيدها إليه، فيعاتبه، هل يرفض هدية منه لخطبته، ويضعها مُصرًّا بيده، فيوافق بخجل يشكره.

---

(1) يضغط أضراسه.

(٢٩)

تنتهي صلاة الجمعة فيخرج عبد العظيم من جامع «الكخيا»، ينسرح مع المنسرحين، يهبو الهوينى، يود أن يفرِّج همًّا مريرًا، تخرج منذ شهور وآض[١]عاطلاً حسيرًا، بعد إذ فشِل في امتحانات السنة الأخيرة تفوقًا وتقديرًا، فتبدد مجهود السنين الأربعة أخيرًا، إذ لم يحْلُ للمرض إلا أن يهاجمه قبيل الامتحان عسيرًا، فأوهنه وأرهقه نفسًا وتفكيرًا، مصارعه لثلاثة أسابيع مستجيرًا، والعبرة نجاحًا وتفوقًا، بمراجعة الأسابيع الأخيرة كثيرًا، والمصير يتوقف على تقدير النهاية، أيًّا كانت تقديرات البداية.. فأي حظ ونكاية!!

فقدتُ بهذا النيابة، وما كنت لأشعر بكآبة، بل أرحب بالمحاماة خبرة عظيمة ذات مثابة، فهي المعيار فقهًا ونجابة، لولا أنها لا تدر دخلاً في البداية، وفي العنق أسرة حاجاتها ملحاحة.

ولدى ميدان الأوبرا يلاقي خليلاً، فيهش ويهوي على كفه يهتف تهليلاً:

- أهلاً مولانا فرج المنيلاوي، اشتقنا إليك أيها المتواري.

ويتلاثمان على الخدين. ويضحك فرج قائلاً:

- أنت تعلم أن الدنيا تلاه.

- بل أنت عنا ساه.

- سأمر عليك قريبًا بإذن الله.

---

(١) تحول ، صار، عاد.

ويتصافحان كلٌّ في طريق.

وبعد أن كنت محط الأنظار والعقول، تفوز بالتفوق المأمول، تئيض في النهاية الناجح بمقبول، يا له من ظلم مهول! وللأسف، المحاماة تقتضي كفاحًا قد يطول، بلا عائد معقول. وهنا يلفت نظره كاعب تتمايل وتميس كالغصون، فيقرظها بفؤاد مفتون: ومن الكواعب فنون تبهج العيون:

شجني يفوق على الشجون   يا مائسًا فضح الغصون

ويبلغ شارع فؤاد الأول عند الأزبكية، فيصادف صديقًا حميمًا، لم يره منذ زمن طويل، فيهتف بالتحية احتفاءً:

- عبد القادر حسام.. أشرقت الأنوار يا بدر التمام.

- أهلاً عبد العظيم، كيف حالك، أوحشتنا كثيرًا؟

ويتلاثمان ثم يقول عبد العظيم:

- والله مشتاقون.

- لماذا لا تسأل عنا؟

- سنزورك قريبًا بإذن العزيز الودود.

ويتصافحان كلٌّ في طريق.

لذلك كنت تأمل في النيابة طريقًا للبداية، فتنفق على أسرتك، وتمهد لنكاحك، ثم تبدأ في المحاماة كفاحك. الآن لا محيص من التقدم مع المتقدمين لاختبار ديوان الموظفين، اخلولق أن تندرج في وظيفة حكومية وتيرية، تدر دخلاً محدودًا لكن مضمونًا، "وإن فاتك الميري اتمرغ في ترابه". هي مشيئة الرحمن، {وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ

شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ}.

وهنا تجلّت لعينيه كاعب ذات رنا نادر، فيتمتم كلفًا يشتكي أسفًا: إلى متى يشتاق القلب لهيفا، ليس يلقى وليفا، والكواعب حولك يخطرن خطرانًا ظريفا. ويلتفت على تحية صديق يمر بعيدًا، فيرفع يده بالتحية يرحب مديدًا.

أما عن الدراسة، فتأمل أن تكون: إما دبلوم القانون العام، يليه الخاص، وإما دبلوم الشريعة الإسلامية مدته سنتان، أما بقية الدراسات: القرآن والشعر والبيان، فتمارسها وقت الفراغ، فهي متعة الأيام.

والآن ما العمل في عوز الأسرة الثقيل، ومعاش الوالد بعد موته ليس يفي إلا بالقليل، ولي أم وأخت وغلامان طريقهما طويل، وليس من معين، غير ما يرسله عمي من ريع المحاصيل، من ميراث الخمسة فدادين، ومقداره ضئيل. ويتنبه لشخص يحييه من بعيد بتهليل، فيرفع يده بالترحيب والتبجيل. زميل حقوقي قديم من أولي الخطب والنشاط السياسي، يذكرني بالجامعة وجدلها المشتعل الحماسي، كل لفيف لحزب يوالي، يخلص له ولغيره يعادي، فتنشب المعارك بالألسنة والأيادي، لست أنكر وطنيتهم وحماسهم الجاد، ولكن ما أحوج الوطن للتآلف والاتحاد، لنقف وقفة رجل واحد للمتربصين بالبلاد، والآن الأمل كبير في المخلص محمد نجيب، موحد مصر والسودان، والناشط في إصلاح الفساد.. لا غضاضة في إلغاء الأحزاب والدستور لأجل قصير، يتولى خلاله مجلس

الثورة أعمال السيادة وما يلزم من تدابير، من إصلاح وتطهير، ومراقبة ومعاقبة كل تقصير.. لولا نلتزم جادة الحق البصير، لولا نتنزه عن كل مشين صغير، ونربأ عن الإهمال والتبذير، والكذب والتغرير.. ويتنبه لتحية شخص يسير، فيلتفت ليتعرفه يهتف بالتحية والتقدير، ولكن يعجز عن تذكر الأسارير.. ومع ذلك فلتعلق النفس بالآمال والتباشير، فيعكف على وضع الدستور «السنهوري» القدير، اخلولق أن تشرق شمس الديمقراطية على وطننا الأثير.

(٣٠)

اتخذ عبد الله سبيل طب قصر العيني، وشعور بالقناعة والابتهاج يداخله، خطبته تمت أمس في جو من السعادة واليمن، وتم لبس الدبلة وتقديم الشبكة، أقاربها حضروا يزغردون ويحتفلون، وفاطمة تجلت كالبدر في نضارة وبشر، في ثوب بديع وردي، فشعرتَ بسعادة الحلال، إذ فزت بحرمة جميلة ما لمسها رجال، بسبيلها للنضج والاكتمال، في حياة زوجية ديدنها رعاية البيت وتنشئة الأبناء، مؤمنين، وعلى خلق أصحاء. أبوك حضر عن كره، مُسلِّمًا بالأمر، مع أمك وأختيك، ونالوا الترحيب المستحق. هذه الفاطمة ما أحلى جثتها. « الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة ».

ويدخل المشرحة فيقابل عصامًا، وينكبّان على الجثة يستكملان دراستها تحت إشراف المعيد. وبعد لحظات يقول عبد الله منبهرًا:

- ما أعجب وأعظم البدن الإنساني دقته ومحكم تركيبه.. كل يوم ينكشف لي جديد خارق في عظمة الخالق.

فيعقب عصام:

- مثلاً، إن خلايا الجسم لأعجوبة، فكلها تحمل نفس عناصر الوراثة مسجلة في كودة متناهية الصغر!

ويردف المعيد:

- والأعجب هو أن تتحول هذه الخلايا المتجانسة، فتتخذ صورًا متباينة، حسب موضعها في الجسم، فتصير خلايا عضلية أو عظمية أو عصبية!!

وبعد دقائق صامتة يقول عبد الله:

- بقِي أسبوع على احتفال الجامعة بذكرى الشهيدين عمر شاهين وأحمد منيسي.

فيعلق عصام:

- أعتقد أن كثيرًا من قادة الإخوان المسلمين سيحضرون الاحتفال.

- طبعًا، والمتوقع أن تكون خطبهم نارية.. واحتجاج الطلبة سيكون تحديًا سافرًا للضباط.

- ربنا يفوّت هذا اليوم بسلام.

(٣١)

وفي صباح اليوم الثاني عشر من يناير، كان كمال واقفًا على درجات مبني إدارة الجامعة، تحت قبتها الشامخة، وإلي جواره عبد

الله وعصام وناج، وحسن وطه وفارس، وغيرهم من طلبة الإخوان المسلمين، وقد حضر عبد الحكيم عابدين السكرتير العام وخطيبهم حسن دوح وغيرهم من الشعبة العامة، يرددون جملتهم المأثورة: «الله أكبر ولله الحمد». الجامعة منذ الصباح الباكر تتأهب وتترقب وتتحفز، تتقاطر عليها الوفود من الكليات والمعاهد والمدارس، رافعة الرايات واللواءات والبيارق، تموج وترعد بالهتافات والنداءات، في صيحات مدوية تشق عنان السماء، جمعت كل الأحزاب والاتجاهات، الإخوان المسلمين، والوفديين، والسعديين، والأحرار الدستوريين، والكتلة الوفدية، ومصر الفتاة، الاشتراكيين والشيوعيين، كل فئة تحمل زعماءها على الأكتاف، تردد وراءهم الهتاف. وترتفع صورتا الشهيديْن عمر شاهين وأحمد منيسي في كل مكان، تعبِّر عن التقدير والعرفان. ويتأمل بباطنه: يا له من تمجيد يليق بالشهيدين، وكل شهداء الوطن، أليس هذا آية المحبة والوفاء لمصر، ولأبنائها الأبطال، فيهون من أجلها كل بذل وفداء.

وأنشأ الخطباء يلقون بجمرات من الكلمات، في شعلة من الحماس، ويذكرون الآيات: {وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ}..{وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}.

ويلكزه عبد الله، يشير بازدراء إلى بوابة الجامعة ويقول:

- ها هي الثورة شراذم أذنابها وإمعاتها قد وصلت.

ويراقبهم في احتقار وحنق. ويقول حسن ينبّه زملاءه:

- ها هم أتباع منظمة التحرير قد حضروا.. أعتقد للتحرش بنا.

فيهز فارس منكبيه استهانة ويجيب شامخ الهامة:

- جنت براقش على أهلها.

ويشرئب كمال بعنقه يراقب تحركاتهم، جاءوا في سيارات شاحنة، يرتدون بزتهم المميزة، التي تضفي عليهم مشاعر البهجة، وأنشأوا يطلقون الهتافات والنداءات من مكبرات الصوت، للتشويش على خطباء الإخوان متَحدّين لهم.

ثم يصل إلى الجامعة الزعيم الإيراني «نواب صفوي» قائد جماعة الفدائيين في إيران، محمولاً على الأكتاف، وكان محبوبًا من الطلاب، فيضرم حضوره الحماس، فيدوي التصفيق والهتافر.

ولا يعلم كيف حدث بغتة الاشتباك مع شراذم هيئة التحرير، فاندفعت صوب تجمعاتهم حشود ضخمة من الطلبة، لتنشب معركة محتدمة، تتلاحم فيها الأيدي والأرجل والأجسام، ويعم الهرج والمرج صفوف الطلاب. ولا يدرك كيف انجرف صوبهم بقوة دافعة مع فصائل الإخوان، ينقض عليهم في ثورة عاتية، تطيح قبضته في الوجوه والصدور، وبجانبه عبد الله يزمجر ويتوعد، بينما فصائل الإخوان تجتاح شراذمهم، تنزل بهم أقسى الضربات، بالعصيّ والسياط، فلا يتمكنون طويلاً من الصمود والدفاع.

وبعد زمن لا يعلم مداه، يلفي قوات الأمن قد أحاطت بالمكان، تطلق القنابل المسيلة للدموع، حتى بدأت تنفض الاشتباكات،

obeikandl.com

فيسارع يبتعد لمحطة الحافلة، قبيل وقوعه بقبضة الشرطة. ثم يتساءل في توجس عما حدث لإخوانه، ثم يتنبه للدم يسيل من حاجبه الأيمن، وألم شديد في عظام وجنته وصدره، يجتاحه وينهكه، فيتحامل ويركب الحافلة إلى بيته.

وقبيل صعوده إلى الشقة يفطن إلى وجوب ألا يراه والداه بهذه الهيئة، فيذهب إلى صيدلية ويطهر جرحه. لكنه يزفر مستاء: لن أتمكن من إخفاء الأمر، ولا مناص من التوبيخ واللوم.

وعندما يراه والده ويعلم بالأمر، يقول له بأسف وغضب:

- ألم أقل لك أن تنصرف عن الإخوان.. أتريد أن تذهب يومًا ضحية المظاهرات؟

- ولكني أومن بتطبيق القرآن.. إن الإسلام دين ودنيا.

- لتؤمن به بعيدًا عن السياسة والمظاهرات.. اسمع كلامي، أنا أكثر منك تجربة.

ويطرق صامتًا ليتلافى مزيدًا من التأنيب والموعظة. ثم يتلقى اللوم المرير من والدته عندما تعلم بما حدث له.

(٣٢)

وفي المساء يصعد لزيارة نجوى يشتاق بقلب خفاق. هي الآن البلسم الشافي للجراح. وقبيل أن يذهب إليها يمر على ناج ليطمئن عليه، فيرتاح عندما يفتح له الباب سليمًا معافى. ويلاحظ ناج

obeikandl.com

إصابته، فيسأله منزعجًا هل اشترك بالمعركة، فيجيبه بالإيجاب. فيلومه لتعريض نفسه للخطر. فيجيبه بغضب: ألم تر كيف فاقت قحتهم الحد واستهزئوا بنا. ثم يسأله أين كان وقت المعركة، فيجيبه بأنه انصرف عند بدايتها مع عصام، فيسأله هل يعلم ماذا حدث لعبد الله وحسن والآخرين، فيجيب بالنفي. فيتركه مشوقًا للقاء نجوى. وتفتح له الخادمة تقوده لحجرة الاستقبال، وتحضر نجوى، فيصافحها ويبادرها بكلمات «قيس»:

- « جئتُ ألتمس عندكم قبسًا من نار».

فتبتسم وتجيب:

- « خلت من نارنا الدار».

ثم تعبس على الفور عندما تتنبه لجرحه وكدمات وجهه، فتنزعج تسأله عما حدث. فيجيبها:

- خلال الاحتفال بذكرى شهداء القناة، تحدانا فتية هيئة التحرير، فأعطيناهم درسًا.

- ولكنك.. يا إلهي.. ما كان يحق أن تفعل هذا بنفسك! لماذا العنف؟

- أنا أيضا أكره العنف، إلا إذا تعلق الأمر بالحق والكرامة.

ويرى على أساريرها سمات الأسف ورقة الحنان، تتأمله عيناها بإشفاق، فتجيش نفسه بالهيام، شاعرًا حيالها بالامتنان، أي إصابة تهون إذا قابلت هذا الحنان. ويدنو من مقعدها، يجثو أمام ركبتيها، ويطبق بكفيه على رحتيها، وينشد:

أنت أججت في الحشى   لاعج الشوق فاستعر
ثـم تخشيـن جمــرةً   تأكـل الجلـد والشّعَـر

obeikandl.com

فتضحك برقة، ثم ترنو إليه بنظرات متعاطفة، وتحرك رأسها في تعجب هامسة:

- يا لك من خيالي يا كمال.. أنت حقًا عجيب في شاعريتك!! أنت لا تحيا أبدًا في الواقع، بل دائمًا في عالم الخيال! قص لي ما وقع.

فيسرد كيف سارت الأمور وتطورت، فتنصحه:

- أعِدْني بألا تعود لهذا التهوّر.

- هذا ما قالته أمي.. لا أدرك كيف إذن تُبنى الأوطان!

وتحدق فيه هنيهة، ثم تنكس رأسها وتهمس:

- قال أبي إن الإخوان المسلمين قوم متعصبون.

فيبلس هنيهة واجمًا، ثم سائلاً:

- هو قال ذلك؟!!

- نعم.

ويشعر بالإرهاق نال منه كل منال، بعد اليوم العصيب الشاق، فيستأذنها في الانصراف، وينزل إلى شقته.

ويتنبه فجأة يتبصر ما حدث، هل كان ثمة مبرر للاعتداء على شباب هيئة التحرير! وكان الأخلق بالإخوان المسلمين أن يضربوا المثل، ويلتزموا بسماحة الإسلام وكظمه للغيظ، ونهيه عن الإيذاء!! بل قد أخذتنا العزة بالإثم!

obeikandl.com

(٣٣)

يجب أن يبلغ عشقي الذروة، أن يحيل حياتي وحياتها إلى جنة، ويجعلها سعيدة فرحة، سأتفق مع بائع زهور ليرسل لها كل أسبوع باقة ورود، إن الإنسان كلما ارتقى في حبه، علا في نجد سموه، وأحس بالوجود في أعمق فرحه. عند صحوي بالصباح هي أول ما يستقبل فكري، وقبيل نومي بالمساء هي آخر ما يودع عيني، وقد اتفقت معها على توقيت لحظات من يومنا، نتلاقى فيها على البعد، تصورًا وتأملاً، لنتواحى ونتشاف تواصلاً، لعلّ قوة آصرتنا تنقل الرسائل بيننا. هكذا أريد لحياتي: أن تكون مكثفة، عميقة راقية!

وكثرت بالآونة الأخيرة أحلام الطيران السعيدة، فأرى نفسي أطير وأحلق في السماء، في زهو وانتشاء، ثم أستيقظ بالصباح، فأحبط وآسف، لأنها كانت صرف أحلام.

وييمم كلية الآداب، حيث تواعدا ظهرًا على اللقاء، عند انتهائها من المحاضرات.. عجبًا لتغير صورة الجامعة هذه السنة، فتحولت إلى روضة يانعة، تزخر بالخيال والعاطفة، وانتشر الجمال بكل الأنحاء، بأحواض الزهور بالفناء، بأروقة وقاعات كل بناء، بوجوه الأساتذة والطلاب.. أكل هذا لأن نجوى حلت وطافت بالأرجاء؟ أما كلية الآداب وقسم اللغة الإنجليزية، فيزهو على كل الأقسام.

ويقف أمام قاعتها ينتظر أن تتجلى، حتى يُفتح باب القاعة ويخرج الأستاذ ووراءه زهرات الآداب، ثم زنبقته الباهرة، التي تفتر له

بابتسامة ساحرة، فتسري ببنيانه اختلاجة حابرة. ويصافحها بتشوق:

- كيف نجواي؟

- آه، غارقة في الأدب الإنجليزي.

- كيف! ومنكِ يُستمد الأدب؟!

- آه، هذا رأيك أنت.

- ما أروع أن تتحلى المرأة بالعلم والأدب، إلى جانب الجمال والرقة.

- آه.. هذا قول لطيف.. على فكرة أشكرك كثيرًا على باقات الورد.. هذا رقيق منك، وتعلم حبي للزهور.

- لا شكر بيننا، بل واجب كل منا أن يفعل ما يمكنه، لإسعاد الآخر.

-لا تنس أيضًا أن الامتنان للمعروف يدَعّمه ويسعد صاحبه.

فيفاجأ مسحورا بفطنتها، فيفصح لها:

- هذه ملاحظة عبقرية.. (ويهمس) كم أحبك.. أنتِ ملاكي الملهم.

- كمال.. أنت تشعرني بالحرج عندما ترفعني دائمًا لمصاف الملائكة، بينما أنا فتاة عادية ككل فتاة..

- لكنك لست ككل فتاة.. بل تشبهين فعلاً الملائكة.. على كل حال، نزولاً على رغبتك لن أقولها ثانية.

ويسيران بطريق «نهضة مصر». وهي بجانبي أحاسيسي في ذروة الحدة والانتباه، وقريحتي تضيء بالأفكار والأحلام، والحياة طوع يميني في امتثال، حقًا "شوقي":

ليلـــى بجـانــبـــي كل شيء إذن حضر

ويصلان إلى شارع الجيزة فيعبرانه سائرين يمة النيل، فيبهره صفحته الرحيبة، يسبح في هدوئه المطمئن الوادع، يلمع على صفحته شعاع الشمس الدافئ، فيهمس باطنه: إذا كانت الإسكندرية تفخر بالبحر الأبيض، فأنتِ أيتها القاهرة تزهين بالنيل الأسمر، واهب مصر الحياة وحضارة الأمجاد، فاستحق في غابر الأزمان عذراء حسناء تُزف إليه كل عام، كما تقول أسطورة القدماء. ويترسم بناظريه الدوحات والخضرة تحتضنه والصروح والعمائر ترافق ضفافه، وكأنها تناغيه وتخطب وداده، وجسر قصر النيل وقنطرة الجلاء فوقه يتألقان، وبينهما الجزيرة في خمائل بديعة الاخضرار، تحت سماء صافية الزراق. ثم يشعر بعدم لياقته لأنه لم يشرك نجوى في جمال مشاعره، فيفصح لها:

- ألا يوحي لكِ منظر النيل والضفاف بشيء؟

- نعم.. لوحة رائعة، توحي بالجمال والدعة.

- ألا يحق لنا أن نهنأ ونسعد وبلادنا بهذا الجمال؟ وقد وهبنا الله النيل الذي وهبنا الحياة.. كما حبانا الله بمناخ بديع الاعتدال.. وانظري إلى المآذن والقباب، تعمِّر أديم السماء، آية الروحانية والصفاء، والأهرامات، الشاهدة على عظمة الأجداد (ويغشاه انفعال الوطنية فيهتف من الأعماق) نحن بناة الأهرام، حملة القرآن.. أجل، نحن بناة الأهرام حملة القرآن.. إني أومن بقول الزعيم مصطفي كامل: « لو لم أكن مصريًا لوددتُ أن أكون مصريًا ».

فتومئ برأسها تنفعل مستجيبة لسحر وطنيته وانفعاله. وبعد هنيهة صامتة زاخرة بالمشاعر الدافئة، يسألها:

- نجوى : هل تُصلّين بانتظام؟
فتنكس رأسها وتجيب في خجل:
- في الحقيقة أنا مقصرة.. فليس دائمًا.
- لا يا نجوى، يجب أن تداومي على الصلاة.. ففضلاً عن أنها عبادة الشكر، فهي غذاء الروح والطهر.. (ويضحك) وإلا ما شعرتُ نحوك بالحب.. أنا كذلك أداوم على قراءة القرآن، وأحفظ الآيات، وأتأمل في بلاغة البيان.
- يجب أن نعود الآن.
فينظر إلى ساعته فيلفيها الثانية، فيتمتم:
- انقضى الزمن سريعًا! ومع ذلك أشعر بأني قضيتُ أيامًا من السعادة.
- بهذه الصورة سنعجِّز سريعًا!
- بل سنوسع ونعمق من ساعاتنا وأيامنا، فإذا كانت الدقائق ونحن معا تنقضي زاخرة كأيام، فتخيلي كم من الأيام والسنين سنحيا!
- صدقت.. هذه ملاحظة دقيقة، فسنحيا حياة مليئة عريضة..
ولا يلبثان أن يأخذا سيارة أجرة إلى البيت.

(٣٤)

علم أنه بعد ضرب الإخوان شباب هيئة التحرير بالجامعة، صدر قرار مجلس قيادة الثورة بحل جماعة الإخوان المسلمين، وانقضَّت

السلطة على كثير منهم وألقت بهم في السجون.

وفي صباح اليوم الخامس والعشرين من فبراير يصدمه أيضًا خبر قبول استقالة محمد نجيب، وسرعان ما يرى الشعب يغلي به مرجل الغضب، ويهب بكل فئاته وزعاماته، وينفجر كالبركان، ينادي بعودة محمد نجيب وسقوط مجلس قيادة الثورة. فاشتعلت المظاهرات بالحرم الجامعي، وانتدلعت خطب ثائرة، ثم اندفعت تنضم للجماهير بالشوارع كجيوش ضارية، تنذر بالويل والثبور قواد الثورة.

ويشترك هو وعبد الله بالمظاهرات، وقد هالتهما التطورات، فيندفعان بين صفوف الطلاب، يموران بالنقم والثورة. ويغمغم عبد الله بحدة:

- مظاهرات اليوم جمعت كل فئات الأمة.. هذا أبلغ دليل على عدم رضاء الشعب عما يدور من مجلس قيادة الثورة.

ويعقب زميل:

- سيدفعون ثمن افتئاتهم على ضباط المدفعية وإعدامهم حسني الدمنهوري.. هذا لمجرد اعتراضهم على أسلوب حكمهم للبلاد.

ويضيف عبد الله بحنق ملتهب:

- ورفضوا مستبدين اقتراح محمد نجيب وبعض الضباط بعودة الحياة النيابية.

وتتعالي هتافات: الحرية.. الحرية.. نريد الحياة النيابية.. إلى الثكنات أيها الضباط.

وتبلغ حشودهم ميدان الدقي، فتضيق بهم الطرقات والمنافذ، وتتعالى صيحاتهم الرعدية منادية: محمد نجيب أو الثورة.. إلى السجن يا جمال.. إلى السجن يا صلاح. ويسمع عبد الله أحد الزملاء يقول:

- سمعت أنهم قبضوا على محمد نجيب واقتادوه إلى سلاح المدفعية بألماظة.

فتثور ثائرة كمال وعبد الله ويلوّحان بقبضتهما في الهواء بشدة، يصيحان مع الجموع: يسقط ضباط الثورة.. يسقط ضباط الثورة.

وتصل حشودهم إلى جسر قصر النيل، فتعبره مندفعة كقذائف منطلقة، وهنا يلمح عبد الله قوات الجيش والشرطة تقف في الطرف الآخر في أُهبَة، فيزيدهما هذا اشتعالاً وحَمِيًّا، فيسخطان ويلعنان. وتتعالى صيحات « الله أكبر ولله الحمد ». وصيحات أخرى عدائية، وهنا تنطلق أعيرة نارية، وينبعث دخان كثيف، فتصرخ أصوات، وتتعثر أقدام، وتسقط أبدان. فيصرخ عبد الله:

- ماذا ينوون؟ أن يحولوا الشعب كله إلى جثث؟

ولا تمضي فترة طويلة حتى تتجمع فلولهم من جديد تقتحم الطريق، تتابع في رهج تقدمها الحثيث، صوب ساحة عابدين، فتمر بميدان الإسماعيلية، الذي نسف بحشود أخرى، ما فتئت تتدفق من كل مصدر، حتى ينتهوا أخيرًا لساحة عابدين التي لم يبق فيها موضع لقدم، وقد سيطرت حشود الإخوان على نظام التجمع والتقدم، والهتاف والإنصات. ثم يعلن المتظاهرون اعتصامهم

مرابطين بالميدان، لا يبرحونه حتى يعود محمد نجيب. وفجأة يظهر على الملأ عبد القادر عوده وحوله زعماء الإخوان، فيلزم الجميع الصمت، كأن على رءوسهم الطير، يصغون لكلمته للحشد.

وأخيرًا يُعلَن على جماهير الشعب، عودة محمد نجيب للحكم، رئيسًا للجمهورية المصرية البرلمانية. فإذا بجماهير الشعب تسري بين ظهرانيها رعشة رعدية، تنتفض انتفاضة الفوز، تثمل بنشوة النصر، منطلقة بالهتاف كهدير البحر، لمحمد نجيب ولمصر.

ثم لا تلبث حشودهم أن تنفض. فيجر كمال وعبد الله قدميهما يمة البيت، مستريحيْن راضييْن.

(٣٥)

وفي السابع والعشرين من مارس يحضر كمال مؤتمرًا وطنيًا في الجامعة، يعلن فيه الطلبة تأليف جبهة الاتحاد الوطني، التي ضمت الإخوان المسلمين والوفديين وغيرهم من الفئات، واتخذوا قراراتهم بإلغاء الأحكام العرفية فورًا، والإفراج عن جميع المعتقلين، وتأليف وزارة ائتلافية لإجراء انتخابات حرة، وكذلك القرار الهام بإلغاء مجلس قيادة الثورة في الحال دون انتظار للجمعية التأسيسية.

وفي اليوم التالي يسمع باجتماع مجلس إدارة جمعية هيئة التدريس، بجامعتي فؤاد وإبراهيم، ويصدرون قراراتهم بإلغاء الأحكام العرفية فورا، وإطلاق الحريات، وعودة الحياة الدستورية.

ويلتقي بسمير في صحن كلية الحقوق، التي عجت بحركة غير عادية، فيبادره بانفعال:

- أرأيت كيف ارتفعت أصوات الحق والحرية، لم يعد الشعب يطيق ضباط الثورة..

- يا عزيزي إن أصوات الحق لا تقنع المدافع.

فيعتري جسمه التفزر، ويعبر في غضب متوقد:

- لن يمكنهم تحدي الشعب كله!

وهنا يجيء سام زميل سمير يقول:

- أعلمت أن المحامين عقدوا جمعيتهم العمومية ونددوا بضباط الشرطة الحربية لاعتدائهم على المحامين، أمثال عبد القادر عوده، وعمر التلمساني وغيرهما؟

- أجل، وقد طلب عمر عمر نقيب المحامين من النيابة إجراء تحقيق سريع، وقد استجابت، وستتولى التحقيق مساء نفس اليوم، كما وجّه المحامون صريح الاتهام للبكباشي أحمد أنور رئيس السجن الحربي، وتقرر إضرابهم استنكارًا لتلك الحوادث، وتسجيل احتجاجهم في جلسات المحاكم.

ويحتدم حماس كمال، فيصيح يرفع قبضته في الهواء:

- يحيا المحامون الأبطال وتحيا النيابة.

وهنا يحضر جميل، زميله القديم فيسأله عن آخر التطورات، فيسرد عليه ما سمعه باختصار، فيتنهد يمد يديه للإمام يشكو:

- نعم سمعت كل هذا.. إلى متى هذه الفوضى؟ ألا يمن علينا الحظ بوزارة ديمقراطية تتيح للبلد الاستقرار والحرية؟! وهل سمعتم

بإضراب عمال شبرا الخيمة؟ يقال إنهم سيطروا على الموقف سيطرة تامة.

ويعقب سام:

- كذلك أضرب عمال حلوان مؤيدين لمحمد نجيب.

وينظر كمال حوله فيلفي الطلبة في حركة غير عادية، يسيطر على الجميع روح الوطنية، وتتعالى أصوات الجدال، والتوعد والإنكار. ولا يلبث أن ينفض جمعهم، فيتخذ هو وسمير طريقهما إلى البيت.

(٣٦)

وينهى إلى علمه وقوع مظاهرات شغب في شوارع القاهرة، من شراذم عمال كُدّست في سيارات شاحنة، يهتفون للثورة وسقوط الدستور والنظم النيابية، ثم اقتحموا مبني مجلس الدولة الذي سُحبت الحراسة من حوله، واعتدوا بالضرب المبرح على الدكتور عبد الرزاق السنهوري وباقي مستشاري مجلس الدولة، مما نتج عنه إصابة السنهوري بارتجاج في المخ، وحبَس العمال المستشارين في قاعة الاجتماعات، وأجبروهم على توقيع بيان بتأييد مجلس قيادة الثورة. فتقع الأخبار على أذنه كالصاعقة، فتجتاحه غمة، ويحرق الأُرَّم غيظًا وثورة، هذه إذن سياسة حكم الدولة، استخدام الرعاع، ومؤامرات الخداع.

ويذهب مع سمير لزيارة عبد العظيم أمسية الخميس، فيلفي عمرًا

جالسًا مكفهر الوجه. ويبتدرهم سمير تعجبًا:

- هل يعقل يا ناس أن يخرج شعب ينادي برفض الدستور والتمثيل النيابي؟! أَعجَب وأجهل به من مطلب!! ويضربون السنهوري عظيم المشرعين؟!

ويحرِّك عبد العظيم رأسه أسفًا وحزنًا ويعبِّر:

- حقًا مهزلة المهازل!

ويغمغم كمال محتدم الغضب يتفزر:

- يحركون عمالاً مأجورين، ونصبح أضحوكة العالمين.

ويقول سمير:

- سمعت أن هذه المظاهرة قام بها عمال النقل العام، باستثناء عمال الترام، بتحريض من هيئة التحرير، وسمعت أنهم الشرطة الحربية متنكرين، أو عمال مديرية التحرير..

ويقول عبد العظيم تهيبًا:

- وكنا على وشك حرب أهلية وقتما حلَّق سلاح الطيران إرهابًا فوق سلاح الفرسان.

فيضرب عمرو كفًّا بكف ساخطًا. بينما يتساءل كمال في أسى:

- ألن تقوم إذن للدستور قائمة؟!

فيجيب عبد العظيم تنغيمًا، عودًا لطبيعته المرحة:

- أما الدستور فهو مطلب الجمهور، لن يتنازل عنه مهما كانت الأمور.

فيواجهه عمرو يلوح بيده ساخطًا:

- هذا ما أنت فالح فيه.. عبارات مسجوعة.. ألا يكفي أننا ضيَّعنا

عمرنا في الخُطب والشعر، فتأخرنا عن ركب الحضارة والعلم! هيا نخرج، أنا مختنق.

ويسمعون طرقًا على باب الحجرة، فيتوجه عبد العظيم فيتناول صينية عليها أكواب شاي، وقطع كعك منزلي، فيهش سمير وعمرو، الذي يخف لالتهام قطعته، أما كمال فيكتفي بالشاي، فيتناول عمرو قطعته شاكرًا، سائلا عبد العظيم:

- أليس هناك بسبوسة أو كنافة؟

- آسف يا سيد عمرو ما كان يتعز.

- هذه الماهية الفقر لا تمكننا من أكل ما نهوى، أو نعقد على أنثى.. ولا تبغي هذه «الأميمة» الرحمة.. أسألها لم ترفضين بعض المتعة؟ فتقول: إن نال الرجل المرأة، فلن يقبلها زوجة.. ينالها سائغة ثم يعافها ساقطة. فأقول لها: لست منهم، هؤلاء أولو القيم المزدوجة.. ويضرب كفًّا بكف، يطوف بالحجرة برمًا، ثم يحثهم بصوت كالفحيح:

- هيا بنا من هنا، إني أختنق ولا أطيق البقاء.

وينحدرون في درب الحلمية. ويقول سمير لعبد العظيم:

- رغم أني لست متعمقًا في علم الغزل مع إيطاليات الإناث، فقد أمكنني تدبير الوصال.. لكني لم أزل في ديباجة الصداقة، ومؤدب العلاقة، فيتعين يا عزيزي أن تكون صبورا مع الحوريات الخلابة..

ويبلغون ميدان عابدين فيسألهم عبد العظيم:

- أين تودون الذهاب أيها الصحاب؟

فيجيب سمير:

obeikandl.com

- يا حبذا لو طبق مكرونة «بشمل» في «الأمريكين»، يعقبه لذيذ «الجاتو» في "ستيبس".

فيصيح عبد العظيم مستطيبًا، ويربت على كتفه تقريظا:

- بورك فيك فتى ذو ذكاء لامع.. وما قولك في الفطير باللحمة الرائع؟

- وهذا أيضًا سيأتي في حينه.

فيخف عمرو يصافحه مؤيدًا ويغمغم:

- وللمعدة أيضًا شجون، فلنشبعها عسى ما بالقلب يهون.

أما كمال فلم يكن في حال تسمح له بمجاراتهم، فقد طغت على عقله وشعوره الأحداث، فأثقلته غمًا وشجنًا، كما أصبح يميل للجد والكفاح الوطني، فيتوقف يعتذر يريد لينصرف، فيحدقون فيه متعجبين، ويمسك عبد العظيم بذراعه يقول:

- لا تخش الحساب، فسمير ملك الليلة، أكرِم به من شاب.

ويردف سمير بابتسامته المعسولة:

- سرعان ما هفا إلى ليلاه.

فيبادر عبد العظيم يربت على كتف كمال منشدًا:

قيس عصفور البوادي   وهزار الربوات

طرت من واد لوادي   وغمرت الفلوات

فلانت أساريره وضحك، متذكرا نجواه متأثرًا، ثم منشدًا:

عفا الله عن ليلى لقد نوت بالذي   تحمل من ليلى ومن نارها القلب

فيخف عمرو يصافحه معجبًا، ويتذكر هو أيضًا أميماه، فينشد:

شكوتُ وما الشكوى لمثلي عادة   ولكن تفيض الكأس عند امتلائها

ثم يزفر: أنا هويت وانتهيت. ويلتفت عبد العظيم إلى كمال يستميله:
- لولا تسير معنا قليلاً، نتفرج على الكواعب ونبهج.. اخلولق أن تجد لضيقك المخرج.
فيوافق أن يسير بعض الوقت، حتى يصلوا لشارع فؤاد فيودعهم.

(٣٧)

اقتربت الامتحانات وما برح يعاني الشجن الدفين على ضياع الدستور والحريات! ومع هذا يأمل في استحالة الأمور. لكن فلأنحِّ الآن جانبًا الاهتمامات الوطنية، ولأتصدَّ بكل قواي للامتحانات، أنا أكثر استعدادًا هذا العام، فقد تعمقت في حجج الفقهاء، وأحطت بكل دقائق المعلومات.

انتهت الامتحانات، أبليت فيها خير بلاء، كانت كَنزهة بالجنان، فأجدتُ أسلوب العرض والتحليل لآراء الفقهاء، قريحتي تسطع بالمعلومات، في تصوّر جليّ وإشراق، وكأني أقرأ من الكتاب!!

ثم ظهرت نتيجة الامتحان، محرزا "جيد جدًا" كتقدير عام، ولم يبق للتخرج سوى عام. لكنه يفاجأ بقرار أبيه بعدم الاصطياف بالإسكندرية هذا العام، لارتباطه بقضية يوليها قدرًا كبيرًا من الاهتمام، وإذا سمحت الظروف فقد يذهبون لعشرة أيام. إذن سأحرم هذا الصيف إسكندرية الهيام، فأستوحش لنجوى أعاني قسوة البعاد. سألوذ إذن بخطابات الحب الملطفة من تباريح البعد.

وقبل رحيلها يذكِّرها:

- لا تنسي موعد لقائنا الفكري في الصباح والمساء.

- لن أنسى.

- إن البعد كما هو قاس، يشعل أيضًا العاطفة وينضج الإحساس.. وسأكتب لك بالعربية والإنجليزية والفرنسية.

فتضحك قائلة:

- سيكون هذا تمرينًا رائعًا لك في اللغات.

- أخشى أن تعجز العربية عن التعبير عما يجيش بصدري، فما بال بقية اللغات؟!

فتضحك وتفصح:

- لا بأس، حاول.. ربما استطعت.

- سأحاول.. ولتعلمي أنكِ أهم التزاماتي وحقوقي.. بعد الله والوطن.

(٣٨)

وفي اليوم السادس والعشرين من شهر أكتوبر يعلم بخبر إطلاق الرصاص على الرئيس جمال عبد الناصر، خلال إلقائه خطابه في ميدان المنشية بالإسكندرية. وفي عصر اليوم التالي يُفاجأ بحسن عبد الكريم يطرق بابه، فيهش له يرحب ويدعوه ليدخل، فيعتذر بأن لا وقت عنده، بل جاءه لأمر مهم. ولأول مرة يلاحظ سمات العبوس والتكدر على محياه. ويبادره حسن:

- جئت أحذرك، فنحن في خطر، وكل شباب الإخوان المسلمين،

obeikandl.com

المباحث ناشطة في القبض على كل شخص، حتى مجرد من ورد اسمه بإحدى قوائم الإخوان.. لقد مررت على بعض الإخوة الذين ارتبت في جهلهم بالأمر، فالسلطات تعتقد أن الإخوان وراء محاولة اغتيال عبد الناصر في المنشية.

ويراه يحمل حقيبة ملابس صغيرة، فيسأله أين هو ذاهب؟ فيجيبه:

- لا أدري بعد.. سأهرب إلى أي مكان.. يجب أن تسارع بالهرب أيضًا إلى أحد أقاربك البعيدين أو أصدقائك.

- لا أخالهم يقبضون عليَّ، فلم أفعل شيئًا أُحاسَب عليه.

فتعلو محيا حسن ابتسامة باهتة، ويجيبه في صدق وأسف:

- وهل أنا أو أي شخص من الإخوان فعل شيئًا؟! ولكني علمت أن حركة الاعتقالات شملت الجميع.. هي ليست المرة الأولى التي يعتقلون الإخوان، لكنها المرة الأولى التي يبطشون بهم جميعًا.

ثم يمد له يده ليصافحه وينصرف. فيتأمل بتركيز هنيهة، ثم يبادره:

- انتظر، سأذهب معك.

- إذن هيا أسرع، لا وقت لإضاعته.

- تفضل في الداخل.

- سأنتظرك هنا.

وتفكن في أسى واضطراب مبرح، أي سلوك يسلك؟! وكيف وأين يذهب؟ والداه ليسا بالبيت، كيف تكون صدمتهما؟ لا زمن للتردد، احمل ما خف من ملابسك واهرب. ويبادر فيضع بحقيبة صغيرة الضروري من ملابسه، وقبل أن يخرج يتذكر أن من واجبه أن يكتب شيئًا لوالديه، فيسطّر بورقة اضطراره للمبيت عند صديق في

محنة، ويعطيها الخادم، ثم يسرع مع حسن يهرولان على السلالم.

ويندفعان في شارع قصر العيني ييممان مصر عتيقة، فيرصد كمال ما حوله يحاذر أن تكون المباحث في أثره. وينثنيان في دروب جانبية مساكنها قديمة فقيرة. ويرى حسنًا صامتًا مكفهرًا، فيعتريه انقباض وتشاؤم، كيف يطاردونهما ولماذا؟ وهل يبطشون بمئات الآلاف من الإخوان، بما فيهم طلبة المدارس والجامعات، بما فيهم من صفوة الشباب؟ لا.. لن يعقل، ولو كان أطغى الطغاة، نُزع قلبه، وسُلب عقله! ويتأمل حسن في فضول، ماذا بخلده يدور؟ ماذا يدبر، وكيف يفزع؟!! لأول مرة يلتقي به في هذا الموقف، الذي يحتاج لرباطة جأش وتجلد.. الآونة يتبين عمق الإيمان، والشجاعة والصمود.. ويسمعه يهمس بأسف:

- نسيت تحذير عبد الرحيم ومصطفي.. كان الله في عونهما، على أية حال ما كان ثمة وقت.. الكثيرون قُبض عليهم البارحة.. في نفس اليوم، بل فور محاولة الاغتيال.. كيف تفسر هذا؟!

- وماذا حدث لطه وفارس؟

- أعتقد أنهم قبضوا على طه، أما فارس فلجأ إلى ألمانيا في أثناء حركة الاعتقالات السابقة، كماسافر آخرون إلى خارج مصر.

ويتفكن: ليتني تمكنت من تحذير ناج وعبد الله وعصام.

ويجدهما وصلا لشارع «السد البراني» فيسيران به قليلاً، ثم ينثنيان يمينًا في درب صغير، ثم يخرجان منه إلى درب «زين العابدين»، فيجده دربًا طويلاً يعج بالحركة والضجيج، هذه أحياء لم

يعلم عنها إلا القليل. ويسأل حسنًا أين هما مولّيان؟ فيجيبه:

- أرى أن نعود أدراجنا لنصلي المغرب بمسجد السيدة زينب، وفي ميضته نغيّر ثيابنا، فمعي جلبابان، سيلبس كل منا واحدًا.

فيخرجان من درب «زين العابدين» إلى ميدان السيدة زينب، فيدخلان الجامع فينبهر لرحابته ورونقه، يسبح في فيض من الأمن والسكينة، في أبهائه ثريات جميلة كبيرة، وتنتصب به على امتداد النظر أعمدة غزيرة. ويتأمل المحراب والحنيات والمنبر، بنقشها البديع المنمق، فتهبط على قلبه المستوحش السكينة، وهو يخطو بإجلال في رحاب المسجد، وملاذه المطَمئِن، والناس حوله من كل المشارب والملابس، يتهادون في سلام وتبتل.

ويذهبان إلى الميضة، فيستبدلان بملابسهما جلبابين أبيضين. ويجلسان بأحد الأركان، وحسن يبسمل ويحوقل. ويُأذّن المؤذن لصلاة المغرب، فيقفان بجوار المصلين، يتجه بكل قلبه للرحيم المغيث، يصلي بخشوع وقنوت، لم يصلِّه قبل الآن.

وبعد صلاة السُنَّة يقعدان متربعين، ويتذكر أن عليه أن يكتب لوالديه، فيجب أن يعلما بجلية الأمر، فالمباحث قد تباغتهما في أي وقت، كذلك يريد أن يكتب لنجوى، فيخرج ليبتاع قلمًا وورقًا، وظرفين وطابعين، ثم يعود ويخط لأبويه باختصار، أنه نظرًا لحركة الاعتقالات التي شملت كثيرًا من الشباب، فقد ألفى أنه من الحرص الاختفاء عند صديق حتى تهدأ الأحوال، ثم يكتب رسالة أخرى لنجوى الحبيبة.. يذكر لها ما ذكر لوالديه، ثم يخرج لوضع

الخطابين بصندوق البريد.

وعندما يعود يلفي حسنا قد استرد معهود بشاشته وإشراقه، تفيض أساريره بآيات الطمأنينة والسلام. وبعد أن يجلس يربت حسن على ظهره ويفصح:

- لا تحزن كمال، كله بأمر الله، ومادمنا آملين فيه متوكلين عليه، فلن يخذلنا أبدًا.. إن مع العسر يسرًا، إن مع العسر يسرًا.

وينصرفان إلى تلاوة القرآن حتى يؤذَّن لصلاة العشاء. وبعد صلاتهما يخرجان إلى ميدان السيدة زينب يحملان الحقيبتين. ويسأله حسن هل يأكل شيئًا، فيوافق، فييممان أحد المحال فيتناول كلٌّ منهما شطيرتي فول وطعمية، ثم يجلسان بإحدى القهاوي المتواضعة يحتسيان الشاي. ويقول له حسن بنبرة صادقة:

- ما عادينا الثورة، بل على العكس، كنا أول المؤيدين المتحمسين لها.. ولماذا نعاديها وقد خلصتنا من الحكم الفاسد!

- وهل تعتقد أنهم صالحون؟

- على الأقل لم يبدر منهم ما يبرر القتل.. ولو أراد الإخوان أن يقتلوا عبد الناصر لقتلوه، ولا يقومون بهذه المحاولة الساذجة! ومن مظاهر تعاون الإخوان مع الثورة، أن الضباط الأحرار عهدوا إلى الإخوان عقب حوادث حريق القاهرة، بمستودعات ضخمة من الذخائر والأسلحة، لإخفائها عندهم، وأنه في حالة فشلهم والقبض عليهم، يقومون هم بالمهمة.

وتبلغ الساعة الحادية عشرة فيدهمه ما غاب عنه حتى الآن: أين

سبيتان؟ ويسأل حسنًا، فيرى على محياه آيات الحيرة، ويجيبه:

- يبدو يا كمال أنه ليس أمامنا إلا أن نضجع في أحد الأركان.

- لماذا لا نذهب لفندق؟

- لا أنصح بذلك، فكل الأماكن مراقبة، أنت لا تعلم أساليب المخابرات.

وتعتريه الحيرة المبرحة، هل سينامان في العراء؟ ويشعر بنفحات باردة تتغلغله.

وفي الواحدة والنصف بدأت القهوة تتأهب للغلق، فيقومان يستأنفان السري، وقد قلَّ المارة في الطرق. ويدخلان في حارة صغيرة، فيقول حسن:

- ربما وجدنا دكة أو حجرًا في أحد الأركان نستلقي عليه.

وبعد مسيرة في الأزقة لفترة، يلفيان دارًا قديمة تشبه الضريح فيقعدان على درجتها الحجرية، مسندين ظهريهما للجدار. ولم يلبث النعاس أن بدأ يغالبه، فأنشأ يهوِّم، فيبسط جسمه فوق درجة البناء، مسندًا على الحقيبة رأسه، مستسلما للإغفاء.

(٣٩)

يتسلل الضوء إلى عينيه مع طلوع الفجر، فيفرجهما قليلاً، فيباغته استلقاؤه في هذا الزقاق الغريب بالعراء، وعلى الفور تدهمه ذكريات الهرب بالأمس، فيفتح عينيه وينهض يجلس، فيجد حسنًا مضطجعًا على جنبه، رجلاه مطويتان، مسندًا رأسه على حقيبته، ثم

o p e i k a n d i . c o m

يفتح عينيه ويبادره بصباح الخير، ويسأله عن الساعة، فيخبره، فيستنهضه ليوليا للمسجد لصلاة الفجر.

وبعد انتهائهما من الصلاة ييممان شارع الخليج، يرفلان في جلبابيهما الأبيضين، ويرى الحركة قد بدأت تنشط بالدروب والشوارع والمحال، ومركبات الترام تصول وتجول في الميدان، تحمل أكوامًا من البشر، والناس تسعى وراء كل هدف، وانتشر السيارات والباعة المتجولون في الطرق. ويتفكن وهو يتفزر ويصطرع: هل غفلوا عما يجري بالوطن! وكأن شيئًا لم يقع؟ هلاّ نفروا لدرء ما ينذر بالويل والخطر!

ويصلان إلى شارع الخليج، وبينما يسيران يلاحظ رجلاً طويلاً عريضًا في جلباب رمادي، يقف في الطريق، ذو شارب ضخم، يتفرس فيهما بعينين كالصقر، ويتعديانه بمسافة، ثم يلتفت كمال وراءه، فيلفيه يسير بالخلف، فيسأل حسنًا بتوجس أيكون من مخبرا للسلطة، فيجيب:

- جائز.. لنسرع قليلاً.. في الحقيقة، هيئتنا لا تشبه هيئة أهل البلد، وخاصة بهذين الجلبابين والحذاء والجورب.

وبعد قليل يصلان «باب الخلق» حيث ميدان «أحمد ماهر»، فينظر حوله فلا يلفي الرجل، فيعتريه بعض الاطمئنان، وينثنيان في درب «تحت الربع»، وفجأة يتوقف حسن طالبًا أن ينتظره، ثم ييمم بائع بطاطا يقف أمام عربته، فيساومه، ثم يخرج من جيبه ورقة مالية يعطيها إياه ويأخذ عربته، فيذهل هل سيأكلان كل هذا؟ ثم

سرعان ما يفطن لمراده، ما هي إلا حيلة للتنكر. ويشير له حسن ليقترب ثم يبتسم قائلاً:

- أعتقد أنها وسيلة لا بأس بها للتنكر.

- نعم، بكم اشتريتها؟

- بخمسة جنيهات.. كان لا بد من إغرائه بهذا المبلغ ليبيعها.

ويشعر بالحرج، فكل ما معه ثلاثة جنيهات، فيخرج جنيهين ليعطيه إياها، فيبادره:

- لا يا عزيزي، احتفظ بنقودك، معي ما يكفي والحمد لله.

ويصر على الرفض. ويتوغلان في درب تحت الربع بدوره القديمة وأطلاله المتهالكة حتى يبلغا «باب زويلة» عند بوابة الحصن الضخمة، التي كانت تغلق على قاهرة المعز، فيمران تحتها إلى درب «بين القصرين» فيرى على يساره مسجدًا عظيم البنيان، يحمل آثار ذلك الزمان، فيسأل حسنًا عن اسمه، فيجيبه بأنه «مسجد المؤيد». ثم يبتدره ضاحكًا:

- علينا أن نتعلم كيف نبيع ونسلك كبائعي البطاطا.

وكانت المرة الأولى التي يراه منذ خرجا، يضحك.

وأنشأ حسن ينادي: البطاطا.. العال يا بطاطا. ولا تلبث أن تجيئه امرأة في ملاءة، فتشتري منه، ثم تعقبها أخرى، ثم فتاة صغيرة، فتليها صبيّة. فيقول له حسن ضاحكًا:

- مكسب لا بأس به.

وطفق هو يتفرس فيما حوله بفضول، من محال عجيبة وبيوت عتيقة، ونوافذ ومشربيات أثرية، والمحال تغص بسلع يراها لأول

obeikandl.com

مرة، والناس يأوون لمساكن كالجحور، في استكانة وركون، وكأنهم في عالم منفصل الوجود. ويسيران حتى يصلا إلى «قبة الغوري» بناصية شارع الأزهر، فينثنيان لليمين. فيذكِّره حسن بأن صلاة الظهر حانت، وليؤدياها بمسجد الحسين، فيسأله أين يتركان العربة، فيتأمل هنيهة ثم يطلب منه أن يذهب ليصلي أولاً، ثم يصلي بعده.

وبدخوله المسجد ينبهر لتحفة من روائع الفن الإسلامي، فسيح رحب، تدلت من أسقفه ثريات فخمة، وتراصت خلاله أعمدة متعددة، وكأنها قائمة في صلاة دائمة، وكل حنية ومحراب وقبوة آية في زخرف الفن الإسلامي، المسجد يبعث في النفس طمأنينة وراحة. رحلة الهروب هذه لا تخلو من فائدة، عرَّفتني بوطني وتراثه.

ويعود إلى حسن، فيتركه وييمم المسجد، وعندما يعود يستأنفان سيرهما ينحدران في سكة «جوهر القائد»، النابض بالحياة والتجارة من كل لون، وخاصة عندما يعبران شارع الخليج لدرب «الموسكي»، الذي هو امتداده، ثم عند نهايته حيث شارع «فاروق» يدوران على أعقابهما عائدين، حتى يصلا ثانية إلى تقاطع درب الموسكي مع شارع الخليج فيطلب منه حسن أن ينتظره حتى يذهب إلى دورة المياه. ويلفي البطاطا المشوية قد قاربت النفاد، فيضع غيرها في الموقد، ولا يلبث أن يحضر إليه غلام في جلباب رث حافي القدمين، يمد له يده بنصف قرش، فيبتسم ويعطيه واحدة، ولكن الغلام يشير في خجل إلى واحدة أخرى أكبر، فيعطيه إياها،

فيأخذها في فرح، يقشرها في شغف، ثم يلتهمها في نهم، قدّر سنه بإحدى عشرة سنة، ثم تجيء صبية تقاربه في العمر، تجر طفلاً صغيرًا، وأنشأت ترنو في شهية للبطاطا، ثم تمد له يدها بنصف قرش، فيعطيها واحدة، فتلبث هنيهة لا تريم، ثم تشير تطلب واحدة أخرى للطفل بلا ثمن، فيعطيها ضاحكًا، أساريرها دقيقة جميلة، رغم ما يعلوها من لون أغبر، وما يحيط رأسها من شعر أشعث، تسير هي والطفل حافيين. ثم يدنو صبي يمد يده يريد واحدة أيضًا بلا نقود، فيناوله، فيقلده صبي آخر مادًا يده، فيعطيه، وهو يتساءل من أين جاء كل هؤلاء الصِبْية! ويحضر حسن فيسرد عليه ما حدث، ثم يقول ضاحكًا:

- لو تأخرت أكثر لما وجدت بطاطا.

فيضحك ويقول:

- لا بأس، كله بثوابه.

ويستأنفان سيرهما شمالاً بشارع الخليج. ويفصح كمال:

- مساكين هؤلاء الصبْية، يتركون مشردين في الطرقات!

- نعم واحسرتاه.. ما يدعو للخزي والعار، أننا مجتمع الإسلام نهمل أبناءنا في الطرقات للهوان، فيشبون بين أيدي الانحراف.. إن شعبنا الكريم لا يستحق هذا، انظر إلى الفلاح والعامل كيف يحني رأسه تحت وطأة البؤس والفقر، ورغم هذا لا يتخلّى عن سماحته وكرمه، صلبًا صابرًا.. مكافحًا مؤمنًا.. لأنه شعب أصيل.

ويتأثر لكلامه يغلبه الأسى والعطف.. ثم يتذكر خطبه الآسرة في المدرسة، وعمق إيمانه.. هل رحلت هذه الأيام؟ هل انقض على

مصر قضاء صارم لا رادّ له؟ ويسمعه يقول بنبرات متأثرة، وهو يدفع العربة أمامه بساعدين قويين في جلد:

- لو قيّض لهذا الشعب حاكم مخلص عادل، لاستعاد أمجاده وصار من أرقى الشعوب، ولحقّ لمصر أن تكون كنانة الله في أرضه.

ويهمس كمال ونفسه تئن:

- صدقت كل الصدق.

ثم بدأ حسن ينادي: العال يا بطاطا.. العال يا بطاطا.

ويصلان مشارف أطلال حصن وسور القاهرة القديم، وبوابة الفتوح، يمتد أمامهما درب الحسينية. وكان التعب قد نال منهما، واشتدت حرارة الشمس، فيقعدان إلى جانب السور يستريحان في صمت. ولا يلبث أن يهوّم في إغفاءة ثقيلة. وعندما يفتح عينيه يلفي الساعة الرابعة، فيقومان يستأنفان المسير فيدوران مع أطلال الأسوار عند «باب النصر»، فيرى حوله وسطًا عجيبًا من البيوت الموغلة في القدم، تلتف حولها الحارات والأزقة، تنم عن زمن الحصون والقلاع. ويمران من وراء مسجد الحسين، ثم الأزهر، ثم مسجد «الماردني» حتى يبلغا أخيرًا مسجدي «الرفاعي» و«السلطان حسن» الهائلين بميدان القلعة. وتبدو له أسوار القلعة عظيمة شاهقة، تنتشر حولها دور عتيقة باهتة، وأضرحة ومساجد غابرة، وأناس لقضائها صابرة مستسلمة. ويعبر لحسن وهو يلهث:

- لم أعد أحتمل المسير، لقد نال مني الإرهاق وتورمت قدماي.

- وأنا أيضًا.. لا بأس بالراحة بعض الوقت.

obeikandl.com

ويقعدان بجوار دائرة الخضرة في ميدان القلعة. ويسأله كمال بقلق:
- ما نهاية هذا المسير؟
- كنت أفكر في السفر لأقارب لي في الشرقية، ولكن هذه مجازفة، ليس خوفًا على نفسي فقط، بل عليهم أيضًا.. هل عندك اقتراح؟
- فلنسافر إلى أي مكان، ولو خارج القُطر.
- إن القطارات والمحطات من الأماكن التي تُشدد عليها الرقابة.
- ولكن كيف يفطنون إلينا ويعرفون أننا من الإخوان؟
- أنت لا تعلم أساليب المخابرات ودهائها، كانوا يحضرون سرًّا اجتماعاتنا، ويعرفوننا واحدًا واحدًا.. ولا أستبعد أن معهم صورنا.
فيثور يتفزر غضبًا:
- أكاد أنكر أن هذه مصرنا، وطننا الحبيب وشعبنا، فنُطارَد فيه هكذا!!
ويلفت حسن نظره هامسا:
- أترى هذا الرجل ذا الجلباب الرمادي، على الرصيف المقابل.. لا تنظر إليه مباشرة، إنه يراقبنا.. هيا بنا نحو الحسين.
ويجران قدميهما في تحمّل وئيد. وهو يجاهد متشبثًا بالجلد والإصرار، وقد غطى العرق جسمه، وتمنى لو يأخذ رشاشًا يبرده.
ويطول الطريق، ولا ينتهي المسير، ويضنيه المجهود والمجهول.
ويرى حسنا يدفع معه العربة صامتًا صابرًا، لم تند عنه أنَّة شكوى منذ خرجا معًا، فيعجب به ويغبطه.
وييممان الحسين عبر طريق السروجية والمغربلين، خلال حوانيت وصناعات لا تهدأ فيها الحركة. وبعد جهد عسير ناءت به رجلاه،

يبلغان الحسين وقد أقبل المساء، فيوليان لمسجد الحسين، يصليان المغرب ثم العشاء، ثم يقترح كمال أن يقضيا الليلة في داخل المسجد، فيقول حسن:

- ولكنهم لا يسمحون لأحد بالمبيت.

- فلنرجُ إمام الجامع لعله يكون طيب القلب ويستجيب.

- لا بأس، انتظر هنا وسأدخل أستشفه.

وتنقضي دقائق مديدة، يعاني فيها هواجسه المتشائمة، ويتذكر نجواه، فيهش لذكراها، كم يحن القلب للقياها، أرجو ألا تكون فُرقة يطول مداها.. كيف يا ترى استقبلت خطابي! وهل يضنيها غيابي، وهل تحزن لمصابي؟

إذا طاف قلبي حولها جن شـوقه   كذلك يطفـئ الغلة المنهل العذب
يحن إذا شطت ويصبو إذا دنت   فيا ويح قلبي كم يحن وكم يصبو

أخيرًا يعود حسن وعلى محياه آيات الفرح، ويبادره في تحمس:

- لقد قبل أن نبيت الليلة، بعد أن قصصت عليه ظروف حضورنا من الريف إلى القاهرة لزيارة الحسين وسرقة نقودنا في الطريق، ولا مكان نبيت فيه.. لقد اضطررت للكذب سامحني الله.

فينزاح عن كاهله العبء. ثم يهتف حسن متداركًا:

- نسيت أين نضع العربة؟!

- لندخلها إلى حوش المسجد.

- لا.. ماذا نقول للرجل، وماذا يفهم؟!

ثم بعد لحظة تأمل، يبادره حسن:

obeikandi.com

- فلنبحث عن صاحب حوش فنسأله أن يضعها عنده حتى الصباح.
ويجوسان خلال الأزقة المحيطة، حتى يجدا شيخًا يقعد أمام دار متواضعة بحوش صغير، فيستعطفانه أن يتركا عنده العربة، فيقبل، فيعودان مستريحين للمسجد.

ويقعدان في أحد أركان المسجد، ويخرج حسن مصحفه الصغير من جيبه، وأنشأ يقرأ بتبتل. وبعد فترة يضع المصحف، ويسأله:
- ماذا تنوي بإذن الله بشأن المستقبل؟ أن تعمل محاميًا؟
- أجل، أو وكيل نيابة.. لكن هدفي الدائم، هو تحصيل المعرفة في كل مجال.
- بورك فيك، هذه شيمة المسلم المؤمن: حب العلم، إلى جانب الإيمان.. أما أنا فأنوي إن شاء الله التخصص في «الإلكترونات»، فأرى ما وصل إليه العلم في هذا المجال.. أنا سعيد حقًا بدراستي للهندسة.. لقد غرز فينا أبي حب العلم، وقد تخرج في الأزهر الشريف وعمل مدرسًا، حتى وافاه الأجل، وكان يقول: { قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ }.. رحمه الله وكرّم مثواه.. أما والدتي فلم تعش طويلاً بعده.. رحمها الله وغفر ذنوبها.
ولا يلبث النعاس أن يغلبهما فيستغرقان في النوم.

(٤٠)

ويفزع كمال مستيقظًا في هتك الليل، يعلو صدره ويهبط.. يا له

من كابوس موحش مزعج، الحمد لله أن صحوت أخيرًا، اللهم أعوذ بك من كل شر. رأى حلم الطيران من جديد، لكن هذه المرة مقبض كئيب، فحوّمت في الظلام فوق مساجد «الغورية» والمآذن والقباب، ثم ابتعدت فوق هضبة «المقطم» ثم فوق صحراء جرداء، ثم بدأتُ أهوي وأهوي، في عجز وقهر، حتى ارتطمت بالأرض، بمكان قفر، وجاهدت لأنهض، لكن لم أقدر، وكأن جسمي انشل. ولا يلبث حسن أن يستيقظ ، ويطلب أن يقوما لصلاة الفجر.

وفي الصباح يأخذان العربة، ويستأنفان شرودهما، فيسيران بشارع الأزهر، ثم ينثنيان يمينًا بشارع «فاروق» إلى أن يصلا إلى «باب الشعرية»، فيستريحان قليلاً، ثم يدوران على أعقابهما عائدين يمة ميدان «العتبة»، ثم شارع الأزهر، حتى يبلغا ميدان «مدينة المهدية» بعد الظهر، فيقعدان في ركن يستريحان. ويتفكن: يا لها من محنة! انقضى يومان منذ بدأنا الرحلة، لكن انصرما كأنهما شهران، ما كانت لتخطر على البال.. يا إلهي، أي مصير في الانتظار؟ إلى متى نضل ونشرد؟

وبغتة صخ أذنيه عواء سيارة شرطة، تمرق في شارع الخليج صوبهما بسرعة، فيزدرد ريقه في رجفة. هل في إثرهما؟ ويبادر حسنًا بصوت مضطرب:

- ربما يقصدوننا.. هيا نهرب؟!

فيبدو عليه سمات التوجس ويتمتم:

- لا أظن.. فلنبتعد على كل حال.

ويدفعان العربة بهمة وعجلة شرقا بشارع الأزهر، فلا يلبثان أن يسمعا ابتعاد عواء السيارة، فيتوقفان يتنفسان الصعداء. ولا يلبث كمال أن يلاحظ رجلاً في جلباب سنجابي اللون، قاتم الوجه، عريض المنكبين، يحدجهما بنظراته ثم يخطو خلفهما، قادمًا من الميدان الذي خرجا منه، يبدو أنه نفس الرجل الذي رأياه من قبل؟ فيهمس لحسن بملاحظته، فيعقب يحذره:

- لا تلتفت إليه.. ربما شك في هرولتنا الفزعة.. فلنظل بالدروب الجانبية والأزقة. فيعبران شارع الأزهر إلى الجانب الآخر، ثم ينثنيان في أول زقاق يقابلهما على اليمين، في بدايته جامع عتيق صغير، رصفت أرضه بالأحجار وتلاصقت فيه البيوت، قرأ على جداره لافتة «درب سعادة». وبين آن وآن يلتفتان خلفهما حاذرين أن يكون الرجل وراءهما، فلا يلمحان له من أثر.

وطفقا يضربان في حارات ومساتل ضيقة، حتى يلفيا نفسيهما يخرجان أخيرًا إلى ميدان «باب الخلق»، فيقترح كمال أن يأويا من جديد إلى الأزقة، فيرجعان من حيث جاءا، فيخوضان في زقاق ضيق على اليمين، فيجدان رجلاً في جلباب أبيض يقف بأحد الأركان يتربص، لا يلبث أن ينظر إليهما يتفرس، هل يكون مخبرًا آخر؟ فيتظاهران بسلوك غير آبه، ثم يدخلان بحارة صغيرة ومنها لأخرى، حتى يضلا. فيتمتم بضجر:

- أخشى أن تكون هنا نهايتنا..

فيجيبه حسن في رصانة وثبات:

- { قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا }.
فيتوجس بباطنه: أخشى أنه كُتب علينا أن نقع في قبضة السلطة!

وبغتة يلمح الرجل ذا الجلباب السنجابي الذي رآه بشارع الأزهر، يعبر حارة موازية دون أن يلحظهما، وبجانبه الرجل ذو الجلباب الأبيض، آه! هذا فأل لا يُطمْئن! فيبادر ينبه حسنًا، فيسرعان في زقاق على اليسار، ومنه إلى درب طويل. فيقول له حسن بحزم:

- اِهرب أنت بسرعة وسأبقى هنا مع العربة.

- ولكن.. ماذا ستفعل؟!

- سأتصرف.. ولنتقابل بعد ساعة عند بوابة الحسين.

- لن أتركك.

- اِذهب، لا وقت للضياع.

فلا يجد مناصًا من الابتعاد. ويسمع حسنًا يقول له:

- رعاك الله.. ولا تنس: {وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ }.
وطفقت العبارة تتردد في أذنيه وهو يأتل مبتعدًا، وقبل ميله في أول عطفة، يلتفت خلفه، فيرى الرجلين يستوقفان حسنًا يطلبان منه شيئًا، فيسقط في يده منزعجًا، يجتاحه الأسى متشائما، ويحث الخطى مبتعدًا، يتبرَّح ويتشزن(١)، مسترجعًا كل أحداث الظلم والطغيان منذ قيام الثورة، حتى يجد نفسه بحارة سد! اللعنة على هذا الحظ، أنَّى المفر؟ سأدور على عقبيّ، محاذرًا الخروج للدرب. الحمد لله لا أحد بالحارة.. سأتوقف عند الناصية أنتظر مرورهم عن بعد. الزمن

---

(١) يتعسَّر ويتصعَّب.

ينصرم ببطء، وقلبي يدق بعنف.. ها هو حسن والرجل ذو الجلباب الأبيض يمسك بياقة جلبابه من الخلف، أما الآخر فأين ذهب؟! في أثري لا ريب، جسمي يرتجف من الخوف، سأدنو بحذر لمنحنى الدرب. ويلتفت يمينًا فلا يعثر على أحد. سأمرق في هذا الزقاق عائدًا من حيث جئت.. آه. حارة أخرى سد ، اللعنة على هذه الحارات السد التي تعوق النجاة من الظلم.. سأعود أدراجي.

ويتخبط لا يعلم أين يولي ؟! فينثني يسارًا ثم يمينًا ضيق الصدر.. هذا «درب سعادة»، هل أسير فيه بطمأنينة؟ ويلبث متهدج الأنفاس هنيهة! ثم بغتة، إذا بكف كالمرزبة، تحط على كاهله منقضة، فينتفض مرتعدًا في رجفة، ويسمع صوتًا خشنًا ساخر النبرة:

- لا فائدة من الهرب.

كاد قلبه يقف، وأسقط في يده ويئس، ويلتفت، فيرى الرجل ذا الجلباب السنجابي يطالعه بوجه مقطب أغبر، فيتمالك نفسه ويتحداه في غضب وتشذر[١]:

- ماذا تريد؟

- أريد أن تذهب معي للقسم.

- لماذا؟!

- ستعرف هناك.

فينقاد مستسلمًا لمصيره الشؤم في قبضة سلطة الظلم.

---

(٢) توعَّد ، تأهب للقتال.

ويمْثُل أمام الضابط في القسم، فيفتح المحضر يسأله بتجهم:

- ما اسمك؟

- كمال أحمد عبد الرحمن.

- مهنتك؟

- طالب جامعي.

- هل معك بطاقة هوية؟

فيخرجها يعطيها إياه، فيعود يسأله:

- هل كنت مع المدعو حسن أمام عربة البطاطا؟

- أجل.

- ما علاقتك به؟

- زميل بالجامعة.. (ثم يسأله وهو يتفزر نافد الصبر) لا أعلم لِمَ هذا الاستجواب، ولم أرتكب جرما؟!

فيجيبه بوجه عابس متصلب:

- ستعرف فيما بعد.. هل أنت من الإخوان المسلمين؟

- لا.

- ألا تعرف أن حسنًا من الإخوان المسلمين؟

- لا أعرف.

- هل أنت واثق؟

- لن أجيب على هذه الأسئلة حتى أعلم ما التهمة الموجهة إليّ.

فيضع الضابط قلمه ويتراجع بظهره إلى الوراء، يتشاوس إليه بتعال وتحدٍّ، سمات وجهه الأسمر بغيضة تنفر. ثم سمعه يهتف بضحكة تهكمية ويذكر:

obeikandl.com

ـ لماذا تتعجل؟ التهمة متوافرة.. تهمة واثنتان، وثلاث.. كما تشاء.

فيحرق الأرم غيظا، يتفزر ويتشزن أكثر. لكنه يجاهد ليتمالك جأشه.. من الحكمة في قلعة الشرطة أن يذعن في جلد للسلطة، فلا منطق ولا عدل ولا رحمة.. فما هم إلا أدوات القمع الغاشمة.

ويقول له الضابط بعجرفة:

ـ هل ستجاوب وأنت صاغر، أم تنتظر لوقت آخر؟

فيجيب من تحت أضراسه:

ـ سأجيب.

وطفق يسأله عن صلته بالإخوان المسلمين، فيصر على الإنكار، وعدم علمه بنشاط حسن، إنما قابله مصادفة في أثناء سيره، فسار معه قليلاً يتحادثان.

وبعد انتهاء استجوابه يقتاده شرطي إلى زنزانة، بها لفيف من مشبوهي السمات، فيقعد بينهم في توتر واحتدام، ثم تدور عيناه يبحث عن حسن، فلا يعثر له على أثر.

(٤١)

وبعد زمن مديد، يهبط الليل يزحف بطيئًا وهو ملقى على الأرض، حتى جاء رجال الشرطة بالصباح الباكر، يقتادونه وزمرة من المحجوزين إلى الخارج، يكدسونهم بسيارة شاحنة، تغلق عليهم، وتنطلق بهم تطوي السبل. لا يمكنني أن أرى وجهتهم، ولا أن أغيِّر

obeikandi.com

من قدري، لا مناص من أن أذعن في جلد، حتى يقضي الله أمره.

ما فتئت السيارة تطوي بنا الطرق، تستوي وتنثني، تسرع وتبطئ، ولا يبدو نهاية للرحلة المشئومة. أخيرًا تتمهل، ثم تعرج وتتوقف، ويُفتح الباب ويقتادونا إلى داخل بناء متعدد الحجرات، هذا إذن السجن الذي سننزل فيه.

ويُلقى في حجرة مُلئت بشباب مثله يجلسون على الأرض، فيقعد بينهم. وتطوف عيناه بالوجوه، حتى يرى فجأة عبد الله وناجيًا قاعدين في الحوزة المقابله، وتلتقي أعينهم، فيشير له عبد الله ليقترب، فيقوم يصافحهما ويقعد، ويسألهم بذهول وتعجب:

- ما الذي جاء بكما إلى هنا؟

- الذي جاء بك.

- منذ متى؟

- منذ أمس الأول.. ما هذا الذي تلبسه؟

ويتذكر أنه يلبس جلبابًا، فيبتسم بمرارة ويسرد عليهما كيف جاءه حسن وهربا معًا، متخبطيْن في الدروب والحارات حتى قبض عليهما المخبران. ثم يسألهما عن عصام، فيجيبه عبد الله بحنق:

- لا شك أنه قُبض عليه، فيتضح أنهم ما تركوا أحدًا.

- ما اسم هذا السجن؟

- «أبو زعبل».

وينقضي الليل وهم بمجلسهم. وفي الصباح يُلقى إليهم بكوز به شيء كالمرقة ليشربوا منه، ربما من الفول والعدس، يُسمَّى

«يمك». وفي الظهيرة يُنقل هو وعبد الله وستة آخرون إلى زنزانة أصغر، ضاقت بهم. ويقدم لهم ثانية «اليمك»، فيأخذ قليلاً بتأفف.

ويجيء اليوم التالي ثقيلاً بطيئًا، فيسألهم إلى متى يلبثون، وماذا بهم سيفعلون، فلا يجد إجابة، بل شارات القهر والمرارة. وأنشأ البعض يقرأ بالمصحف، فيشاركهم. وبغتة يدهمهم الحارس يصرخ:

- ألا تعرفون أنه محرم عليكم قراءة هذا الكتاب؟ سأعطيكم درسًا أيها الكلاب.

ويهجم عليهم ينتزع منهم المصاحف، فيلقي بها في دلو، وهو يهرهر يستهزئ:

- أتظنون أنه سينقذكم مِنّا أيها الأغبياء؟

فيستعيذون بالله ويستغفرون، ويعتريه الوجوم والذهول، لا يصدق ما يدور. ثم يركلهم الحارس ويكيل لهم بقسوة اللكمات، ويتلقى ركلة برجله وبصدره، فيتشذر ودماؤه تتوقد، يعميه غضب جارف، فيصيح به: لماذا تضربني يا حقير؟ فيحدق فيه الحارس هنيهة، وقد بوغت بجرأته، فيهجم عليه يمسك بياقة جلبابه، يقوده إلى خارج الزنزانة يزمجر والشرر بعينيه يتطاير: أما أنت فلي معك حساب آخر. ويصادفه ضابط في الطرقة فيسأله عن أمره، فيلوي سماته باستهزاء قائلا:

- حضراتهم يقرأون القرآن، وهذا السجين يتحداني!

فيلقي عليه الضابط نظرة احتقار، ويقول للحارس:

- عرفهم مَنْ هم أسيادهم؟

ويوليه ظهره مبتعدا. فيقتاده الحارس إلى حجرة واسعة، وهو يسبه ويتوعده. فيسر لنفسه بوجوب أن يتمالك روعه، فلا يدع للغضب والتشذر سيطرته، فيكون دافعا لهم ليتمادوا في تعذيبه وقهره، هم ليسوا من البشر، بل شواذ من جنس مختلف. ويرى بوجهه البغيض أسنانًا كالأنياب، وعينين توريان بشهوة العدوان، وهو يغمغم:

- سأعطيك درسًا لتعرف مقامك هنا.. اخلع ملابسك يا كلب.

ويجعله يُعرِّي نصفه العلوي ويوجِّه رأسه للحائط، فيقيّد يديه بحلقتين مثبتين، ثم يلوح في الهواء بسوط يفرقع، طفق ينهال به على ظهره بقسوة. فيجاهد ليكتم صراخه، يئن ضاغطًا على أضراسه، الدماء تسري محتدمة في بنيانه، يغلي بالمَقت والنقم، ويتمتم: إنما الجسم مادي زائل، منبع الشهوة وموضع الزلل، أما النفس فراقية حية إلى الأبد.

ويسمع الحارس يهرهر عاليا ويزأر:

- هذا لكي تتذكر الأيام الحلوة التي قضيتها هنا.. هذا إذا كان لك عمر وخرجت.. هذا مجرد عينة لما ستناله بعد.

أخيرًا أُلقي بالزنزانة، منهوك القوى في ذهول، كرثيث[١] مُشفٍ على الردى، يتلوى من تباريح الألم اللاذع، يحرق الأرَّم في تشنج وتفزر، بينما ينغض زملاؤه برءوسهم في تعاطف، يستعيذون بالله ويسألونه الرحمة. ويخبره عبد الله:

---

(١) جريح مُشْفٍ على الموت.

- لا تتهور ثانية، إننا في غابة، بين وحوش مفترسة! في البداية فعلت مثلك فشتمته، فقيدوني وبالضرب والرفس أوسعوني.. أبصر. وكشف له عن أثار كدمات في يديه ورجليه ووجهه.

ووقب الليل أليمًا كئيبًا، كما لم ينقض ليل من قبل، فكلما تغافل عن الألم وغشيته إغفاءة، صدمه شعور الظلم والمهانة، فالألم يهون، لكن ما لا يهون مصادرة الحرية والكرامة، من كل عتل زنيم، من أكبر رأس لأحقر ذنب أجير، الكل في الدرك الأسفل سواسيه. أخيرًا غشيته غيبوبة كوحشة القبر.

ويزحف اليوم التالي ثقيلاً، ينذر بالويل. ويباغتهم أحد الحراس بالدخول، فيلقي ماءً قذرًا من دلو على الأرض، ليمنعهم من القعود، يرميهم ببذيء النعوت. وتساءل بتوجس أما فتئ الحارس يضمر له الثأر؟ ما برح لاذعا أثر السوط ، والزنزانة تضيق بالأجسام تتحرك بعسر، فيشعر بالخنق، وذلّ العجز والقهر.

(٤٢)

الأيام تزحف وئيدًا، والمصدر الوحيد للتسرية هو مرأى السماء الفسيحة من خلال نافذة قضبان الزنزانة الصغيرة. ويتناهى إلى مسامعه ما يلاقيه زملاؤه من أساليب التعذيب الوحشية، من جلد واقتلاع أظافر، وتسليط الضوء على عيونهم، وإلقائهم للكلاب تنهش لحمهم، واغتصاب محارمهم أمام أنظارهم. عشرات الآلاف

opeikanal.com

من شباب مصر وخيرة رجالها تحت وحشي العذاب، والمهانة والإذلال.. لأي غرض؟ لأي هدف؟ ما الأسباب؟ كلها أسئلة يتحتم الإجابة عليها أمام الشعب صاحب السلطات.. الطاغون حقدًا، الباغون نقصًا، الظالمون جبنًا، ليجيئنّ يوم تدور فيه الدوائر بطشًا، ويحم القضاء جزاءً عدلاً.

ويرى مرة من خلال فجوة باب الزنزانة المساجين يقودهم الزبانية في هيئة محطمة رثة، متهضمي السمات، متهالكي الأبدان، ليتني أرى حسنًا، أين ألقى به الأنذال؟ وأبلس عندما رأى أستاذين بكلية الحقوق، وطالبين قبطيين.. كم هذا فظيع شر. لا ريْب أن خاله فؤاد أودع أيضًا السجن! يبدو أن مصر كلها أُلقيت في السجن!!

وسمع عبد الله قال باحتقار:

- لا أعرف من أين هؤلاء الزبانية أتوا بهم؟ من أي بؤرة دنس.. !!

فنغض رأسه وقال منكرًا بقنوط ويأس:

- قطعًا ليسوا بمصريين أصلاء! بل ربما صهاينة أشرار.. بل حتى ولا صهاينة، لا ريب بتدبيرٍ من قوى عميلة خائنة، هل هناك مصريون يفعلون بإخوتهم ما يفعلون؟ بل أهناك إنسان يفعل هكذا بإنسان!! ولو كان مجرمًا غاية الإجرام؟!!

وبعد فترة، بدت كحقبة، تأمل بحسرة: انقضى ثلاثة شهور، تقدمت خلالها في العمر سنوات. كثير من الأمور تقتضي التحقق والمراجعة. وطرَق ذاكرته آخر عبارة نطق بها حسن وهو يودّعه: ولا تنس:{وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ }. فوضع متوجسا

راحته حول عنقه، أي مصير بالغيب ينتظره؟!!

(٤٣)

وقبل أن ينتهي الشهر الرابع تمت إجراءات الإفراج عنه. فيمم بيته، يتفكن في أمره وما سيلاقيه من أهله. وبوصوله استقبله والداه بذهول ولهفة، بين النفي والتصديق، وبين الأسى والحنين، وأغرقت أمه في النحيب. ذبل لونها وهزل عودها، واعترى وجه أبيه شجن كظيم. ثم ذكر له:

- لولا مكانة عمك سيف بالجيش، لما أمكننا تخليصك، أو معرفة مكانك.

وتفكن متفطنًا للأمر، إذن عمه هو سبب الخلاص، وليس لأنه غير مدان! ماذا يا ترى مصير من حُرموا أعمامًا على صلة بالأسياد؟!

وفي العصر تحامل على نفسه وصعد لزيارة نجوى بشوق واستبشار. أي لقاء مزلزل الفرح في الانتظار؟!

وضغط جرس الباب، فما من جواب، وأعاد وأعاد، لكن نفس الجواب! أيعقل ألا يكون أحد هناك؟ وسارع إلى شقة عبد المقصود، ففتح له عاكف بوجه مذهول، وصافحه ولثمه، حامدًا الله على سلامته. وسرعان ما جاءت والدته وما أن رأته حتى انخرطت في البكاء، فاضطرب وأوشك على الانهيار، ما عاد فيه احتمال. وسألته من خلال الانتحاب:

obeikandi.com

- أين ناج؟؟
- ألم..؟! ربما يخرج عن قرب.
- أين ناج؟؟
- لا تحزني.. هو بخير.. سيخرج قريبًا إن شاء الله.
وعندما سكنت قليلاً أشار بيده يمة شقة العيسوي، يسأل بتعثر، فأجابت بتحسر:
- رحلوا.. رحلوا الشهر الماضي.. وخُطِبت نجوى.. أما عرفت بالنكبة؟!
وقع عليه الخبر وقع الصاعقة، وكاد قلبه ينخلع من صدره، وغامت الدنيا أمام عينه، وأوشك أن يهوي من فوره. وسألها بتعسر، بصوت محشرج، لعل سمعه أخطأ:
- ماذا تقولين!؟!
- يا لسوء بختك يا كمال.. خطبوها لشاب غني، وأقاموا الاحتفال..
- وأقاموا الاحتفال؟!!
- وانتقلوا لشقة على النيل.. لا أعرف ماذا جرى في الدنيا؟! توالت المصائب علينا.. دخل ناج السجن، واختفى باسل، وتركتك خطيبتك!
جسمه يصطرع ويتفزر، ويكاد يبكي ويتفجر. وأغرقت أم ناج في النحيب المحرق، فهمّ أن يولي، لكن تذكر شيئًا، فسألها، هل تعرف عنوانهم، فنفت، فوقف هنيهة يتأمل، ثم تذكر البواب، لا ريب يعرف، فنزل صوبه يهرول، فسأله، فأعطاه إياه، بالجيزة على النيل. فاندفع بالطريق يأتل.

obeikandl.com

من المحتم أن أستوثق، أن توضِّح لي وتفسّر، ماذا عندها من مبرر.. وقد تُكذّب!! هل أربعة شهور تقلب هكذا الأمور!! وكأنها أربعة عقود. ويقفز في سيارة أجرة، يستحثها لتطوي الطريق طيًّا، فالثواني كتباريح سياط تعذب كيًّا.

وألفى العمارة، ذات أبهة وفخامة، فسأل البواب عن أسرة العيسوي، فأجابه بأنهم بالثالث، فأخرج من جيبه قصاصة وقلمًا، خطَّ فيها اسمه لنجوى طالبًا رؤيتها، ثم أعطاها إياه مع منحة مالية.

الدقائق تنقضي كساعات، ونظره معلق بالمصعد، يصطرع ويتوتر، يتشاءم ويتعذب. حتى أخيرًا خرجت من المصعد تتقدم، ومدَّت يدها تصافحه بابتسامة باهتة تتحرج، وعلى أساريرها سمات الأسف والتربّج، تحييه بصوت متعثر:

- الحمد لله أنك بخير يا كمال.

- هل حقًّا ما سمعته؟!؟

فنكست رأسها، يمتقع لونها، وأجابت في ارتباك وخجل:

- نعم.. أرغمني أهلي على الخطبة وأصروا..

- أهذا كل ما بالأمر؟! وببساطة وافقتي!.. وأين العهود والمواثيق؟؟

- لم يكن لي في الأمر حيلة..

- أليس لكِ إرادة؟ هل يُعقل أن يرغموكِ على شيء كهذا.. إلا إذا..!!

- يا كمال، الزواج قسمة ونصيب.. هذه إرادة الله.

فيعبِّر في مرارة وغصة خانقة:

- بل هذه خيانة.. أجل خيانة.

obeikandl.com

ونكست رأسها يمتقع لونها. فيفصح مخنوقا باللوعة والأسى:
- بعد كل ما أبديته وبذلته.. هل يمكن أن يرغموكِ.. !
- لم يكن في إمكاني فعل شيء.. صدقني.. أنت تعرف أبي.
ومدت يديها إلى الأمام في تسليم. فأومأ برأسه بابتسامة مريرة:
- أجل أعرفه.. وأعرف أيضًا أنكِ خُنتِ..!!
ويتفرسها. رأسها منكس لا تنبس. وانقضت لحظة صمت مقبضة. فهمس بتعسر:
- إذن انتهى كل شيء؟!
وترقّبَ ردها بلهفة، متشبثا ببارقة أمل أخير، ربما بعد أن عاد يتغير المصير.. وتثوب لمشاعر الحب القديم، لكنها التزمت الصمت الأليم، رأسها ما فتئ منكسًا، تتشاغل بتقليب قلادة على صدرها، تخفي توترها وحرجها. ثم همست أخيرًا:
- الوداع يا كمال.. أرجو لك كل سعادة وتوفيق.
وتراجعت في طريقها للمصعد. وهو قائم بإحساس خانق، جسمه مضطرم ونظره غائم.. لا مناص من التسليم بالفراق الباهظ .
ويهمس بشجن وهو يتابع خطاها:
- الوداع يا نجوى.. يا أجمل وآلم وهْمٍ في حياتي.
ودار على عقبيه يسرع بالرحيل، قبيل أن ينهار وينفجر في النحيب.

واندفع يأتل على ضفاف النيل تائهًا. الرؤى كلها كئيبة قاتمة، فالناس أشباح شاردة، والأشجار هياكل شائهة، وصفحة النيل باهتة، ككل أيامه ولياليه المقبلة.. لا يمكنه أن يميز فيها أي صورة واعدة.

obeikandl.com

وبعد زمن سحيق نكص إلى البيت يتحسر ويتمتم بيأس:

- لم تضع نجوى فقط، بل مصر كلها!!!

❖ ❖ ❖

تم الجزء الأول بعون الله

وإلى اللقاء في الجزء الثاني

obeikandl.com